

يوسف القعيد

هذه الرواية



فى خريف ٦٤ ، وصلت الى نجع السوالم بعثة للبحث عن البترول، ومع أول قطرة من مطر ذلك العام ، رحلت البعثة. طمأن المهندس الناس. البترول موجود ولكنه غير اقتصادى . العائد منه لا يغطى التكاليف ، سيؤجل المشروع سنوات قد تطول . تنتهى الحكاية على أرض الواقع ، لتبدأ الرواية. أحداثها تبدو كالتالى : البنت كلمات واحلام المهندس أجنحة ، طار بها سكان البلد. رحلوا ، سافروا فى الزمان . كون كل منهم لنفسه يوتوبيا خاصة به. أصوات المهندس تصبح شروخا وشقوقا تصيب وجودهم . يرحل المهندس . الجوابون التعساء فى رحم الليل ، يلوب تحت أقدامهم طريق العودة . حب الدين سرحان ، سلسبيله على الله ، أبو السعود ، المعلم يعقوب ، العمدة ، مملوم ، ورداني . وجوه تطل علينا من خلال أسطر الرواية. تصرخ ملامحهم فينا كل منهم يصحو على واقع يعيشه ، تتمدد بداخله رغبة دافئة فى الدخول مع الواقع فى علاقة انسانية . تبدأ وتعيش وتموت مكتسبة لون ورائحة المأساة

المكان الذى يعرفه الروائى ، هو البلد الذى يعيش فى قلبه . البيات الشتوى . تمنح أبطالها ، الفقراء الشرفاء وعيا بالعظمة التى يجهلونها فى أنفسهم . الرواية ترفض الحكاية التقليدية، ولغة القواميس ، والتصوير الفوتوغرافى ، يخلق عالم خاص بها . له زمانه ولغته ومكانه وشخوصه .

واقعية تبدأ من جزئيات الواقع ونثر الحياة اليومية ، واقعية أسطورية شعرية لا تعد بديلا للواقع الحقيقى ولا الغاء له . ولكنها تقدم رؤية فكرية لواقع القرية المصرية الآن .

يوسف القعيد

البيات الشتوي

الناشر

مكتبة مدبولي ـ القاهرة

البيات الشتوي

بقلم

يوسف القعيد

احكم بالعدل يا قاضى
قدامك مظاليم ..

● من موال شعبى ●

تقرير عن الحالة في السوالم

ساعة الاصيل فى مسجد سيدى الفريب .

يقف الشيخ محمود امام باب المسجد ، على الدرجتين الصفيرتين ، وفى كل يوم يدرك انهما تآكلتا ، وانه عند جمع المسانية القادمة ، سيبنى بدلا منهما ، غير انه فى كل عام كان يؤجل الموضوع كله .

ـ السنة الجاية تفرج .

الشيخ محمود يخرج ساعته القديمة ، يتحسسها بيده ؛ يقربها من عينه اليمنى حتى يلامس زجاج الساعة بقايا رموش العين ، يضعها فى جيب الصديرى الداخلى ، يدخل الميضة ، يتوضأ ، يتمشى فى باحة المسجد ببطء ، عيناه تطالعان شيوخ البلد ، رجال كبار ، يجلسون فى صحن الجامع طول النهار ؛ يحكون حكايا مبللة بالوجد عن ايام خير مضت ولن تعود ، وتخرج الكلمات من افواههم التى بلا اسنان ، هشة خافتة كالانين . انهم يأتون وقت الضحى ، يخلعون نعالهم القديمة ، التى كانت احذية لأولادهم . يضعونها تحتهم ، يسندون العصى التى يتوكأون عليها على الحائط . يتقارب الشيوخ ، يبتسمون وقد رقق المرض من كل شىء فيهم ، يجمعون شمل الذكريات القديمة ، وتموت الرؤى المرتعشة على الشفاه ، وتتعلق فى العيون دموع جفت منذ سنوات . انهم يترحمون على الذين ماتوا .

ـ سبقونا الى دار الخلود .

يتذكرون الاحياء ، الذين اقعدهم المرض فى بيوتهم . يتأملون حياتهم ، انهم قضوها يجرون . يلهثون ، يكرهون بعضهم البعض ، يتعاركون على دور المياه والرى والمحصول . يكتبون الشكاوى فى السر ، لاولياء الله واولى الامر فى البندر . غير انهم يدركون الآن . فى لحظة العصارى ، انهم جميعا مجبرون على السفر بمفردهم . فى آخر الامر ، الى جهة غير معلومة .

ان الشيخ محمود يستعد للصعود فوق المئذنة ، كى يؤذن لصلاة المغرب ، انه ينظر الى المئذنة من باحة المسجد ، بناء قديم ، حائل اللون ، يشق الفراغ الازرق المغسول ، يطعن السماء الصافية ، يلتقى بها على البعد ، يتلامس معها ، ويصبح فى النهاية جزءا منها . من فوق المئذنة ، يشاهد الشيخ محمود ، مناظر تطالعه كل يوم ، مساحات لا نهائية من الخضرة ، وفى الحقول رجال واطفال ، يحلون البهائم ، يغتسلون ، يصلون ما فاتهم من فرائض اليوم ، استعدادا للعودة من الحقول . فى السماء الصافية ، طيور تستعد للهجرة نحو اعشاشها بعد يوم طويل . يحاول الشيخ محمود ، ان يرى اكثر من ذلك ، انه يشاهد بلادا بعيدة ، بقعا يختلط فيها البياض بالسواد وسط الحقول . تبدو له ترعة ساحل مرقص ، ترتفع على البعد ، حتى تلتقى بالافق ، وتكون قد تحولت الى مجرى صغير ، خط ازرق متموج كقناة فى احد الحقول ، بقايا ظلال المئذنة تتكسر على الحارات والبيوت والحقول القريبة . فوق اسطح البيوت ، يتناثر الحطب الجاف ، وبعض البيوت خلا من الحطب ، فتبدو اسطحها رمادية اللون ، ومن مناور البيوت يخرج الدخان . الشيخ محمود يدرك انه لو كان فى الحوارى الآن ، لسمع صوت طشيش التقلية ، وشم رائحة السمن المحروق ، ولرأى الرجال على المصاطب ، وامام دكاكين البقالة والاطفال يلعبون فى الحوارى . فى الحقول ، رجال تأخروا فى العودة بسبب اعمالهم . على الجسر يقف الشبان ، يدخنون ويتحدثون ، كلمات كسولة ، تتخللها فترات صمت طويلة ، وعلى الناحية الاخرى من الجسر ، مسافرون لم تحضر لهم سيارات . انهم يقفون وقد تعلقت عيونهم بمكان بعيد فى الافق ، حيث يتوه الجسر تماما بين الاشجار العالية . انه اول مكان تظهر منه السيارات القادمة من كفر عوانه . تحت الشيخ محمود مباشرة ، باحة المسجد والميضة والدورة وطلمبة رفع المياه . ان الرجال يتوضأون ، يصلون ما فاتهم . وفى صحن الجامع ، مصباح قديم ناعس ، يروح ويجىء ، فتتحرك الظلال والاضواء مع حركته البطيئة ، فتكشف عن محتويات الجامع .

وعلى المدى البعيد ، كانت زرقة السماء غامقة ، وكانت هناك بعض النجوم القليلة بدا لمعانها خابيا . ان ليل الخريف البارد ، لياليه الطوال ، يرتفع الآن من الحارات والجسر والحقول

المنبسطة حتى اللانهاية . الشيخ محمود يخرج ساعته ، يقربها هذه المرة من عينيه أكثر من المرة السابقة . يضعها فى جيبه بسرعة ، يدور حول المئذنة ، تهب نسمة هواء خريفية فتداعب جلبابه ، يعدل وضع العمامة على راسه الاصلع ، يرفع يده اليسرى . تنحسر عنها الكم ، فتبدو رفيعة معروقة . يرفع يده اليمنى . يضعها على خده . يغطى بها نصف فمه ، يفتح عينيه اللتين بلا رموش على آخرهما ، يستنشق هواء مبللا برائحة الماء والخضرة ، يفتح فمه على آخره ، تبدو عروق رقبته غليظة منتفخة

— الله اكبر ، الله اكبر .

على مدى سنوات طوال ، ولا احد يدرى كم عددها ، ايام غير معلومة ، ساعات لا يحسبها احد ، حدثت أشياء كثيرة ، احداث مدهشة ، حكايا لا تصدقها الآذان . ان هذه السنوات التى مرت ، لحظات بطيئة من الفراغ ، تسربت ومعها حياة الناس ، الميلاد ، معاناة لحظات العمر ، الشيخوخة والمرض ، ثم الموت فى النهاية . ويكتب الناس على وجه الايام والليالى قصص حياتهم ، حكايا أيامهم العجاف . يتعاقب الليل والنهار ، تدور دورة الخريف والشتاء ، ذلك ما كان ، وما هو كائن ، غير ان ما يحدث فى هذه اللحظة ، فى حياة كفور السوالم « الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين من مساء يوم الاثنين الخامس من شهر اكتوبر سنة اربع وستين وتسعمائة والف ، من بعد ميلاد السيد المسيح » . امر غير عادى ، بل انه يحدث فى حياة البلد للمرة الاولى .

الناس تنظر للأمر بدهشة ، ويحاول كل منهم حساب الامور فى ذهنه ، كى يتوصل الى رأى فيما يحدث . وبمجرد أن يخدش شكل الحياة فى السوالم ، حادث ما ، وينفذ الى حياة الناس ، حتى تتباين وجهات نظرهم اليه ، يأتى المساء ، ويجتمعون على المصاطب ، أو على الجسر الكبير ، أو فى باحة المسجد ، ويتناقشون فى الامر ، يقولون كلمات بسيطة ، تخرج من الافواه مطحونة ، متآكلة الحروف ، يدلى كل منهم برايه ، ولا يتفقون على أمر ما فى النهاية . ان الكلمات ليست اهم الوسائل فى الاتصال بين الناس ؛ الصمت ؛ النظرات المنكسرة الزاخرة بالصبر والمرارة ؛ التعب والاجهاد المنسال على ملامح الوجوه . وربما كانت تشكل اتصالا روحيا بين الناس ، اكثر من الكلمات .

تظلم الدنيا ، تبتلع عتمة المساء ، البيوت والترعة والاشجار

والجسر الكبير . يعود الرجال الى بيوتهم ، فى حجراتهم الصغيرة ، يعيدون لزوجاتهم ، واولادهم الصغار ، التعليق على ما يحدث . والرجل لا يحكى فحسب ، انه فى منزله ، وهنا توجد مملكته ، لذا فانه يحكى ما حدث ، ويعلق عليه ، ويتناوله بالمناقشة ، ثم يدلى برايه انهائى فى الموضوع ، على انه الراى الصحيح ، الذى لا يقبل مناقشته مع احد .

اليوم هو يوم الاثنين ، وفى ساعة الاصيل ، والرجال واقفون على الجسر ، يتحدثون فى أمور عامة . توقفت سيارتان ، من سيارات الحكومة . على الطريق الزراعى . ثم اتجهتا الى الجسر ، ومنه الى السوالم ، دهش الناس ، ان السيارتين تتجهان الى الفضاء الذى يفصل بين السوالم بحرى والسوالم قبلى ، وهو ليس فضاء واسعا ، فحوله منازل من كل ناحية ، والسبب فى تركه فراغا ، ان فيه دائما نشع ، يصبح بركة مياه ايام الفيضان . مما ادى بأهالى البلد ، لجعله وقفا لمسجد سيدى الغريب .

ينزل من السيارتين رجال ، افندية ، قادمون من البنادر ، ينزلون اشياء كثيرة ، مناضد ، خيام ، حقائب . ويدور بين الناس الغرباء ، حديث ، ضحكات ، وفى محاجرهم تدور عيون مستطلعة ، جريئة . ان من ينظر الى البيوت المحيطة بالمنطقة التى يقف فيها الرجال الغرباء ، يجد ابواب البيوت والمناور الصغيرة واسطحها ، قد اصبحت مبطنة بالعيون الصغيرة المستطلعة . اطفال صغار ، نساء ، شيوخ مقعدون فى المنازل . العيون تنظر ، وقد ران على الناس صمت مشحون ، متوج بالقلق والرغبة فى معرفة امر هؤلاء الغرباء .

بعد قليل ، كان الاطفال والصبية ، قد اقتربوا من السيارتين والرجال الغرباء . راوهم عن قرب ، استطاعوا ان يستمعوا الى كلماتهم ويرون ما معهم ، فادرك احد الصبية الصغار ، حقيقة ما يجرى . القادمون يحفرون الارض ، ويدقون الاوتاد لنصب الخيام ؛ للسكنى فيها ، وبمجرد أن توصل ذهنه الى ذلك ، انصرف مسرعا ، كى ينقل الخبر الى أهالى البلد ، وعندما يهل على السوالم شخص غريب ، فان جميع أهالى البلد ، رغم ما يكون بينهم عادة من الخلافات ، يعتبرونه ضيفهم ، ويرحبون به ، ويفرحون لوجوده جميعا .

على الجسر ، ارسل الرجال فى طلب حب الدين سرحان ، كى

يسألونه عن الغرباء . وقبل أن يحضر حب الدين ، راح كل رجل يخمن من يكونون . قالوا : قد يكون الغرباء من مصلحة المساحة، أو من المركز ، أو من بنك التسليف الزراعى ، أو من وزارة الصحه العمومية . قال لهم حب . بعد ان حضر ، انه يعتقد ان الذى حضر الليلة هو الباشمهندس .

– الباشمهندس مين ؟

ذكرهم حب الدين ، انه منذ ستة اشهر مضت ، حضر الى البلد ، شاب صغير ، يضع على عينيه نظارة طبية .

قال احدهم :

– صحيح ، فيهم واحد بنضارة ، أنا شفته بعينى .

أن هذا الشاب . قد اخذ عينة من الارض الفضاء الصغيرة ، وعينة اخرى ، من نصف الفدان الذى يملكه وردانى . اخذ هذه العينات ، ثم سافر الى مصر ، ومن يومها لم يعد ، ونسى الناس بالتالى . حكايته تماما .

– فاكرين والله .

رفع كل منهم يده الى جبهته ، ووضع السبابة بجوار اذنه اليمنى ، مؤكدا انه يتذكر ذلك ، وان الستة اشهر ، نصف السنة ، مرت كانها فركة كعب قصيرة .

الرجال يستعيدون الآن حضور المهندس ، كان الوقت صباحا ، وكانت شمس ذلك اليوم زاهية . قياس الارض ، تحديد مكانين . ارض الوقف الخلاء . ارض وردانى بحرى البلد ، اخذ عينة من المكانين ، حضور العمدة الى المهندس بنفسه ، سؤاله عن السبب فى اخذ العينات ، المهندس يقول له ، وهو منهمك فى عمله . هناك احتمال وجود بترول فى المنطقة ، تحليل العينات اجراء مبدئى ، ونتائجه ليست نهائية ، قد يعود أو لايعود الى البلد بعد ذلك ، العودة متوقفة على نتائج الدراسات التى ستجرى على هذه العينات يوميا ، سأل المهندس ، اسئلة كثيرة . عن السوالم والبلاد المحيطة بها ، عدد سكان البلد ، مساحة الارض التنظيمات السياسية ، متوسط دخل الفرد ، مستوى التعليم . وزار بعض الفلاحين فى بيوتهم ، ومكث بداخل البيوت طويلا ، وشاهد طعام الناس . وجلس امام الكانون والفرن . ودخل غرف المعاش وشرب من الازيار . وفى المساء ، رحل المهندس عن البلد .

يقول الرجال ، ان حكاية المهندس . ايامها . منذ نصف عام ، تحولت الى نكتة ، وبعد رحيله ، فى الليل ، فى عشة سلسبيله ، تناولوها بالحديث .

– قال بترول قال .

قال احدهم :

– بترول يعنى جاز ، والجاز بنشغل به الوابور واللمبه نمره عشرة .

– ياعم دا فيها اللى مكفيها .

وضحكوا ، انهم يستلقون على ظهورهم من الضحك . وبين رشفات الشاى ، بداوا يتكلمون ، تتمدد أصواتهم فى رهبة الليل. ومع دخان الجوزة ، بدأ بعضهم يغنى ، تجرح اصواتهم الليل بموال عتاب حزين . وقال لهم حب الدين : ان البترول هو الجاز الذى يشترونه من المعلم يعقوب ، بالكابون ضمن التموين ، مع السكر والزيت . وانه رغم غلو ثمنه ، الا انه يخرج من الارض بكميات كبيرة . وعارضه احدهم ، قال ان الجاز يصنع فى السويس . وقال شاب ، كان يتعلم فى المدارس من قبل ، ان أول دول العالم انتاجا للبترول هى دولة الكويت .

قالت سلسبيلة من خلف نصبة الشاى :

– آهى تخاريف ليل .

آخر الليل ، عاد الرجال الى بيوتهم ، وكانت البيوت والحارات والاشجار ، تنام فى الظلام كجنين مبهم ، لم تتحدد ملامحه بعد . لمخلوق مقبل ، وكان السكون يمد رائحته على البلد .

ذهب الرجال الى حقولهم فى صباح اليوم التالى ، وهناك ، بذروا فى رحم الارض ، ضبابا ومواسم وهمية واحلاما . ونسوا حكاية المهندس والبترول خلال سوقية الحياة وتفاهتها المتجددة ، حيث تحنط الاحلام ويرسو الذبول ، ويعلو الصدا روح الحياة ، ويؤجل كل شىء .

حب الدين يستاذن من الرجال ، انه يريد ان يذهب الى المهندس ، للسلام عليه والترحيب به ، والسؤال عن الصحة والحال وما فعلته به الايام .

– وتعرف لنا الخبر ايه ؟

تواعدوا على اللقاء فى عشة سلسبيله بعد صلاة العشاء . حب الدين يسير ناحية البلد ، شابكا يده اليمنى فى يده اليسرى

خلف ظهره . يسير ببطء ، ناظرا الى الارض تحت قدميه ، مفكرا فيما صارت اليه الحال . الرجال يقفون على الجسر . المساء يحل الآن بالسوالم ، وظلال الشمس اللينة الطويلة بهتت معالمها وذابت ، تهب النسمات الطرية فتصافح الوجوه ، ويقل الرجال الواقفون على الجسر ، يذهب بعضهم لصلاة المغرب . ويعود البعض الآخر الى منازلهم . لم يكن هناك حديث للناس ، سوى موضوع المهندس ، الخيام التى نصبت ، السيارتين ، ذكرى حضور المهندس الى البلد منذ ستة أشهر ، العينات ، الارض ، البترول ، ونسى كل فرد همومه الخاصة ، واشترك مع الآخرين فى هذا الموضوع الطارىء وقال احد الرجال لزوجته ، وهما يتناولان طعام العشاء ، فى وسط داره :

— لا ، ولسه ياما حانشوف .

بعد العشاء ، عشة سلسبيلة ، وسلسبيلة مشغولة الآن بتجهيز العشة . تحضر الوابور ، البراد الكبير ، الاكواب ، الشاى ، السكر ، المعسل ، عشة سلسبيلة بجوار الجسر ، على الترعة ، ن مواجهتها ، فى الناحية الاخرى ، مصلى صغير ، دوران طينى منخفض ، فى التواء سكة الثعبان ، على شكل نصف دائرة ، فرش بقش أرز ، وعند بابه الصغير درجات من الحجر ، تبدو مغسولة دائما بمياه الترعة ، يتوضأ الرجال عليها قبل الصلاة . فى منتصف المصلى ، شجرة جميز عجوز ، يقول الرجال انها حضرت هوجة احمد عرابى المصرى . بجوار عشة سلسبيلة يوجد سبيل ، ثلاثة ازيار دفن نصفها الاسفل فى الارض ، فوقها تكعيبة عنب تظللها « ويا بخت من سقا مسافر عطشان ساعة القيالة » .

عشة سلسبيلة تقوم مقام المقاهى التى يشاهدها الرجال فى البنادر ، غير انه لا يوجد فى العشة كراسى ولا مناضد ، ولا يحضر كل الرجال الى العشة ، وحتى الذين يحضرون اليها ، لايواظبون على الحضور . اثنان فقط ، لابد من وجودهما كل ليلة ، سلسبيلة دى الله وحب الدين سرحان ، وهما صاحبا العشة ، اما وجوه الرجال فتتغير كل ليلة .

يجلس الرجال فى دائرة ، او فى مجموعات صغيرة حسب الحال ، وتدور عليهم اكواب الشاى والجوزة حتى آخر السهرة . انهم يحضرون الى العشة كى يستريحوا من عناء العمل طول النهار . سلسبيلة تجلس خلف النصبة ، فى آخر العشة من الداخل ، اما حب الدين ، فانه يجلس فى منتصف الرجال ويقوم بتوزيع الطلبات عليهم .

— بقى وسلمت على الباشمهندس ؟

ينسى حب الدين احيانا عمله ، ويجلس وسط الرجال ، يحكى لهم الحكايا ، الرجال ينصتون ، ويظل يحكى ، الى ان تذكره سلسبيلة بعمله ، فيقوم كى يوزع الطلبات ، وهو يحكى خلال ذلك أيضا . الرجال فى السوالم ، يحضرون الى العشة ، مدفوعين

الى ذلك برغبة فى ان تكتحل عيونهم بمرأى سلسبيله ، او سماع حكايا حب الدين . السهر عند سلسبيله سفن من الورق ، يبحر فيها الرجال فى ليل السوالم . حب الدين يجلس الآن وسط الرجال ، يحكى حكاية المهندس . ذهب اليه ، سلم عليه .

— الحمد لله على السلامة يا باشمهندس .

يقسم حب الدين ، ان المهندس ما زال يذكره ، لا بشكله فقط ، بل باسمه ، وانه قال له : ازيك ياسى حب الدين . وساله عن البلد والعمدة ، واسم صاحب الارض ، التى اخذ منها العينة منذ ستة اشهر ، يقول حب الدين ، ان المهندس قد حضر هذه المرة لاقامة طويلة . وانه قد اجل زيارته للعمدة حتى صباح الغد ، وانه قد نصب ثلاث خيام فى ارض الوقف .

— وماعرفتش ايه الموضوع ؟

يقول حب الدين : الموضوع كله سيعرف فى الغد . لا داعى للاستعجال ، سيكون خيرا . قال لهم : انه مطمئن للمهندس ، فهو رجل لطيف ، يحب الناس ويسعى لمصلحتهم ، المهندس اكد له ، ان الايام القادمة ستحمل للسوالم كلها الخير ، خير من نوع جديد . لم يعلق الرجال اهمية على كلام حب الدين الاخير .

— ومنين ييجى الخير ؟

— الخير ايامه راحت ياعم .

يحكى لهم حب الدين ، شاهد المهندس ، يعلق غياراته الاخرى داخل الخيمة ، وان المهندس ساله عن كيفية الحصول على الطعام وسعره ، وان كان فى السوالم بيت من الممكن ان يستأجره ، وانه ساله عن اسم مأمور المركز ، ومعاون نقطة البوليس تكلا العنب . لم يفهم الرجال كلام حب الدين ، وبدأوا يفقدون اهتمامهم بالموضوع كله. كانوا يتصورون ان المهندس سيغادر البلد فى الصباح الباكر على الاكثر ، غير ان الموضوع لم يكن واضحا فى اذهانهم ، كانت الامور ضبابية وقلقة فى فهم كل منهم . الضبابية تكمن فى امر واحد ، ماذا يريد المهندس من بلدهم . كانت حكاية البترول والخير الذى ينتظر الجميع . احلاما لم يكن هناك من يحلم بها . اقصى ما كان يحلم به احدهم . فى هذه الليلة ، هو ان يكون حسابه فى الجمعية التعاونية فى آخر العام بالعدل ، وان يتبقى له من ثمن المحصول ما يكسو به الاولاد ، او ان يمتد دور المياه يوما واحدا

او ان ينجح ابنه الذى يتعلم فى مدرسة المركز ، او ان تلد جاموسته عجلين فى بطن واحد .

حب الدين يقول لهم ، انه أحب المهندس ، ومن يدرى . لعله يكون اهله ، من الفلاحين مثلهم . الرجال يدخنون ، يمسك حب الدين غابة الجوزة ، يجلس وسطهم ، تدور الغابة بين الافواه ، وكل منهم يمسك بطرفها قبل ان يدسها بين شفتيه ، تتوهج الجمرات فى حجر الجوزة ، ويخرج الدخان الازرق من الانوف والافواه كثيفا ، يتلون فى جو العشة ، فيملؤه بالظلال ، التى تحجب عن الرجال الضوء الخافت . ترتفع ايادى الرجال ، تمسح الظلال عن عيونهم ، يحدقون فى بعضهم ، يتأكد كل منهم ، ان الآخرين كما هم أمامه ، يصعد الدخان الى رءوسهم ، يشعرون بالدوخة .

وتنفك عقدة اللسان . الكلمات تقال الآن ، لكنها تخرج كسولة ، كما فى حياة السوالم من الحزن اليومى المتجدد ، حيث يبدأ وينتهى كل شىء بعد صلاة العشاء . ويصبح الذهاب الى الفراش امرا له خطورته ، والجلوس فى عشة سلسبيله تكلف الكثير . ظلام الليل يتوج اليوم كله بالحيرة . يوم مر كغيره من ايام العمر ، وقد يمر اليوم بلا عمل ، وبذلك يكون قد سقط من حساب الحياة .

ان فترات الصمت التى تتخلل حديث الرجال قد طالت ، واصبحت الشفاه المزمومة لا يخرج منها سوى حروف قليلة . الحديث يتناول كل ما فى حياة السوالم الصغيرة . الحديث يدور بين الرجال ، وسلسبيله تنظر الى الرجال بعيون ميتة ، من خلف النصبة ، ونادرا ما تتشارك فى الحديث معهم . حب الدين يتوسط الرجال ، وقد كف عن متابعة حكايته مع المهندس ، غير انه كان يود ان يقول لهم ان المهندس قد وعده بالعمل معه ، سواء فى السوالم او فى بلاد اخرى ، وانه خير له ان يترك البلد ، فحاله لا يسر احدا من الناس . غير انه صمت ، جلس ويداه فى حجره . وسند الجوزة الى صفيحة المياه امام سلسبيله . الحديث بطىء كتيار ترعة ساحل مرقص ، الذى ينساح تحت العشة مباشرة ، والكلمات مسترخية كما تمضى لياليهم تحت سماء منقوشة بالنجوم اللامعة . مثقلة بضباب ليالى الخريف الباردة ، والحمل فى حديث الرجال متثاقلة كتثاقل مرور الحياة فى السوالم .

قبل انتصاف الليل ، قال ورداني ، وكانت تلك اول مرة يتكلم فيها ، منذ ان جلس فى العشة ، ان قلبه غير مستريح لحكاية المهندس ، وانه يقسم للرجال ، من الآن ، ان فى الموضوع شيئا ما ، فى غير مصلحة اهل البلد كلهم ، ان قلبه دليله ، وقلبه لا يخطئه ولا يكذب عليه .

ـ والله انا عينى الشمال بترف من يومين .

قال ورداني ، ان رف عينه الشمال دليل شؤم ، وانه لن يستريح الا بعد سفر المهندس وتركه البلد . وطلب ورداني من الله ان تمر هذه الايام على خير . فمن يدرى ماذا سيحدث للبلد .

ـ ومالكو محيرين نفسكو ليه ؟
بكره يرحل ، وترجع ريمه ..
اكمل أحدهم حديث سلسبيله ..
ـ لعادتها القديمة ..

ضحكوا ، وتعالت الضحكات فى جو العشة ، طلبوا من سلسبيله دور شاى يختمون به السهرة . وخلال شرب الشاى ، قالوا لانفسهم ، أنه من المستحسن لهم ان يذهبوا الى المعلم يعقوب . يطلبون منه المشورة ، فهو أقدر منهم على فهم هذه الامور ، قال الآخرون ، لابد من فتح الكتاب ، لقراءة الغيب ، فلا يمكن السكوت على ما يحدث فى بلدهم ، وتمنى بعض الرجال ، لو تمر على بلدهم فى الصباح الباكر الفجرية ، تكشف لهم الاثر ، وتعرف ماسيكون . بعد شرب الدور الاخير . قام الرجال .

ـ تصبحوا على خير يا رجاله ..

تفرق الرجال فى حوارى السوالم . الليل ينتصف الآن ، وفى ظلام الليل ، تبهت المعالم المألوفة ، وتبدو للناس كالاشباح . وتبدو السماء مرصعة بالنجوم ، وقد تحجب النجوم غيمة منخفضة كأنها الوسادة فوق الارض ، وتظهر النجوم بين الحين والآخر ، كأنها تغمز غمزات متقطعة خلال الغيمة الرمادية . ويهب على الرجال هواء مشبع برطوبة ليلية . يصل الرجال الى بيوتهم . يتبولون فى الحوارى أمام أبواب البيوت ، يدخلون بيوتهم . وفى الزرائب ، يطمئنون على بهائمهم ، يضعون لها العلف فى المزاود ، وفى حجرات نومهم يخلعون ملابسهم ، ويرتدى الرجل منهم جلبابا قديما على اللحم ينام به . وفى حجرات نومهم ، يقضون اوقاتا

راعشة ، لحظات نادرة ، ينسون فيها كل الاشياء ، يتحسسون الاجساد البضة الناعمة ، يعيشون لحظات فى حلاوة الشهد ، يقولون كلمات ملساء ، يشربون رحيق نسائهم ، يتحسسون بألسنتهم المشققة خدود رفيقات العمر فى رقة وحنان . انهم يبذرون فى الارحام اطفالا ، شوهتهم مرارة الايام وقسوتها ، وشكل الصبر ملامح وجوههم .

ذلك ما يحدث فى الليل ، ولكنهم فى الصباح ...

فى الصباح ، قرر المهندس عصمت ، ان يزور العمدة فى منزله ، ارسل له من اخبره بذلك . فى العاشرة ، اتجه عصمت الى دوار العمدة . الطريق ، الشارع الرئيسى ، الحارات الضيقة ، كل شىء يؤكد معنى الجفاف ، ذبول وجوه الرجال الجالسين على المصاطب بدون عمل ، اختفاء الحطب من فوق السطوح ، افرع الاشجار العارية ، الجرداء ، كأنها تصاوير الرعب ، تحت الاشجار ، الاوراق الجافة المتساقطة على الارض ، تذكر الناس ، فى كل لحظة ، ان السوالم ، تمر بأيام الخريف . عصمت يسير فى حوارى السوالم بمفرده ، واضعا يده اليمنى فى جيبه الايمن ، ويده اليسرى فى جيبه الايسر . انه يفكر فى مشروعه المقبل ، ويدرك انه وحيد ، وانه سيواجه مصيره هنا بمفرده ، انه يكاد يحدث نفسه ، غير انه يؤجل الموضوع لحين عودته الى الخيام ، وهناك سيدون ، يكتب ، ترتعش الكلمات وتلتوى الاحرف ، ومطلوب منه ان يدون الكثير .

عند الدوار ، كان العمدة وشيخ الغفر ، وحب الدين سرحان ، وبعض الرجال من اهالى البلد ، وبعض الغفر الذين ذبلت عيونهم من سهر الليالى .

ـ نورت الكفور يا باشمهندس .

ـ الله يخليك ياعمدة .

يتبادلان معا كلمات معاده ، تقال فى مثل هذه المواقف ، السؤال عن الصحة ، والحال ، والمزاج ، كلمات يقولها الناس ، عندما يلتقون لاول مرة ، انهم لم يعرفوا بعضهم البعض ، وهذه الكلمات لا تقرب ما بينهم ، ولا حتى تبدد وحشة الصمت ، ولكنها تقال تزحم مساحات الهواء بين الرجال ، تخرج من بين شفاه مزمومة ، وتلقى على وجوه يصيبها الخجل والارتباك .

عصمت يقول للعمدة ، ان التحاليل المبدئية ، لم تؤكد وجود البترول ، ولم تنف وجوده ، وان المسألة مسألة احتمال فقط .

قال عصمت ، ان المتبع فى مثل هذه الحالات أن يتم حفر بئر

اختبارية ، قال عصمت بالحرف الواحد للعمدة ، ان هذه البئر صغيرة محدودة ، لا تكلف الشركة كثيرا ، ومن خلال البئر يمكن التعرف على امكانية وجود البترول وكميته ، اى عمر البئر ودرجة جودته .

العمدة لايدرك حقيقة ما يقوله عصمت ، لقد تصور ان السبب فى ذلك الى كلام عادى ، غير ان الكتب والمدارس . بعد ذلك انتقل عصمت الى كلام عادى ، غير ان العمدة لم يكن يعنيه هل فهم ، ام لم يفهم ، لم يشعر العمدة الا بشعور واحد ، ان هذا الشاب الغريب يجب مقاومته ، لقد ادرك العمدة ، فى الثوانى الاولى ، ان هناك شيئا ما يموت فيه ، يذبل قبل الاوان ، وهذا الاحساس ناتج من انه أمام شىء جديد تماما ، مدهش ، غير عادى ، ممثل فى هذا الشاب الصغير ، الجالس امامه ، يحدثه عن البئر والبترول والتحليلات ، يقول كل هذا بكلمات رائعة ، وان لم يكن قد فهمها .

قال عصمت ، انه قد حضر للعمدة ، للتعرف عليه ، لا يهمه موضوع البترول ، بقدر ما يهمه معرفة الرجال . انه يطلب من العمدة ان يعاونه . انه يريد قطعة ارض ، النصف فدان الموجود بحرى البلد ، حيث ان احتمال وجود البترول فيه اكثر، سيؤجره من صاحبه بشكل مؤقت. وان ثبت وجود البترول فيه ، ستؤجره الشركة بأى ثمن يطلبه . قال ايضا ، انه يريد ان يعاونه الرجال فى العمليات المبدئية فى المشروع بالاجر ، حتى يصل الى نتيجة ما ، وانه يطلب منزلا للاقامة فيه . فذلك افضل من الحياة فى الخيام ، وانه يطلب غفيرا لحراسة المعدات والخيام والسيارتين.

قال عصمت ، انه يمد يده للعمدة ، كى يعاونه فى المشروع ، دون اللجوء الى الرسميات . وانه مطمئن لنتائج المشروع ، قال عصمت ، وهو ينظر الى الحقول ، من خلال النافذة البحرية ، ان نجاح المشروع ، يعنى أن يتغير شكل الحياة فى السوالم ، لسنوات طوال قادمة .

لم يتكلم العمدة ، امتدت بينهما فترة صمت ، وكان يتناهى اليهما نهيق حمار ، وثغاء حيوانات ، ونداءات خافتة تأتى من الحقول البعيدة ، وصوت رياح خريفية تهب من الحقول الواسعة.

ـ قلت ايه ياعمدة ؟

ـ هيه ، أصل الموضوع .

يقول العمدة ، ان الموضوع خطير ، وانه لابد له من الرجوع الى رؤسائه .
ـ لازم المركز يعرف .

افهمه العمـدة بكلمات بطيئة ، ان المركز ومجلس القرية فى شبشت الانعام ، والنقطة الثابتة فى نكلا العنب ؛ لابد وان تعرف الموضوع ، وانه سيرسل فى طلب التعليمات من هـذه الجهات . صمت العمدة ، قام من مكانه ، وقف ، تمشى ، حاول أن يبتسم وان يقترب من المهنـدس ، جلس مرة اخرى ، وضـع يديه فى حجره ، استراح فى جلسته ، وقال المهنـدس ، انه سيتعاون معه ، وانه يصعب عليه من الآن اى تأخير قد يعترض الامور، قال العمدة بسرعة ، كمن تذكر شيئا ، ان للأهالى رأيها فى الموضوع ، ولا بد من الرجوع اليهم ، قبل اتخاذ اى اجراء ، أما من ناحية وجود منزل خال ، فهذا خارج عن ارادته ، فلا يوجد فى البـلد كلها ، منزل واحد خال ، وان الخيام قد تكون اصلح من البيوت أما من ناحية التعاون ، ومد اليد ، وحسن النية . .

ـ احنا اهل يا باشمهندس .

قال كلاما بعد ذلك ، لم يميزه عصمت ، وكانت طيور الصباح تملأ الفضاء الازرق ، تشق السماء طائرة فى فرح . ان البلد ، يقول العمدة ، فى الحقيقة ، عبارة عن بلدين . السوالم بحرى ، والسوالم قبلى . وانه من المفروض ان يكون للسوالم بحرى عمدة آخر ، غير انه يوكل نائبا له هناك . وانه مسئول عن كل شىء هنا وهناك .

قال العمدة ، ان هذه الايام تختلف عن ايام زمان . فى هـذه الايام ، يوجد الاتحاد الاشتراكى العربى « اشـار الى انه الامين العام ، وان الناس هى التى انتخبته واصرت على ذلك » ، يوجد ايضا ، مجلس القرية ، والنقطة الثابتة ، والعمـدة . اما ايام زمان ، تنهد العمدة ، رفع يده اليمنى ملوحا بها . لم يكمل .

ـ عموما ، احنا هنا ، تحت امرك .

يقف المهندس ، تستريح نظراته على البيوت الترابية التى بدت له ، من خلال النافذة ، يمد يده للعمدة ، يصافحه ، يؤكد له انه سيعتمد عليه بشكل رئيسى . يقول له العمدة ، انه سيكون ذراعه اليمنى ، وانه لا يطلب منه ، سوى أن يسلمها الله سبحانه وتعالى ، وأن يضع فى بطنه بطيخه صيفى .

ـ حد يوصل الباشمهندس يا أولاد . .

فى الطريق ، كان عصمت ، وكان التعب والاجهاد ، والاحساس المخدر بالخوف على اول طريق الوصول . همس عصمت لنفسه ، ان المسألة ، ليست الخوف أو الشجاعة ، كان فى نفسه احساس ما ، وربما لا يقـدر على التعبير عنه فى كلمات ، لم يكن يشعر بالاطمئنان ، أدرك انه لم يصل الى ما ينتويه العمدة . ان كلمات العمدة ، وتعابير الوجه ، ولمحات العيون ، والبسمات المرسومة بعناية على الشفاه ، والضحكة الخافتة ، ان كل هذا ، لا يعكس ما فى نفس العمدة . عصمت يتذكر الآن ، بعين خيـاله ، ملامح العمدة الحادة ، عينيه الصغيرتين ، شعره الابيض ، صـدره العريض ، ملابسه ، جلسته ، نظرته من خلال النافذة على البيوت والحقول والناس ، حديثه .

***

فى الدوار ، جلس العمدة بمفرده ، طلب دور شاى ، وطلب الا يدخل عليه احد . وقف ، سار فى دواره ، وقف بجوار النافذة ، أمسك بحديدها ، وراح يستنشـق بملء رئتيه هواء الخريف الجاف ، الذى يحمل له رائحة الارض الشراقى . العمدة يحاول ان يفكر فى موضوع المهندس ، الذى فرض نفسه على حياة البلد وهو من البداية يدرك ان الامور بدات تفلت من يده . هذا الطارق الجديد ، المهندس الشاب ، المبتسم دائما فى صفاء ومودة ، الارض الحكومة ، البلد ، الاهالى . العمدية ليست منصبا ، بل هى كل حياته ، كانت حياة آبائه هنا ، ولا بد ان يكون فى نفس المكان ميراث ابنائه . والطريق من حجرة نومه ، حتى كنبته فى الدوار ، سكة فى القلب ، يقطعها مرتين أو ثلاثا كل يوم ، لم يفهم العمدة الامور جيدا ، غير انه استشعر الخطر من مجرد وجود المهندس فى السوالم ، احس انه مندوب اتى قبل الاوان ، لايام لم تعشها السوالم بعد . ومن يدرى ؟

اشارة : من عمـدة السوالم ، الى نقطة بوليس نكلا العنب الثابتة ، ومجلس قرية شبشت الانعام ، ومركز ايتاى البارود . حضر الينا اليوم ، مهندس من مصر ، واقام خيامه بالناحية ، وقال انه ، حاضر طرفنـا للبحث عن البترول ، وقال ان معه التصاريح اللازمة لذلك . رجاء افادتنا ، على وجه السرعة ، عما

يتبع نحوه ، واقبلوا التحية . مبلغ الاشارة ، امضاء . التاريخ ، رقم الصادر .

العمدة ، رغم انه يفك الخط ، ويقرأ الجريدة ، ان اتى بها احد من الضهرية ، فان كل المسائل فى السوالم مرتبة امامه ، فى الزمان والمكان ، وجميع مشاكل البلد ، تجد عنده الحل دونما اى مفاجآت ، كل الامور ، تجرى بعمليات حسابية دقيقة . واهل السوالم كلهم ، يتصورون انه يطل على البلد من مكان مرتفع . كان عند العمدة وعى بسيط يضبط به مجرى الامور ، غير انه لم يكن يعرف ما فى الطبيعة البشرية من التردد والاقدام ، الخوف والشجاعة ، القدرة على كسر كافة القواعد المتعارف عليها ، العنف ، الخروج عن المألوف . وعندما كانت تسد كافة الطرق فى وجوه الناس ، فان نشاطهم البشرى ، كان يتحول الى مسارات اخرى . العمدة يريد ان يصرف كل الامور فى مملكته بنفسه ، غير ان الحياة فى عفويتها ، فى حضورها الدائم ، فى تواجدها بعبلها وقضها وقضيضها ، كانت تكسر اى نظام ، تجعله تخطيطا مجردا من كل محتوى . وعند ذلك كان العمدة ، يقر ، بينه وبين نفسه دونما كلمات ، بهزيمته ، امام ذلك الشىء الذى لا يعرف له اسما ولا حتى شكلا محددا .

حاشية : الاهالى طرفنا مستاءون جدا من حضور المهندس ، ويقولون لبعضهم البعض ، ان حكاية المهندس لن تنتهى على خير .

الوقت هو وقت الضحى ، والحاج على الدفراوى ، عمدة السوالم ، يجلس فى دواره ، وهو يدرك ، انه امام حادث جديد ، ويدرك ايضا ، ان ما سيقوم به ، لن يجدى شيئا ، وان السوالم الناس والحوارى والبيوت والاشجار والبهائم ، بل والارض من تحتها والسماء من فوقها ، ستفاجئه بشىء لم يقم له اى حساب من قبل .

ملحوظة : المعلومات الواردة فى الحاشية ، لم يقلها لنا احد صراحة ، ولكننا عرفناها بطريقتنا الخاصة .

***

عصمت فى طريق عودته من دوار العمدة ، يسير خلفه خفير نظامى ، حاول عصمت ان يسير ببطء كى يحاذيه الخفير ، غير ان الخفير ابطأ من سيره هو الآخر ، وعندما تأكد عصمت من عدم

جدوى المحاولة ، توقف تماما ، واستدار الى الخفير ، عند استدارته ، رفع الخفير يده بالتحية فى خوف . ابتسم عصمت ، انه لايريد سوى ان يكلم الخفير ، تنحنح ، ابتسم ، حاول ان يبدد وحشة الصمت ، غير ان ملامح الخفير كانت تنطق بالبلادة . ساله ان كانت الجرائد تصل الى السوالم ، قال له : انها لا تصل الا صدفة ، حاول ان يعرف منه عدد السكان ، واسم رئيس مجلس قرية شششت الانعام ، الرجل لم يكن يعرف الكثير ، عند الخيام ، تركه الخفير ، بعد ان حياه ، وساله ان كان يطلب اى خدمات ، وعاد الى دوار العمدة .

عصمت يقف امام الخيام ، ويمسح الفضاء بنظراته ، ارض فضاء يطفو على سطحها النشع ، فيها اشجار نخل وجميزة كبيرة يبدو انها عاقر ، المنطقة التى اقيمت فيها الخيام ، مساحة من الارض ، مغطاة بطبقة جيرية بيضاء ، وعلى حدودها ، تنام بيوت ترابية مبعثرة غير منتظمة ، انه يقف متجها ناحية الشرق ، على يمينه ، السوالم قبلى ، وعلى يساره ، السوالم بحرى ، وامامه وخلفه بيوت صغيرة ، تداخلت فى بعضها البعض ، وعلى مرمى البصر امامه ، زاد النشع ، فتحول الى بركة صغيرة ، تنعكس على صفحة مياهها الداكنة ، سماء خريفية شاحبة ، كنست الرياح السحب منها ، فبدت مغسولة صافية ، وعكست مياه الترعة فروع الاشجار العارية . احيانا ، كانت تنزل بطة صغيرة فى الترعة ، فيثير نزولها تموجات فى المياه ، فتتكسر صور الاشياء ، تطول الاشجار ، تتموج السماء فى ليونة ، تقصر البيوت ، تتكسر اشكالها الخارجية على صفحة المياه .

عصمت يتقدم الى الخيام ، زملاؤه جالسون ، يتمتعون بشمس الخريف ، الموشاة بذكريات الصيف الماضى . ظله واضح على الارض خلفه ، وهو يتقدم ببطء الى الخيام . وعلى البعد ، تحدق العيون الصغيرة فيهم . عصمت يخلع نظارته ، يمسح زجاجها ، يمسكها بيده ، يمسح عينيه بمنديل ابيض ، يفركهما ، يحدق فى قرص الشمس بدون نظارة .

فى الخيمة ، جلس صامتا ، شرب الشاى ، استراح قليلا ، جلس على مكتبه المتنقل الصغير ، اخرج ورقة بيضاء ، امسك بقلمه بين اصابعه ، ادرك ان الحال ليست على ما يرام ، وانه خائف ،

وان الشجاعة مسالة نظرية ، جلس كى يكتب تقريره اليومى عما تم انجازه من خطوات المشروع .

السوالم ، بحيرة ، فى . تقرير للعرض على السيد . مقدم من المهندس . المشرف على مشروع .. وفى صباح الغد ، سيضعه فى مظروف مغلق . سرى وعاجل جدا . يرسل الى المقر الرئيسى للشركة فى مصر

معلومات مبدئية : فى الزمان القديم ، كانت البلد ، عبارة عن عدد غير معلوم من الكفور ، قيل عشرين كفرا ، وقيل اقل ، وقيل اكثر ، الله أعلم ورسوله . كان اسمها ، كفور السوالم ، وبمرور الزمان ، ومروره يفعل دائما بالحياة والناس كل شىء ، تحولت الكفور الى تجمعين ، سمى احدهما ، وهو الذى الى ناحية الجنوب ، السوالم قبلى ، وسمى الآخر ، وهو الذى الى ناحية الشمال ، السوالم بحرى ، واصبح من المتعارف عليه ، ان لكل منهما حدودا فاصلة ، ولكل من البلدين أرضه وعمدته ، وجمعيته التعاونية . غير ان المدرسة الابتدائية كانت واحدة . لا يوجد فى السوالم سوى عمدة واحد ، الا ان لكل بلد منهما شيخ خفر وخفراء مستقلين عن البلد الآخر ، ولكل بلد منهما حجرة تليفون ، شرقى السوالم مباشرة ، ترعة ساحل مرقص ، وهى ترعة كبيرة ، شرقى الترعة ، طريق زراعى واسع ، شرقى الطريق الزراعى ، بلدة اشليمه ، يربط السوالم بالطريق الزراعى واشليمه جسر عريض . غربى السوالم ، طريق صغير ، يتسع لمرور سيارة بالكاد ، يوصلها بشبشت الانعام ، والطريق الزراعى ، يوصل السوالم ، جنوبا بدميسنا وكفر عوانه وتكلا العنب . وشمالا بالضهرية والتوفيقية ، حيث الطريق السريع .

يقول اهالى البلد ، ان هناك «شيخ قديم» ، سيدنا الغريب، قد كتب كتابا كبيرا ، سماه « مدونة تاريخ السوالم » عاش حياته كلها للعبادة والصلاة ، ولمحاولة معرفة كل شىء عن البلد ، ملأ عينيه بالبيوت والاشجار والناس ، وشنف اذنيه بكل ما يقال ، قرا الكتب ، حادث الناس ، سمع وقرا الكثير . يقول المسنون من اهالى البلد ، أن سيدنا الغريب ، كان يبدو للناس فى آخر ايامه ، مهلهل القلب والجسد واللب ، ساهما مفكرا ، مدونا كل ما يراه . يختم الاهالى حكاياتهم ، بالاسف لضياع الكتاب ، وطلب الرحمة لسيدنا الغريب حيث يرقد الآن ، ويحاول كل منهم ان يتكهن بما فى ذلك الكتاب العظيم .

سيدنا الغريب ، يذكر المسنون هذا ، كان يتغنى فى خلوته ، يرتفع صوته الحلو ، يجرح صدر الليل ، تبعثره نسمات الهواء ، تتناقله الاسماع . انصت يا قلبى ، وانع الارض التى نشأت فيها ، لقد اصبحت البلاد حزينة ، فلا من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ، ولا من يذرف الدمع عليها ، فأية حال تلك التى عليها البلاد . انصت يا قلبى ، وانع الارض التى نشأت فيها .

يقول الناس : يرحمه الله .

الصـــورة العامة : ترعة كبيرة ، تنعكس على صفحة ميـــاهها الزرقاء الصافية ، بيوت ترابيـــة متناثرة ، بدون نظـــام ؛ وبين البيوت ، حارات صغيرة ، تصعد مرتفعة بالتدريج الى قلب البلد ، وسط البيوت ، تتناثر اشجار جميز وتوت ونخيل مرتفع ، من يقترب من الترعة وتكون الميـــاه مستوية السطح ، يستطيع أن يشاهد بعض البيوت ، التى تخرج على المـــألوف ، بيوت مطليـــة بالوان زاهية ، طليت فى مناسبات يذكرها الناس ، حج ، زواج ، شراء ارض ، وعلى هذه الالوان ، رسومات صغيرة ، ســـفن ، جمال ، ست الحسن والجمال ، الشاطر حسن ، أبو زيد الهلالى ، الزناتى خليفة ، يرسمها لهم رجل مبيضاتى ، يأتون به من ايتـــاى البارود ، من اجل ذلك خصيصا . بعض البيوت ، مبنيـــة من دورين ، ويقول الناس عنها ، انها مبنية بالمسلح . فى هـــــذه البيوت ، ابراج حمام صغيرة . وخلف الصورة ، اعمدة واســـلاك تليفونات . وفى ركن من الصورة ، مبنى يبدو فوق جميع البيوت ، كأنه يطل عليها ، انه صهريج المياه ، الذى يمد حنفيات البلد ، الموجودة فى الحارات والشوارع ، بالمياه النقية ، للشرب فقط . فى منتصف الصورة ، فضاء صغير ، يفصل البلدين ، انها ارض الوقف ، التى لايملكها احد ، بجوار ارض الوقف ، تبـــدو فى الصورة مئذنة عالية ، مبنى اصفر قاتم ، مطفى اللون . تلك هى الصورة العامة . وعندما تنزل فى مياه الترعة ، ســـاقين رائعتين لامرأة تملأ جرتها ، أو رجل يعوم عابرا التـــرعة ، فان تموجات المياه ، وانكساراتها ، تعجن البيوت والصهريج والمئذنة والاشجار . البلد ، تكون شكلا جديدا ، بعدا آخر أمام العيون ، المرئيات تعود الى شكلها الاول ، بعد ان تهدأ مياه الترعة . تنساح المياه متجهة ناحية الجنوب فى بطء مهاجرة فى الزمان أبدا . وتبدو الصورة ، البيوت والحوارى والناس ، مغسولة بالحنين . نظيفة ، ملفوفة

بالشهد ، احلى من قطر الندى .

خلفية الصــــــورة : اراض زراعية . مساحات لا نهائية من الخضرة ، وسطها طرق ومسارب ومدقات ترابية اللون ، أشجار عالية ، مدارات «سواقى» فى الشمال طريق صغير ، يرتفع حتى يصل نشنت الانعام ، وسط الحقول الواسعة ، رجال نائمون ومواش تأكل فى مزاود صـــغيرة ، اخصاص من الحطب الجاف ، نصبت وسط الحقول ، للمبيت فيها وقت جنى المحصول ، بيوت قليلة بناها فلاحون تركوا البلد ، لسبب او لآخر ، وفضلوا الحياة فى الحقول الواسعة . جنوبى الصورة كوم مرتفع ، تظهر منه عيدان الحلفاء النامية ، لونها اخضر ، خضرة رصاصية ، يتناثر التراب عليهـــا . وسط الحلفاء شـــواهد قبور ، وفى الركن الايمن دوار مرتفع ، مدفن عائلة الدفراوى ، باقى القبور تتناثر على الـــكوم كله ، فى غير نظام ، ثمة طريق مهمل ، غير مطروق ، يصل المدافن بالبلد .

عن الالوان : اللون الرمادى ، لون تراب الارض ، ومعظـــم البيوت يمتزج بلون اخضر رصاصى غامق . يلتقيان معا عند خط الافق الغربى ، بلون ازرق ، صـــاف الزرقة ، لون الســماء . فى الوسط الوان اخرى ، اصـــفر باهت ، احمر وابيض ، غير انها لا تشكل خروجا على المـــألوف من الالوان العامة للصورة .

يدون تحت الصورة ما يلى : الناس هنا طيبون يملـــكون شيئا ما : قدرة خاصة ، انهم عنـــدما يضعون اقدامهم المشـــققة على الارض الشراقى ، ويشقون بطنها بسن المحراث ، فان الارض تبوح لهم بسرها ، ومن رحم الارض ، ينتزعون السر ، كل رجل يملك فى داخله بذرة ما ، احســـاس معين ، يدهش الارض ، يجعلهـــا تصرخ دافعة ما فى رحمها الى الناس . تكتب لـــكم من احد منازل السوالم ، المنزل يقف على رأس الشارع الرئيسى كالحارس الليلى اليقظ ، الشارع يمتد قاسما السوالم الى نصفين كالنهر الـــكبير ، وعلى شاطئيه ، تنبت الحارات الضيقة المرتفعة على الجانبين ، مثل العروق على ورقة شجرة التوت ، وفى ارتفـــاع الحارات ، تتكور البيوت الطينية ؛ ومن جوفها ، تطـــــل العتمة والبرودة والانكماش والانطواء . وفوق الاسطح ، الحطب وصوامع التخزين النساء والاطفال والشيوخ . وفى ساعة العصارى ، تدور العيون فى المحاجر ، تمسح الحارات والحقول والسماء الخريفية الصافية

من اجل هؤلاء وعنهم . تثبت فى أوراق زماننا هذه الكلمات

فى السوالم صمت ليلى ملىء بالمرارة والانكسار. رجال مكسورو القلوب ، يلعبون السيجة وقت الغروب . ويشربون الشاى المر ويدخنون المعسل فى عشة سلسبيله على الله . هنا رجال يتكلمون فى السياسة . ولا ياكلون اللحم الا فى المواسم والاعياد . وينامون على الارض . يربون المواشى والدجاج والطيور كى يبيعونها يوم السوق من كل اسبوع . ويبيعون البيض واللبن والسمن. الرجال هنا . يحملون فى جيوب الصديرى ، محافظ خالية من النقود . فيها ايصالات مكتوبة ، موقعة منهم ، بطلب سلفة من الجمعية التعاونية ، لم يحصلوا عليها بعد ، ومعلق فيها اختامهم الصفراء الصدئة .

فى السوالم . ابناء ليل . شبان بلا عمل ، يسرقون ويقتلون ، ويحلمون بفتح بيوت لهم . وبالتوبة ، لا يظهرون بالنهار، ويملأون الليالى بالخوف والقهر والرعب ، يجرون فى الحقول ، تدوس اقدامهم فى قلوب الرجال ، واهالى السوالم يشفقون عليهم ، رغم كل ما يحدث منهم فى الليالى الطوال ، ويحاولون أن يجدوا لهم العذر .

فى السوالم : سوق واحدة ، تقام يوم الخميس فى الشارع الرئيسى وفوق الجسر ، يتخفف الناس فيها مما عندهم بالبيع . فى يوم السوق ، يذهب الكثيرون ، يلفون السوق ، يملأون قلوبهم بالرغبة فى كل ما يباع ، اليد قصيرة والعين بصيرة ، يعودون كما هبوا ، جيوبهم خالية ، وصدورهم قد فاض بها الصبر ، يعزون انفسهم بأن يقولوا انهم اما حضروا للبحث عن طلب لم يجدوه فى كل انحاء السوق، واما انهم حضروا للفرجة فقط

والصمت اكثر من الكلمات فى أفواه الرجال . قاموس حياتهم شحيح . فقير . نادر المفردات . الحوار يبدا بالصمت . صمت جياش زاخر بالاسى . الصبر صبر ايوبى . انه ليس صبرا : بل نوع من الخضوع للعالم الخارجى والناس والاشياء . فى صناديق النساء القديمة . ايصالات بمبالغ اقترضها الرجال بالربا من اغنياء البلد . فى انتظار جنى المحصول . فى الصناديق عقود زواج قديمة . شهادات ميلاد الابناء الصغار . صور باهتة المعالم لافراد من الاسرة : تركوا البلد . وسافروا الى البنادر القريبة . هنا ارض خصبة . سماء صافية . وهمسات راجفة فى القاعات

الواطئة ، ويقظات حارقة فى الليالى الشتوية الناعسة . فى قيعان الحارات ، وهنا فى السوالم ، آمال ملساء ، ناعمة ، تنسجها الشفاه ، وترسمها العيون . بأن النهارات الرائعة ، لابد وان تأتى الى السوالم ، مع مجىء الربيع القادم .

الرجال ينامون ، يتمددون على ظهورهم ، يطالعهم فى نومتهم السقف والخشب والبوص والسناج الاسود الذى يغطى الكل . الرجال يفكرون وهم نيام ، فى الذهاب فى صباح الغد ، الى من يكتب لهم شكاوى موجهة الى جهات متعددة ، وفى قيعان محافظهم الجلدية الحائلة اللون ، أوراق دمغة اشتروها فى ساعات رخاء نادرة ، وحفظوها من اجل هذه الشكاوى ، انهم يفكرون فيمن ستكتب لهم الشكاوى ، وستكتب ضد من : العمدة ، شيخ البلد ، شيخ الخفر ، معاون الجمعية التعاونية ، امين شونة بنك التسليف الزراعى فى كفر عوانه ، مقاول الترحيلة ، ناظر المدرسة ، معاون البوستة ، يحركون السنتهم فى أفواههم ، يدركون انهم قد اصيبوا بالخرس . فيقررون الذهاب صباحا الى فتحى سالم . وهناك ، يصفون له ، بكلمات منكسرة ، ما آلت اليه الحال ، ويجلسون على الارض . بجوار مكتبه . يطلبون منه أن يحشى الشكوى بكلمتين من عنده ، يفلون الحديد ، ينصت فتحى سالم الى كلامهم كله ، وهو صامت ، ثم يشمر اكمامه . ويحرك شفتيه وينظر ناحية السقف ويكتب .

فى المسجد . يصلى الشيخ محمود بالناس . ويخطب يوم الجمعة ، ويجلس فى مقام سيدى الغريب ، يفتح الكتاب ، يقرأ الغيب ، يكتب الوصفات البلدية للمرضى ، وصفات بسيطة ورخيصة ، وعندما ينزل بالناس الكرب والضيق ، فانهم يذهبون اليه .

– والنبى ياسيدنا .

ينذرون النذور ، ينفذون ما يطلبه منهم املا فى الشفاء . عباد الله ، يا ريحة الدنيا ، يا اهل هذا الزمان ، لقد رأيت ، ليلة الامس فى المنام ، رؤيا عجيبة يا تراب الارض ، وملح السماء ، تعالوا نمزق بالكلمات آلام هذه الايام ، استمعوا الى يا ابنائى ، فى ساعة العصارى ، يذهب اليه الرجال ، يحكون له احلامهم ، ما رأوه فى المنام بالليالى ، كى فسرها لهم .

– شوف ياسيدى ، اللحمه فى المنام خير .

فى السوالم . سكر . امراة مجروحة القلب والجسد . تملا الليالى بالدموع . تخطو ساعة الغروب فى الحوارى . فوق الجسد اللدن ملابس مبلولة بالحنين . تجففها نظرات الرجال . الف الف نظرة تنزلق فوق دسباب الظهر . وتستقر فى الردفين . انها راضية بما قسم لها . اللهفة والحزن والحنين والجنون والعزاء ، انه هنا . فى حوارى السوالم وبيوتها وحقولها وناسها . بحر كبير . بحر الخلاص . بحر يغسل آلام الليل والزمان وذكرى عطفة باب الوداع وعصمت والشاب المنتحر .

تمر بالسوالم أحيانا غجرية . امراة سمراء ، طويلة القد ، متينة البنيان . مصبوغة الشعر واليدين والقدمين بالحناء . مزدانة الوجه بالوشم الاخضر . الست محروسة . تقرا الودع للرجال . تجلس . يلتفون حولها فى نصف دائرة . وفى المنتصف . تفرش الرمل . وفوقه الزلط . يدفع لها الرجال قروشا ممسوحة لمعالم .

— وشوش الدكر .

يذكر الرجل اسم ابيه . يدوس على الحروف ببطء . يكمل الرجل بخجل ويخفى اسم امه . تتكلم الغجرية . تستخرج لهم من رحم الغيب أحلاما كثيرة .

— قدامك نتايه وبتشاغلك . وعايزاك .

— هيه فين بس ؟

تتحدث الغجرية . عن ايام عصيبة قادمة . وعن مخلص . نبى جديد . سيظهر فى البر . يجمع الشمل . وينشر العدل . تتحدث الست محروسة عن الوقاية من عين الحسود والستر . وسكة السلامة وسكة الندامة والسفر الى بلاد بعيدة . والعودة من هناك بكل ما يشتهى الانسان . وزيارة قريبة يقوم بها للبلد اناس طيبون . يغيرون حياة السوالم .

فى السوالم . رجال طيبون . يصلون ويصومون . ويزكون عن النفس والاولاد والارض والمال . يطيعون الله ورسوله وأولى الامر . ويحلمون بيوم يأتى فى مستقبل عمرهم . يستطيعون فيه الذهاب الى بلاد الحجاز ، وهناك يمسكون بحديد الشباك . ويهتفون من اعماق القلوب : اجرنا يارسول الله .

فى السوالم . اغنياء قليلون . وفقراء كثيرون : ظالمون ومظلومون . رجال يملكون مساحات من الارض . ورءوس من الماشية . وبيوت

نظيفة ورجال لا يملكون سوى اجسادهم وقلوبهم الفارغة . وهنا ايضا ، قصص حب ، حكايا يقولها . الرجال فى الحقول ، أحلام منحوتة من جدب ايامهم ، وسفرات نادرة الى البلاد القريبة وسهرات قليلة ، لحظات نادرة مختلسة من عمر الزمان .

نعتذر نحن الموقعين على هذا التقرير ، عما سنقوله الآن . لايوجد فى السوالم ، قبلى او بحرى أو اشليمه او دميسنا ، دكتور واحد ، او مستشفى ؛ او حتى ممرضة ، لا توجد مدرسة اعدادية ، ولا سلك كهرباء ، لايوجد تليفون ، سوى تليفون العمدة ؛ وهو تليفون اميرى ، لايوجد وابور حرث ولا سيارة ، لا تصل الى هنا جريدة صباحية ، تحمل اخبار العالم وما يحدث فيه .

مرة اخرى . نعتذر .

ارقام واحصائيات هامة : فى السوالم ، قبلى وبحرى . خمسة عشر الف نسمة ، ويتبع زمامها حوالى خمسة آلاف فدان . فى السوالم . مسجد واحد ، هو مسجد سيدى الغريب . وولى آخر من أولياء الله الصالحين . لم يبن له مسجد بعد . فى السوالم . «سواقى» كثيرة . بناها الناس بالمشاركة. هنا ، طنابير ، خلايا نحل ، ابراج حمام ، اشجار جازورين وصفصاف ونخيل ، للسوالم أربعة طرق توصلها بالعالم الخارجى . بها شارع رئيسى واحد ، دكاكين للترزية البلدى . بقالون . أهمها دكان المعلم يعقوب . تجار حبوب . جزماتية . حلاقون . سمكرية . جزارون . أما باقى ما يحتاجه البلد ، فيجده الناس فى يوم السوق من كل اسبوع .

بقايا كتابات اثرية ، وجدت على الواح قديمة . بجوار ساقية مهجورة :

« ان المبصر قد غشى بصره . والمستمع قد صم ، وذلك الذى يجب ان يكون مرشدا ، اصبح مضللا » .

« كنت اتكلم فى قاعة العدل ، بفم فصيح غير هياب » .

« وقد طفح كيل عذابى ، وفاض بحر آلامى . وهو ذا يتدفق من فمى ، أنينا وشكوى » .

اما الفلاح فحسابه مستمر « اى ان صاحب الارض يطالبه دائما بتأدية ما عليه من ديون » الى الابد ، وصوته اعلى من صوت

آبو « دائما يشكو » . وهو كذلك ، اكثر تعبا مما يمكن التحدث به ، وحالته كحالة الذى يعيش بين الاسود، وهو فى غالب الاوقات مريض. وعندما يعود الى بيته فى الغروب، فان المثنى يكون قد مزقه اربا « اى ان طول الطريق بجهده اجهادا كبيرا ، فوق ما يلاقى من التعب خلال اليوم » .

السفر فى الليل

السوالم بحيرة ..

الاثنين ٥ اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

كانت السيارة تسير بنا على الطريق الزراعى . مصر ـ اسكندرية الاشجار واعمدة التليفونات والبيوت والمزروعات تجرى فى سرعة الى الخلف . اسلاك التليفونات تبدو مشدودة . تسترخى وسط الاعمدة . تقف عليها الطيور التى لم تهاجر بعد . ناحية الجنوب . يدور خط الافق البعيد . بخضرته الباهتة . فى نصف دائرة . مركزها السيارة . تجرى النباتات المرتعشة الى الخلف . بجوار الطريق . رياح صغير . به مياه راكدة . تجمعت بها قاذورات الحياة اليومية . حطب . جثث . حيوانات طافية ميتة . نباتات مهوشه . نساء يغسلن ملابس اولادهن . بهائم مربوطة بجوارالرياح

عند التوفيقية ، توقفت السيارة ، انعطفت فى طريق جانبى منرب ، متجها ناحية الجنوب ، يرتفع الطريق مبتعدا حتى الافق البعيد ، يتحول فى نهاية الامر ، الى نقطة ترابية ، تتوه وسط الاشجار . على الطريق الزراعى . التراب والمطبات والفلاحين فى حقولهم . قلل السائق من سرعته ، غربى الطريق ، ترعة ساحل مرقص ، وعلى الشاطىء الآخر من الترعة ، كان ينعكس على مياه الترعة ، نساء يملأن الجرار ، ويغسلن الاطباق والاوانى. النساء فى لحظة مرور السيارة عليهن ، يخفين فافاتنهن البيضاء بملابسهن يدرن الوجوه الى الناحية الاخرى ، يتهامسن بكلمات لينة. رفعت عينى ، فى الحقول البعيدة ، الرصاصية اللون ، الخالية من الخضرة الزاهية . كان هناك فلاح ، مقوس الظهر ، يبدو للعين صغيرا ، يغمس يديه فى الطين ، بحثا عن شىء ما فى الارض تحت قدميه .

خلال سيرنا ، مررنا بكنيسة الضهرية ، ثم ظهر لنا مئذنة مسجد ، ومبنى حكومى ، وبرج حمام ، واسلاك تليفون ، وصهريج

مياه ، عرفت انها الضهرية . اكبر قرى الناحية . المبانى تقترب ببطء ، وبعد مرورنا بالضهرية ، البيوت المتناثرة ، والعزب الصغيرة ، تبدو متباعدة ، ضئيلة . وسط الحقول الواسعة . السوالم واشليمه ، تقتربان ، الطريق يقبل علينا . حيث تتهادى السيارة عليه. عند الجسر، نصبة جزار، ومصلى صغير، وشجرة صفصاف تحتها دكة وبجوارها مبنى . حيث ينتظر المسافرون السيارات .

الغروب ، نسمات الخريف ، تهب علينا مشبعة برائحة المساء والجفاف و لجدب . السيارة تجرى ، وعيناى تسرحان على الطريق. الطريق يتلوى امامنا ، ثم يستقيم . يقبل على السيارة فى سرعة هاجمة ، تعبره ، يرتمى الى الخلف . دائخا . مسترخيا . بنيدا . المشروع ، هو أول عمل اقوم به بعد التخرج . افكر فى كل شىء دفعة واحدة ، لا استطيع ان اثبت فى ذهنى شيئا محددا ، الامور متداخلة ومختلطة وقد فقدت أشكالها الحقيقية . لحظات قليلة من عمر الانسان . يشعر فيها ان حياته لا تخضع لأى منطق . بل قد يشعر بأن ما يعيشه ، شىء غريب ونادر ، ويبدو العمر كله حلما قديما ، يغشوه الضباب . الفساتين القصيرة مساحات اللحم الابيض ، السيقان والافخاذ ، البسمات التى تقطر صفاء ومودة ، الاحلام والرؤى المستقطرة من أعماق الحرمان اليومى ، استقبال الحياة فى قرية صغيرة ، نائية ، بعيدة ، منسية شمال اسوان ، البلاد الحارة نهارا ، الرطوبة الثلجية طوال الليل. الليالى الدافئة فى عمق الشتاء ، الحياة مع العقارب والثعابين فى حجرة واحدة ، الدماء الحارة النافرة فى العروق ، الجلد الاسمر المحروق من الشمس ، الجلد فوق العظم ، والعظام اشواك ، والاشواك طريق نقطعه كل يوم ، ذهابا وعودة الى بلادنا الحارة . السفر شمالا ، الهجرة مع مياه النيل ، الترجرج مع ارضنا النازلة نحو الشمال ، تلاوة صلاة الاستسقاء خلال السفرة الاولى وفى بلاد الشمال ، البرد والهواء الشتوى رموجات البحر العالية.

شوارع الاسكندرية الليلية المغسولة بالحنين ، البخار الخارج من الافواه مع الكلمات . كانت الوجة طولها ستة أمتار طوال ليلة امس . الحياة مع اسرة غريبة ، السكنى بمفردى فى الحجرات الصغيرة المؤجرة ، التكلم منفردا معظم الوقت ، اليقظة الحارقة فى ليالى الاسكندرية الباردة . وضعت قلبى ، الرؤى المرتجفة ،

الاحساسات الراعشة ، فى خطاب ازرق معطر ، ارسلته الى هناك ، الى قريتى . قلت فيه كلاما عن الحزن الليلى ، المستقبل ، الذاكرة ، الرغبات المعششة فى الاعماق ، الصمت والكلام ، الخوف والشجاعة ، عانقت فيه التوق والهمس واللهفة والحزن والجنون . قلت ان فى الاعماق رؤى مريضة ، احلاما مهوشة ، فكره لم تتحدد بعد عن القهر والموت . اخبرت ابى ، ان السعادة والايام الخضراء التى لم نعشها بعد ، هناك ، حيث كنوز الملك سليمان ، موضوعة فى صندوق ذهبى . والصندوق فى اعماق سابع بحر تحت الارض . قلت اننى بعد التخرج ساصنع سفينة من ورق الاحلام ، املأ شراعها بالوهم ، ابحر بها بعيدا ، وهناك سابحث عن كنوز الملك سليمان . لاسرة اصدائه . الضحك لم الضحك بلا سبب واضح فى الطرقات الخالية ليلا ، الحيطان الكالحة ، الاجساد المتكورة الصفراء ، حسابات الربح والخسارة البيع والشراء . الحوالة البريدية اول الشهر ، التردد على مكتب البريد اكثر من مرة للسؤال عنها . ادفعوا للسيد/مبلغ وقدره مليم . جنيه فقط . اقدم لك الباشمهندس عصمت فهمى النجعاوى ، اهلا يا افندم . تشرفنا ، انا سعيد بمعرفتك الليلة ، خلينا نشوفك بعد كده .

الشوارع المبطنة بالناس ليلا ، العيون المتطلعة من داخل السيارات المغلقة ، النوافذ والشرفات ، الشفاه المثقلة بالطلاء ، الرموش لسوداء الطويلة ، اهلا ساوى . تعرفى يامدموازيل . يتحول الليل الى اغنية عن الهوان والقهر . السهر حتى الصباح . الليل متاهة متجددة ، واول قطرة ضوء بحر الخلاص ، النوم والراحة والاستيقاظ فى الصباح والعظام مدشدشة ، والراس مثقل بالصداع . العيون المتعبة ، حولها هالات من السواد الازرق . قال ابى : ان نجاحك نجاح لنا كلنا . رايت الذين لايملكون ، والذين ينامون دون عشاء ، والذين لم يبق فى حياتهم سوى الاحلام وحديث النفس ولهفة ما بعد الاوان . فقلت لنفسى . ان بلدنا تاكل ابناءها ، اقسمت لنفسى ذات ليلة ، اننى لن اعود الى قريتى الصغيرة ، الا ومعى الشهادة ، وقررت لصديقى ، ان التعليم والاستذكار والنجاح ، هو عصمتنا الوحيدة تجاه الفقر الذى خلفناه وراءنا . قال ابى فى احدى رسائله الى : انه صبح مهددا ببيع قطعة ارض . قال اخى الاكبر الذى لم يكمل تعليمه ، بسبب ظروف خاصة

بالعائلة ، انه لم يتمكن احد من العائلة ، من ان يخوض معركة ما ، وانهم يعيشون فى دائرة الانحناء ، وان رءوسهم تقترب من الارض ، يوما بعد يوم ، وان اقدامهم قد التصقت بالارض ، اكثر من اى يوم مضى . قال اخى : ما من معركة ربحها احد ، بل ما من احد قدر له يا عصمت ان يخوض معركة ما . التنزه فى التذكارات المنسية ، محاولة الغزل من جذب الايام اشياء بسيطة وساذجة . التخرج ، الفرح بالنجاح ، الحصول على بكالوريوس الهندسة . مبروك . يصل ويسلم ليد السيد الوالد . البحث عن وظيفة ، القيام برحلة يومية ، بلا نقطة ابتداء وبلا هدف فى الوصول الى نقطة انتهاء ، السؤال والجواب ، قراءة جريدة الصباح فى ثلاث ساعات ، التعليم بالقلم الاحمر فى اكثر من مكان فى الجريدة ، كتابة خطابات رقيقة مهذبة ، ايماء الى الاعلان المنشور فى جريدة . العدد . الصادرة بتاريخ . فى الصفحة رقم . العمود ، قم . بشان طلب وظيفة . يسرنى ان اقدم لكم هذه البيانات ، الرحيل الى القاهرة ، جمع الحقائب والذكريات ، الاخفاقات الصغيرة ، الاحلام التى لن تتحقق ابدا ، الانتظار ، محاولة تمزيق لحظات الانتظار بالاحلام والكلمات والتسكع ، قراءة صفحة الوفيات ، متابعة ما يجرى فى البلد باهتمام بارد ، العثور على عمل مناسب فى احدى الشركات ، ارتداء ملابس نظيفة ومكواه ، السير فى الشارع فى السابعة والربع صباحا ، المقابلات ، الجلوس على مكتب ايديال فى الدور العاشر فى احدى عمارات القاهرة العالية « ولا ينقصنا الآن سوى مشاهدة رؤياكم الكريمة » ذات صباح ، اعطانى رئيس قسم المتابعة ، خطوات احد مشروعات الشركة فى محافظة البحيرة ، كان المشروع لم ينته بشكل نهائى . كان مؤشرا عليه « للدراسة والمتابعة واتخاذ المناسب من الاجراءات ، وعرض » . من خلال دراساتى للخرائط البترولية ، وتقرير لجنة المشروع السابق ، توصلت الى نتيجة مبدئية ، انه من المحتمل وجود بترول على بعد معين من مكان المشروع السابق . المشروع السابق كان فى منطقة حوش عيسى ، محافظة البحيرة . كانت اللجنة المشرفة على المشروع ، قد تركت خرائط لمصيدة بترولية احتمالية ، ومجموعة اخرى من الاستنتاجات . رحت ادرس المشروع بعناية ، كان الفراغ والملل قد املأ ذهنى ، رحت اقرا الوصف الخارجى للمنطقة . لم يكن هناك نضح زيتى ، او

مظهر غازى ، وهما اولى علامات وجود البترول ، وقلت لنفسى ، ان **الظروف التركيبية لطبيعة الارض** ، دليل اكثر على وجود بئر اقتصادية ، بحثت فى التقرير ، عن مسير تاريخى لتكوين طبقات المنطقة ، فتذكرت ان انسب اماكن لتكوين البترول ، هى الخلجان البحرية الضحلة حيث يكثر ترسب المواد العضوية تحت ظروف غير هوائية ، فلا تتاكسد فى مثل هذه الخلجان ، المحمية الفقيرة فى الاوكسجين ، ونتوقع بذلك : أن تتكون صخور المصيدة البترولية النموذجية ؛ ويتكون البترول على شكل مصايد ، انتهيت من دراساتى الى نتيجة هامة ، لو ثبت وجود منطقة مائية واسعة فى هذه الناحية فى قديم العصور ،، فاحتمال وجود البترول قائم خلال كافة دراساتى ، التى تمت بعد ذلك ، تاكدت من امر واحد بشكل مبدئى ؛ احتمال وجود بترول فى بلدة اسمها السوالم ، فى مكانين بالسوالم . اخذت خرائطى ، عرضت كافة الخطوات ، والنتائج على الشركة .

فرحت بعد هذه الاكتشافات المبدئية . وتحمست صراحة ، قررت ان ابدا بعد زيارتى الاولى للسوالم ، وانا فى المشروع ، تصورت شيئا ما ، احساسا بسيطا وساذجا الطريق الى القاهرة ، ولكنه جعلنى اهتم بالمشروع . تصورت ان الناس فى السوالم ودمسنا واشليمه والضهرية وششت الانعام ، موتى ، غير انهم يتحركون ، يروحون ويجيئون ، يضحكون ويبكون ؛ انهم راضخون مستسلمون للسماء العالية ، والارض السمراء والترعة والطريق الزراعى ، وما يقوله الراديو وما يفعله الخفر وشيخ الخفر ، وصوت السيارة التى تعبر بلدهم بسرعة ؛ والطائرة التى تشق الفضاء متجهة ناحية الجنوب وقت اذان الفجر ؛ لما يشيعه الناس القادمون من البنادر البعيدة من اشاعات عما آلت اليه الحال . قلت لنفسى : هؤلاء الناس فى انتظار حدوث معجزة ما ؛ تهبط من السماء ، او تخرج من جوف الارض ، او تاتى من البنادر البعيدة النائية ، الناس تعيش ؛ تمر بها الايام والليالى والشهور والسنوات الطوال ، فى انتظار حدوث هذه المعجزة .

تمثلت فى خاطرى ما يقولونه عن سيدى الغريب ، وكتابه الذى ضاع ، كما يضيع عمر الرجال هنا ، فى انتظارهم لظهور نبى مخلص جديد ؛ يظهر فى البلاد .

فى الصباح ، فى السادسة والنصف صباحا ، صحوت من نومى ؛

خرجت من اعماق سريرى ، ذهبت الى دورة المياه ؛ وقفت فى الحمام ، المياه تنزلق على جسدى فى كسل . خرجت . ارتديت ملابسى ، وقفت امام المرآة . لم اتناول افطارى . كان فى اعماقى نوع من الغناء الذى لم اجربه من قبل، اعددت حقيبتى ، وضعت فيها غيارات داخلية ، كتبا ، مراجع علمية ، دواوين شعر بين اسطرها فضضت بكارة الاحلام الاولى ، ورقا أبيض ، خرائط بترولية ، ادوات هندسية ، رسومات ، مذكرات قديمة ، تاكدت اننى اغلقت النوافذ والابواب ، وصنبور المياه ، ونزلت .

فى الشارع العريض ، بين ضجيج السيارات ، رحت اتغنى بمقطع من اغنية حب قديمة ، وقلت لنفسى : اننى فى مكان ما . ربما لا وجود له على خريطة مصر . سابدأ تجربتى الاولى ؛ مع اناس لا اعرفهم . فى مكتب المدير سلمت عليه ؛ شربت الشاى الدافىء ، متعت نفسى بمرئيات بالغة الفخامة ؛ وعزيت نفسى عما ينتظرنى فى السوالم . قال لى : انه يقدر فى ؛ اننى اتجهت الى الريف ، وانه يتمنى لى التوفيق فى مستقبلى . اكد انه سيساعدنى كابن له ، او كأخ صغير . قال الرجل ؛ وهو يلقى نظرة على اسطح البيوت المتناثرة ، واجزاء الشوارع التى تبدو منها . انه لو عاد الى شبابه ، مع استحالة حدوث هذا ؛ وبدأ من جديد ؛ لما فعل غير ما فعلت ، همس ان الشيخوخة هى اسوأ ما فى حياة الانسان ، بل اسوأ من الموت نفسه ؛ وانه لا يخفى على حسده لى . قال الرجل بتاثر بالغ : ان ما ساقوم به ، تجربة عظيمة فى حد ذاتها ، واننى بعد عودتى بالفشل او بالنجاح ؛ سواء قدر لى أن اصنع شيئا بهذه البلدة ، او ان اكسر أمام الواقع ؛ فان التجربة رائعة وجميلة ، بل وهامة .

ــ شوف يا عصمت ؛ اللى يعيش ياما يشوف ..

ــ واللى يلف يشوف اكتر ..

قالوا لى قديما : من يسافر يعش الف حياة مرة واحدة ؛ وكانت ايامها هجرتى الاولى . ونحن فى الطريق ؛ تحت اقدام القاهرة ، وكان الوقت ظهرا ؛ استدرت ؛ نظرت الى المنازل العالية ؛ المصانع ؛ المآذن ؛ قباب الكنائس ؛ القاهرة تدور حول نفسها فى حركة بطيئة ، استقرت الاشياء فى نفسى . بدا لى اننى أودع عهدا كاملا من حياتى ؛ لا أدرى لم تذكرت أهلى؛ قريتنا الصغيرة فى اقصى الجنوب ، تذكرت ابى ؛ رحت استحضر صورته

بعين خيالى ، امى . اخوتى . اخى الاكبر الذى لم يكمل تعليمه ويتفلسف كثيرا ، قطع الارض التى بيعت فى السنة الهائلة ، انتزعت من قوت وسمعة العائلة . تحولت الارض ، التراب الاسمر الداكن ، الى حوالات بريدية . اسوان . صادر فى ، مسجل تحت رقم .. حوالة بريدية رقم .. اذا لم يصل فى ظرف ثلاثة ايام يرد الى الثانى .. على العنوان الاتى .. ادركت اننى لم ار والدى ، منذ ثلاث سنوات . عشت مرة اخرى ، لذة السفر بالقطار ليلا ، النوم على المقاعد الخشبية ، فرحة لقاء الاهل والاحباب ، الحزن المعلق فى اماقى العيون عند الفراق . السيارة تمر بى على الضهرية الآن « هنا الضهرية وحصتها » . اقتربت من السوالم . ومن هناك ، سارسل تقريرا الى الشركة ، بكل ما قمت به ، وبعد ذلك ، ساكتب خطابا الى الاهل .

ليلتى الاولى ، غيرت ملابسى . تخففت من جلدى الخارجى ، احسست بحريتى فى ملابس النوم ، تمددت على الفراش الخشن ، ارتطمت نظراتى بسقف الخيمة ، رحت احصى الثقوب الموجودة به ، حاولت ان ارى نجوم الليل من خلالها . لفت نظرى الصمت ان الصمت لا يتحدد هنا بانعدام الاصوات ، والسكون الشامل ، انه احساس قريب من الصلاة ، النجوى الخافتة ، حديث النفس . هبت نسمة هواء . دخلت الخيمة . كان الهواء مشبعا برطوبة الليل . وكان الليل فى الخارج ، جسما بلا صوت ، فتذكرت ان الليل ، فى الزمان القديم . كان وقت اتخاذ القرارات التى لا تنفذ بعد ذلك ابدا . قررت ان ابدا بتدوين مذكراتى ، كما كنت افعل من قبل وان ابدا خطوات مشروعى من صباح الغد .

يقف الرجال على الجسر ، من تحتهم يصعد بخار ابيض اللون من الترعة . بداية الليل . من السوالم واشليمه تنبعث انوارخافتة اذن المغرب ، وترك الجسر من يواظب على الصلاة فى ميعادها ، الفرض بفرضه ، بقى بعض الرجال يتحدثون ، الجسر من الاماكن المحببة الى الرجال ، الشبان منهم على وجه الخصوص . وعلى الجسر ، قد يتقابل شبان السوالم ، مع شبان من اشليمه وقت العصارى . اما الرجال الكبار ، فانهم يفضلون الجلوس امام دكان المعلم يعقوب . يشربون الشاى ، ويتكلمون عن الحياة والموت ، المرض والشفاء الذى يتحول فى حديثهم الى امل مستحيل التحقيق . شخص واحد . كان يجلس هذا المساء على الجسر ، غير انه لم يتكلم ، انه وردانى . كان يجلس على سور الجسر وخلفه ، كانت مياه الترعة تلمع فى الظلام . ان وردانى بعد ان اكتشف اكتشافه الخاص به . لن يتراجع عنه ، خانه اهل السوالم ، تخلوا عنه ، تركوه ينكسر بمفرده ، ويسلم ارضه ويعيش من الغد كما النساء . فتحى سالم يقف وسط الرجال . يسأل عن المهندس ويقول للرجال بعبارات ممطوطة . انه سيكتب ما حدث فى البلد ، فى تقريره الاسبوعى الذى يرفعه كل اسبوع للجنة المركز ، السكوت على ما يحدث جريمة ، السوالم بلدهم جميعا ، وكل منهم مسئول بشكل أو بآخر عما يحدث . قال انه سيثير هذا الموضوع فى اجتماع الاتحاد القادم مع الامين العام ، غير انه عاود السؤال عن المهندس ، تساءل بمرارة : كيف يقول العمدة . ان المهندس هو الحكومة ذاتها . فتحى سالم يقرر فى نهاية حديثه الغامض ، وهو يلوح بالجريدة فى تسليم مر ، بأن فى هذا الموضوع سرا ما ، غير انه لابد وأن يعرف هذا السر .

— ناعم ولا سر ولا حاجه .

يتضاءل فتحى سالم امام الرجال . وكل ما يعرفه . وتضحى الجريدة ورقة لا قيمة لها . تذوب المسافة التى تفصل فتحى سالم عن الناس . يقرره بينه وبين نفسه ، انه فى الصباح الباكر .

سيذهب الى المهندس ، يتعرف عليه ، يبحث معه الموضوع ، ومن يدرينى ، فقد يكون فى الموضوع مصلحة ما للبلد . منذ اكثر من سنه ، قلت للرجال ، على هذا الجسر ، وفى مثل هذا الوقت ، ساضع حياتى فى خدمتكم يا اهل البلد ، وكنت صادقا فيما قلته ولكن أين انا ، المستقبل العريض ، الرد على الشامتين، عضوية مجلس الامة ، المرتب ، المنزل ، الارض ، الزوجة ، الوظيفة التى اصبحت الآن حلما صدئا . فتحى سالم ، يهوم بعيدا عن الرجال، يسافر على اجنحة الخيال والآمال الكاذبة .

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

كان الظلام قد حل ، انه المساء ، الرجال يحاولون ان يعرفوا القادم ، كان الصوت غريبا عليهم ، أدركوا هذا منذ البداية . الجسر ، ليس بناء من الاسمنت والحديد والطوب ، انه جزء منهم ، من حبات القلوب وماء العيون ، ومن يدوس على هذه السكة الحبيبة الى الرجال ، فهو معروف لهم ، انهم يشمون رائحة الغربة فى الصوت القادم .

ـ اتفضل .

يقف الرجال ، ينفضون ملابسهم ، يركبون مداساتهم ، يعتدل الذين كانوا يستندون الى السور ، يقتربون ، زجاج نظارة يلمع فى الظلام ، أفندى طويل ، معه رجل يلبس نفس ملابسهم ، المهندس ، ومعه حب الدين سرحان . يمد لهم يده ، تستريح الاكف فى بعضها ، يتناولون كلمات موشاة بحب الاستطلاع .

ـ فتحى افندى سالم .

ـ المهندس عصمت فهمى النجعاوى .

يمد فتحى سالم يده بتردد ظاهر ، يشعر ان يده مجذوذة الاصابع . تلتقى اليدان ، وبين الكفين والاصابع ، كانت تكمن آثار القهر .

ـ تشرفنا يا افندم .

يجلس عصمت على السور ، يجمع شمل الرجال حوله ، يأتى اليهم رجال آخرون ، كانوا متناثرين فى اماكن أخرى على الجسر، يكونون حلقة صغيرة حول المهندس ، يمسك فتحى سالم بعزبدته بعصبية . اخيرا يأتى الامتحان قبل موعده . فى صمت اللقاء الاول بين الرجال والمهندس ، انتزع وردانى نفسه ، وقف ، نفض

جلبابه بعناية من تراب الجسر ، شمل الجالسين بنظرة ميتة ، كان يود ان يقرا نظرات الذين خانوه . غير ان اعينهم كانت معلقة بالمهندس .

ـ ازيكو يارجالة .

ـ أهلا يا باشمهندس .

ـ والله وحشتونى ، بعوده الايام .

قال حب الدين :

ـ دا كان عيش وملح يا باشمهندس .

يبتعد وردانى عنهم ، يقول لهم ، وهو يسير مبتعدا عنهم :

ـ طيب .. السلامو عليكو انا بقى .

يرد عليه اكثر من رجل ، فيضيق صدره ، يكثر عدد الرجال حول المهندس ، يجلسون ، يجلس حب الدين بجوار المهندس ، يحميه بنظراته ، انه يلبد له تحت باطه ، كما يقول اهالى البلد. لكنه الصمت ثقيل على الجميع ، والليل الريفى حولهم ، مكعبات الظلام الثقيلة ، وللظلام ، الف الف عين ترى ، الف الف اذن تسمع ، والبترول ، مرفأ الامان ، قطرة الماء فى صحراء الظمأ . فى الايادى سجائر لف رفيعة ، تشتعل وتنطفىء ، يرميها الرجال على الجسر . وفى القاع تحتهم ، كان يتساوى كل شىء ، الصمت والظلام ، الحب والكراهية ، الفرح والاسى ، المهندس وفتحى سالم .

ـ اسمعوا يا جماعة ..

تخرج الكلمات من فم المهندس ، موشاة بالغامض والمجهول ، تسرع الكلمات ، تنزلق على اللسان ساخنة ، فيكثر البخار الخارج من فمه ، يستعمل يده ، يتوقف احيانا ، تكون هناك صعوبة فى التعبير عما يريد قوله ، يخبط على سور الجسر بكلوة يده ، يجهد نفسه فى البحث عن التعابير ، لابد وان تكون كلماته واضحة لهم . انه يريد ان يوصل اليهم الاحساس الراعش بداخله ، ان يهزهم ، ان يدرك الرجال على الجسر باختصار ، معنى ما يحدث الآن فى بلدهم ، يعرفونه بشكل واضح دونما اشاعات .

ـ شوفوا يا رجالة .

يقترب منه الرجال ، يضع بعضهم يده بجوار اذنه اليمنى ، تصل اليهم الكلمات ، تسقط العبارات فوق حبات القلوب .

— باختصار . حا يحصل تحول كبير فى حياتكم .

الرجال يتذكرون الآن ان حياتهم عجفاء . يتذوقون من جديد معنى الفقر . يتذكر الرجال ، ان هناك احلاما كثيرة ، فى حياتهم . تخلوا عنها . بعد ان ادركوا استحالة تحقيقها . وقال كل منهم لنفسه : انه لم يعش حياته كما كان يريد ، وانه مظلوم : وانه لو مات الليلة أو الغد ، لمات مظلوما ، والظلم مر المذاق . ان المواجع والجراح القـديمة . التى ما زالت طرية . نبشت الآن بحديث المهندس ، واستيقظت الآلام فى نفوسهم . وفى قيعان عقولهم ، استقرت معانى كلمات المهندس ، مجردة ، غريبة عنهم ، معزولة عن باقى مكونات حياتهم . انها تصل اليهم ككلمات الراديو ، والفاظ الافندية ، وتطفو على السطح ، تعوم ، تصطدم بالاحزان الدائمة ، وتترقرق فى نفوسهم رؤى مستقطرة من الليل، والترعة والحقول الفسيحة .

— كل اللى باطلبه منكم ..

يقول المهندس :

— انكم تحطوا ايديكم فى ايديه ، واحنا حانغير كل حاجة فى البلد .

طرقعات شباشب النساء على بلاط الجسر ، غبار فضى يلف البلد والحقول ، خرير المياه يترقرق تحت الجسر هادئا ، يستقر الظلام الليلى فى قيعان الحارات والبيوت والحقول والترعة وقلوب الرجال . وفى الصدور ، الهمسات المرتجفة ، الكلمات المعلقة على الشفاة ، البسمات المترددة الخجول . الرجال ، يمرغون عقولهم البسيطة على أرض الجسر، يرتعشون ، يهيمون مع كلمات المهندس، فى العالم الكثير الذى لم يعرفونه بعد ، وسيقوم الرجال برحلتهم الاخيرة ، دون ان يعلموا الكثير ، ويدور شىء ما فى عقولهم ، يتكور ، تتحدد ملامحه ، ويرتفع من داخل النفوس صدأ ، غبار شفيف ، دخان أزرق ، رائحة احتـراق . وتجوس فى قلوب الرجال ، يد المهندس ولسـانه ، تدهمها ، تفتتها ، وتسح فى الاعماق من الرجال ، نقاط دم حمراء قانية .

— انا اثق فيكم الى ابعد الحدود ، ارجوكم ان تبادلونى نفس الشعور .

الرجال يعيشون ، عواطف النـاس وهى تتحول الى الشكل الآخر ، حيث يذوب الاسى مع مرور الايام ، وتبهت حلاوة الافراح

وشكلها ، ويتبخر الغضب فى الصدور . الرجال يشعرون ان هذا المهندس الشاب ، شىء جديد بالنسبة لبلدهم . الرجال يستمعون الى كلام المهندس ، والظلام قد حل ، وهم يواجهون أنفسهم للمرة الاولى عارية من الفة الحياة اليومية . الارض ، العمدة ، بنك التسليف الزراعى ، الخفير ، المدرسة ، الشيخ محمود والجامع ، الحقول البعيدة ، المواشى ، اجهزة الراديو ، العالم الكبير . انهم يحاولون ان يفهموا ما يقوله المهندس ، والمهندس يقول لهم كلمات تسقط على جدار الاذن الخارجى ، حلوة شهية ، المجتمع الصناعى ، المرتب اول كل شهر ، المسكن النظيف ، التأمين الصحى ، الشوارع الواسعة ، المساكن الشعبية ، دور السينما ، الملاهى . كلمات المهندس اجنحة يطيرون بها فى الليل الهادىء فوق البلد . يتذكر الرجال ، دونما سبب واضح ، اقرباءهم ، ابناء السوالم الذين ضاقت بهم الحياة فهاجروا ، حملوا متاعهم وسافروا . ويوم السفر ، ارتفعت الايادى تقول وداعا ، وعادوا بعد سنين ، يحشرون اجسادهم التى امتلأت فجأة ، فى حال نظيفة ، ويلفون حول سواعدهم الخشنة ساعات تضىء فى الليل، لقد حلق بعضهم شاربه ، ووضع البعض الآخر نظارة فوق عينيه ، مثل نظارة المهندس . وقال البعض ، بعد ان حلف بتربة من مات ومقام سيدنا الغريب ، ان ثمن النظارة خمسة عشر جنيها بالتمام والكمال .

حلم الرجال بحياة البنادر ، وانتشر فى صدورهم تصور لها . الشوارع المضاءة ، المقاهى المزدحمة بالرجال ، السيارات ، النساء الرائعة ، المحال المزدحمة ، العمارات العالية ، الاشجار المطلية بالوان زاهية ، النقود الكثيرة فى الايادى . يقول لهم المهندس كلاما عن العدل والانصاف ، والحاكم والمحكوم ، يقول لهم ، ان ما يطلبونه ممكن التحقيق ، وانه مطمئن الى مشروعه ، وان الايام القريبة القادمة ، التى تقع خلف الافق ، تحمل لهم الخير ، وان عليهم جميعا أن يستعدوا من الآن للحياة المقبلة ، وان يودعوا الحياة التى يعيشونها الآن .

بعد فترة صمت ، راح المهندس ، يصف شكل حياتهم ، بعد سنتين من هذه اللحظة ، ويعدد أسماء الوظائف ، ويقترح اسما جديدا لبلدهم ، ويحاول أن يحدد مكان المصنع والمساكن ومكان دار السينما والمسرح ونقابة العمال والميدان العام والحديقة

الواسعة . المهندس يتكلم . وهو مشتعل بحرارة داخلية . انه يرتفع ، ويرتفع . يحاول ان يطل من جلسته ، رغم الظلام . على الايام القادمة .

ــ اللى حا يحصل هنا يا رجالة ، حايكون معجزة . فاهمين . انا باكرر كلامى للمرة العاشرة ، معجزة ، واصر . على ان اللى حا يحصل معجزة نادرة .

ينظر الرجال ناحية فتحى سالم . وبعضهم قد استراح فى جلسته ، ووضع يده على خده . ان نسمة هواء ليلية تهب على الرجال ، فتغسل الهواء من كل الاكاذيب ، وتستريح الكلمات فى النفوس ، تستقر فى الاعماق ، آخذة اشكالا مبهمة داخل الرجال .

ــ شوف يا باشمهندس ، كلامك دا احنا عارفينه كله ..

تخرج الكلمات من فم فتحى سالم . كلمات تعمد هو أن تكون غريبة ونادرة الاستعمال . قال كلاما كثيرا ، لم يدر السبب فى قوله ، كان يشعر ان فكيه يتحركان ، يتقابلان ، يبتعدان فى بطء وبحركة آلية . يطحنان الكلمات طحنا قبل أن تخرج من فمه . يقول فتحى سالم ، انه لا يتحدث عن نفسه . ولكنه يتحدث بلسان الرجال البسطاء أهل بلده ، وان تلك هى مسئوليته الخاصة ، وانه لن يتنازل عن هذه المسئولية . ويقول عن نفسه كلاما فى شكل الليل .

ــ دى بلدنا احنا ، ولازم نقول راينا فى كل حاجة هنا .

فتحى سالم يكمل حديثه ، والمهندس يوافقه على ما يقوله ، ان ما يفعله انما هو لمصلحة البلد ، وهو مستعد فى نهاية الامر للحساب . وانه يطلب من الناس النصيحة والمشاركة ، فهو فى عمر ابنائهم .

يقف المهندس ، فيقف الرجال من حوله ، يصافحهم ، يطلب منهم الدعاء له بالتوفيق ، بعد كل صلاة .

ــ عن اذنكو يا جماعة ..

يذوب المهندس ومعه حب الدين فى الظلام . الرجال يفيقون من سكر الكلمات ، لقد أصبحوا جزءا من الليل ، يبدون ثملين مثله ، وملامح وجوههم تسيل ليونة .

بعد ذهاب المهندس ، تكلم فتحى سالم كثيرا ، استمع اليه الرجال ، غير ان قلوبهم كانت مع المهندس . واسترخت الكلمات ،

واستطالت مساحات الصمت فى كلام الرجال ، وكان لهواء الليلى يحمل للرجال موالا حزينا . فى الموال ، حديث عن البسالة وعتاب على الايام والليالى . يقوم الرجال ، فيكتشفون ان ملابسهم مبتلة بطل الليل .

ــ تصبحوا على خير ..

يتواعد الرجال على لقاء جديد على الجسر او فى عشة سلسبيله

ــ وانتم من اهل الخير ..

يسير الرجال فى الحوارى ، يدركون ، خلال السير ، ان الجنون معناه الوحيد ، ان يديروا ظهورهم لهذه المعجزة . لم يكن هناك ما يستحق الابقاء عليه فى بلدهم . لقد تحولت شفقتهم على وردانى وارضه ، الى نوع من الحسد له ، لقد تمنى كل منهم ان يكون هذا النصف فدان من نصيبه هو . فتحى سالم يسير بمفرده متجها الى داره ، شابكا يديه خلف ظهره ، واضعا الجريدة بين اصابع يديه ، مفكرا فى كل ما يحدث . انه يقرر ، ان هناك امرا ما لابد من ادراكه ، لابد من فهمه والامساك به ، يرفض أن يعترف بهزيمته ، انه يعيش من جديد ، ايامه فى مدرسة انصارى سمك الاعدادية بالضهرية ، ويقول لنفسه ، انه يكره هذا المهندس ، وتتناثر الاحلام ، تتعرى ، وتبدو له الحياة بشكل كالح الوجه . اخترق الحوارى ، صعد معها ، ثم بدا فى النزول مرة اخرى . اسلمته الحارة الى الشارع الرئيسى للبلد . وفى الشارع الرئيسى بدا سيره متجها الى الناحية القبلية . فى حجرته الصغيرة ، خلع جلبابه ، علقه على مسمار فى حائط حجرة نومه ، ارتدى جلبابا قديما ، نام على جنبه الايمن ، فرد قدميه على آخرهما . تذكر كل ما تحمله له جريدة الصباح ، وكل ما سيحدث فى البلد ، فادرك انه ضئيل . اغمض عينيه ، شبك يديه ، وضعهما فوق صدره . صفت الامور فى ذهنه ، تناهى اليه ، صوت حركة متأنيه يأتى من الشجرة العجوز ، الواقفة امام باب منزلهم ، حركة تدل على الارتياح ، وتتناسب مع عمر الشجرة العجوز . فتحى سالم يشعر ان هناك نسمة هواء خفيفة ، تهب من ناحية الجنوب .

ووسط هذا الصفاء الليلى ، كان فتحى سالم يدرك ، ان ايامه مليئة بالجراح .

في نهاية الامر .
جميع المخاوف تتحقق على غير ما يجب ،
ورداني يشعر ان الحكاية قد ســـــارت ، ولا بد من تسـليم
المهنـدس هو الحكومة . هكذا فهم ورداني ، فخير له ان يستلمه
الارض ، انصف فدان بكامله في الصباح
بنفسه ، بدلا من ان يؤخذ غصبا عنه .
ـ انا كان قلبي حاسس من الاول .
يتذكر ورداني ، انه عند حضور المهندس للسوالم ، اول مرة ،
رنت عيناه ، وانه من يومها ، وهو غير مستريح للموضوع كله .
ورداني ، رغم ما حدث ، لم يقر بهزيمته ، لا يتصور انه سيترك
ارضه للغرباء تواجه الرجال ، يفعلون بها ما يشاءون .
في دوار العمدة جلس على المصطبة ينتظر حضـوره . وعنـدما
دخل عليه العمدة ، وقف ، سلم عليه ، ساله عن الحال ، طلب له
طول العمر والصحة والعافية ، قال له : انت والد الجميع ، والدنا
كلنا ، وليس لنا احد غيرك . ومن لنا نذهب اليه ، اذا حدث لأى
منا حادث . وقف العمدة ، طلب منه بحروف متآكلة ، ان يخلى
ارضه ويسلمها للمهندس . قال له العمدة ، انه ليس في مقدوره
ان يفعل له اى شيء ، وان الامور اكبر مما يتصور اهالى البلد .
ـ حتى انت يابا الحاج ..
قال ورداني : مستحيل ، الارض ليست مؤجرة وهو يضع يده
عليها . نزع الملكية ممنوع . العمدة لم يتركه يكمل حديثه ، افهمه
ان الحكومة تريد هـذا ، لايوجد في السـوالم او ، المركز ، من
يستطيع الوقوف في وجه المهندس ، خير لورداني ان يسلمهـا
برضاه . والمصيبة قد حلت بالبلد كلها ، وليست بورداني بمفرده .
ـ بس ياحضرة العمدة ..
ـ ولا بس ولا حاجة ..
لم يكمل ، قال له العمدة : ارادة ربنا ، قضاء اخف من قضاء ،
وانه يقدر ظروفه ، وسيحاول ان يستأجر له ارضا بدلا منها .
قال له : الله الذى خلقه ، وخلق اولاده ، وفتح لهم في منتصف

وجوههم افواها واسعة ، تأكل الزلط ، لا يمكن ان ينسى هـذه
الافواه ، مهما قل الخير . العمدة يطلب من ورداني ، ومن اهالى
البلد ، ومن امام المسجد ، ان يدعوا الله في كل وقت من الاوقات
ان تنتهي هذه المصيبة على خير .
ـ خلاص يا ورداني ، بكره الصبح تسلم .
ـ حاضر ياحضرة العمدة ، امرك ..
ـ لنا رب اسمه الـكريم ..
يذكر ورداني ، انه عندما قال له حب الدين ، منذ يومين ، ان
ارضه قد تؤجر منه للشركة ، انه سعل ، شـق صـدره سعال
جاف ، واسرع ، احضر ورقة بيضاء وبصق عليها ، كان البصـاق
ابيض اللون فاطمانت نفسه . انه الآن ، وهو يقف امام العمدة ،
يشعر برغبة في السعال ، صدره يهبط ، والقفص الخارجي له
يكاد ينكسر ، وضلوعه يشقها الم حاد ، الرغبة في السعال تعاوده ،
كتمها في نفسه ، رفع يده ، وضعها على فمه ، وراح يستمع الى
حديث العمدة عن التسليم والاذعان والاعتماد على الله .

ورداني يخرج من دوار العمدة ، يقف امام الدوار . الوقت هو
المساء ، وامام عينيه ، يتسلم الخفر البنادق الميزر الصدئة . هدوء
ساعة الغسق المبتل بالنعاس يلف البلد بداخله . سار في حوارى
البلد ، كان يفكر ، ان كان في باطن ارضه بئر بترول فعلا ، فهى
ارض خائنة . انها ارضه ، يزرعها منذ سنوات لايعرف عددها ،
ويدرك انه لا يوجد شيء ما في باطنها . في باطن الارض طين اسمر
وخصوبة ، وجذور نباتات عالية ، وسر لاسرار الذى لن تبوح به
لاحد في يوم من الايام .
ورداني يسير ، يحمـل عناد الريف وقلقه وصبره في اعماقه ،
وهو يضع كرامته فوق جبهته مثل طاقيته التى يلبسها . ورداني
يشعر ، لاول مرة في حياته ، انه بمفرده . وان السوالم كلها قد
تخلت عنه ، ورغم التصميم والعناد ، فهو يشعر بشعور غامض
يضطرب في نفسـه ، انه ذلك الشـعور الذى يضطرب في نفوس
المؤمنين بالقضاء ، والقدر المـكتوب ، القدر الذى لا حيلة لاحد
في رده ، والذى لا نستطيع منه فكاكا .

عليه بمفرده ، ان يفكر ، ان يحال الامور الهشة في ذهنه ، ما
يحدث له ، لم يسبق ان حدث من قبل ، عقله يدور ، في اشياء
قد تكون بعيدة عن الموضوع الرئيسى ، يتمهل في سـيره . يلف

بديه خلف ظهره ، يمسك بهما ذيل جلبابه ، يحنى راسه ، يتفرس فى الارض من تحته ، لا يلقى السلام على الرجال ، يتفادى فى سيره روث البهائم ، ونقر المياه وكميات التراب التى تملأ الحارات. يصل منزله ، يقف على الباب ، تطالعه حدوة حمار قديمة ، بصلة جافة ، قطعة من شجرة صبار يابسة ، لا يذكر متى علقها . يدخل منزله .

ـ فيه ايه يا وردانى ؟ ..

لايرد ، يدخل على أولاده ، يجلس بينهم ، تضع زوجته الطبلية امامه ، يجلس حوله اولاده الاربعة ، تحضر زوجته الطعام ، طعام كل ليلة . وفى بعض الليالى ، وما اقلها ، يكون هنا فى البيت طبيخ ، شىء ما ارسله هو من الحقل . ملوخية او بامية ، وفى ايام نادره ، قد يكون هنا دجاج ، او لحم اشتراه من الجزار ، وقد يحدث احيانا ، ان يعود من الحقل ، فيجد زوجته قد ذبحت دجاجة او ارانب ، وفى هذه المناسبات ، فان وردانى يدرك سبب الوليمة ، ان شوطة مرض ، فتك بالدجاج فقامت زوجته بسرعة وارسلت فى طلب الشيخ محمود ، او المعلم سيد الجزار ، كى يذبح لها ما امكن انقاذه من الموت .

وردانى يجلس على الطبلية ، يمضغ خبز ايامه الجافة . وفى كل مساء ، توضع الارغفة امامه على الطبلية ، ارغفة سمراء صغيرة ، محروقة من المنتصف ، وخلال الاكل ، تختفى الارغفة بسرعة ، لدرجة ان وردانى اعتقد ، ان هناك ايادى غير ايادى أولاده تأكل معه ، وعندما سأل الشيخ محمود عن السر ، حوقل وبسمل ، وقرا آيات من كتاب الله الكريم .

ـ ابوه ياسيدى ، هيه المسألة دى فيها قولان ؟ ..

قال له : انه جائز ان تكون هناك ارواح هائمة على وجهها ، مسافرة فى الزمان أبدا ، باذن منه سبحانه وتعالى ، انهم ابناء الرياح ، زادها هو طعام الناس اينما وجدوه ، انها ترانا ، ولكننا لحكمة من الله لا نراها ، بل لقد أوصاه الشيخ محمود ، هامسا ، انه لو وقعت منه ، خلال الاكل ، على الارض ، لقمه وغموس ، فلا بد ان يتركه كما هو لاخواننا فى الله ، سكان الارض .

وردانى لايكلم أولاده ، ويقسم لزوجته ، بالطلاق ثلاثه ، شافعى ومالكى وأبى حنيفة ، انه يجرى عليها وعلى نفسه وعلى أولاده الاربعة ، واناس آخرين لايعرفهم احد ما ، وربنا يقدره على هذا

الحمل الثقيل . من بعدها ، حرص وردانى كل ليلة ، خاصة فى الليالى الكريمة ، أن يترك على الطبلية مكانا خاليا لهم ، ابناء واولاد الارض ، كى يجلسوا فيه ، يأكلون معه ، ويباركون الحقل والمنزل والمواشى ومستقبل الاولاد الصغار . وردانى يحتوى زوجته واولاده بنظرة حانية ، مسترخية ، ويواصل ببطء ، ودونما رغبة مضغ طعامه .

ـ ويمكن يكونوا زعلوا من حاجة ..

قالها وردانى لنفسه ، ثم قال على الفور :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

كان الشيخ محمود قد افهمه ، ان يرد السلام كاملا ، كلما تذكرهم ، انهم اخواننا فى محبة الله ، ومعنى أن يردوا على الخاطر ، انهم يمرون علينا فى نفس اللحظة ، وانهم القوا تحية الاسلام ، ولا بد من الرد عليهم . عند هذا الحد ، استراح وردانى ، وقرر ان يسأل الشيخ محمود ما يراه ، بعد صلاة العشاء فى مسجد سيدى الغريب .

قال وردانى .

ـ مطلوب منى أسلم الارض ، ما اقدرش على الحكومة من ناحية ، وما اقدرش اعيش من غير الارض من ناحية ثانية ، البلد خانتنى ، الحكاية بقت مرة خالص يامولانا . فى الدار خمسة عايزين يأكلوا ويلبسوا . وبكره الصبح لازم ..

طرح المسألة على الشيخ محمود ، طلب منه ان يدله بما يراه صالحا . صمت الشيخ محمود ، وراح وردانى ينظر الى شفتيه المزمومتين ، ووجهه الذى لا ينطلق باى شىء ، بعيون مشربة بالاسى والخوف المبهم من المجهول .

ـ ويخلق ما لا تعلمون .

ردد الشيخ محمود ، آيات من القرآن ، نطقها ببطء ، ويده تدور مع حبات المسبحة ، غير انه لم يقل اى شىء عن المهندس والارض . فجاة ، قام الشيخ محمود ، ترك وردانى فى صحن الجامع ، دخل مقام سيدى الغريب ، وغاب فيه . وقف وردانى محتارا فى صحن الجامع ، ثم ركب مداسه وخرج . فى الطريق ، فتح له الظلام صدره الرحيب ، فغاب فيه .

وردانى ممدد على ظهره ، ينظر الى سقف الحجرة الواطىء ، يفكر فى حقله ، الحديد المغروس فى الارض ، يحده من الجهات

الاربع ، اثنا عشر قيراطا من الارض ، فى الحوض البحرى، القناة الصغيرة التي ترويه ، تقسم الحقل نصفين ، بحريها ستة قراريط وقبليها ستة قراريط . الساقية التى بناها هناك ، مشتركا مع اصحاب الارض الآخرين ، والرى منها بالدور ، حسب نظام متفق عليه فيما بينهم ، شجرة التوت ، ظلالها المتاكلة الاطراف ساعة القيلولة ، ظلال القمر الراقدة تحت اقدام الشجر طول الليل ، رائحة الارض بعد اختمارها بالمياه ، الشقوق الواسعة فيها عندما تكون شراقى . فكر وردانى فى صورة حقله ساعة الفسق، عندما تذوب ملامحه وسط غبشة المساء الرمادية ، فتبهت معالمه ، وتتلاشى حدوده ، وتتحول خضرته الزاهية ، الى خضرة رصاصية داكنة اللون .

فى مستشفى المركز ، كتب له الطبيب روشتة العلاج ، قال له ان هذا الدواء ثمنه خمسة جنيهات ، وعليه ان يكرره ، لمدة سنة على الاقل ، مع الراحة التامة فى السرير . ونظام معين فى الاكل ، صدر دجاجة فى الغداء ، شوربة خضار فى العشاء ، لبن حليب وبيض فى الفطار ، وسياتيه الشفاء باذن الله ، اما الحجز فى المستشفى فلن ياتى بنتيجة . اخذ وردانى الروشتة من الطبيب شكره . قال : انه سيحضر العلاج ، وسينفذ تعليماته ، وخرج من المستشفى . دارت كلمات الطبيب فى ذهنه ، فضحك ، تذكر انه كان يسمع فى ايام الشباب الاولى، «مغنى قديم»، يتحدث عن رجل مريض ، يشكو طول الليل ، انه عليل ، دواؤه موجود فى كل مكان تحت رموش عين الحبيب ، فى بلاد قريبة ، غير ان الطبيب لم يامر بصرفه له ، فتحسر على ايام زمان السخية فى كل شىء .

وردانى فى نومته يحاول ان يتصور ما سيحدث لارضه فى الصباح. المهندس نزع الارض منه ، الحفر، قلب باطن الارض علها تجود بالسر ، تسليم الارض ، الارض والعرض ، زوجته واولاده. استدار على جنبه الايمن ، شبك يديه ووضعهما تحت راسه ، وتنهد ، لقد شعر بضيق فى صدره .

ــ صدرى حاينقفل بابت ، وحاتبقى ليلة سودا .

وردانى يخاف ان تاتيه الازمة ، فيوقظ زوجته واولاده ، ويطلب منها حبة دواء ، فتقوم وفى عينيها بقايا نوم، وتحضر جلابيتها السوداء، من فوق المسمار ، ومن جيبها الداخلى تفك منديلها . تخرج من داخله قروشا قليلة ، باعت بها بيضا فى سوق الخميس ، ثم

تخرج ، وهى تفرك عينيها ، وفوق راسها لمبة جاز ، وفى يدها قروش تحرص عليها اكثر من حرصها على الحياة ، كى توقظ المعلم مقوب من نومه ، تشترى منه حبة دواء لا اسم لها ، حبه واحده لا تعرف لها شكلا ، المهم انها تريح وردانى وتفتح صدره .

وردانى يفرد قدميه على آخرهما ، تصطدمان بعدة الشاى فى آخر الحجرة ، ثنى أصابع قدميه ، قال لنفسه :

ــ بكره يحلها من لا يغفل ولا ينام ..

وكانت عيناه تلمعان فى ظلام الحجرة ..

يجد الرجال فى الحقول والنباتات والبلد ، وفى انفسهم ، صراحه الاشياء الاولى ، ورغم ان الحياة بالنسبة لهم يوما واحدا ، يجترونه ويعيشونه بلا نهاية ، فان عيونهم المتعبة ، تعجن الاتساع الحقولى وزرقة السماء ، وخضرة النباتات بنظراتها ، وترصد التغييرات التى تطرا على جلد الطبيعة ، ويبدو للعيون احيانا ، ان التغييرات التى تحدث ، انما هى وعد غير مكتوب بسعادة جديدة ، فداء عن الصبر الطويل ، وتبقى العيون والآذان والقلوب ، تسجل ما يحدث . شهر اكتوبر من كل عام .

ا ــ انخفاض مستوى المياه فى ترعة ساحل مرقص ، ثم جفافها ويبدو القاع عاريا ، مليئا برمم الحيوانات الميتة ، والنباتات الصغيرة وقد تراكمت عليها القاذورات والسمك الميت . وعندما يشاهد اهل السوالم منظر الترعة بعد الجفاف ، يموت فى نفوسهم كل عام شكل الترعة الممتلئة بالمياه ، وجمالها فى الليل .

٢ ــ قصر النهار ، يتحول الى ومضة قصيرة ، فركة كعب ، تعبر الشمس السماء الواسعة فى لمح البصر ، وتطول مساحة الليل ، فيضحى وعدا بسهرات طويلة ، تحكى فيها الحكايا ، وتهمس النساء فى الصباح ، وهن يملأن الجرار من الحمام ، بما حدث فى الليلة السابقة ، وتتغنى امراة منهن بجمال ليل الشتاء وطوله .

٣ ــ تساقط الاوراق من فوق الاشجار ، تاركة الفروع عارية مذكرة الانسان بدورالحياة ، الخصب والخضرة والنماء ثم الذبول وعلى الارض ، تحت الاشجار ، تتناثر الاوراق الجافة ، فتغطى مساحات الظل .

٤ ــ هجرة الطيور . ان الطيور فى مثل هذه الايام ، من كل عام ، تهاجر الى مواطنها الشتوية . الانسان يبقى مرتبطا بالارض والبيوت ، مسجلا تحول الحياة والارض ، مع قدوم الشتاء ، وباحثا عن بوادر الربيع قبل الاوان .

انه الخريف ، خريف هذا العام يحمل معه شيئا لم يروه من قبل .

الخيام المنصوبة فى ارض الوقف . ما ان يمر احد من اهالى البلد على ارض الوقف ، حتى يتوقف امام الخيام ، يحاول ان يقترب منها ، لا يعاود السير فى طريقه ، الا بعد ان يرى أى شيء من داخل الخيام . اهالى البلد ، يشاهدون فى الخيام دلائل وجود حياة ، غسيل منشور على حبال ، مياه مدلوقة على الارض ، فوقها فقاعات صابون ، اعقاب سجائر وبقايا عيدان كبريت محترق ، اوراق ممزقة ، وفى لحظة الغسق، كانوا يشمون رائحة السمن المحروق ، وكانوا يسمعون صوت طشيش التقلية ، ومن خلال منافذ الخيام ، كان يخرج دخان ازرق ، دائرة اهتمام الناس مركزة فى الخيام بمن فيها من الناس، وما يحدث بداخلها ، يقسم الكل على ان احدا من اهالى السوالم ، لم يدخل الخيام ، ويقول الناس ، ان حب الدين يوصل المهندس حتى باب الخيمة ، هو الآخر لم يدخلها . المهندس هو موضوع اهتمام الناس ، مرتبطا به البترول والحياة الجديدة والامانى والوعود . وقد يهمل الناس موضوع المهندس ، عند مرور بعضهم على الخيام ، يتذكر الموضوع كله ، وما سمعه عنه . وتطفو على سطح نفسه ، احلامه الخاصة وامانيه . ذهب الرجال ذات مساء الى الشيخ محمود ، كان فى صحن الجامع ، جالسا كما تعودوا ان يروه منذ ان ولدوا ، ويعتقد الكل انهم سيموتون ويتركونه كما هو ، فى نفس المكان ، ونفس الجلسة ، والمسبحة فى يده . ان احداثا هامة تحدث للسوالم تزلزل اركانها ، تؤثر على من فيها ، تهز اعتى الرجال ، انها تصل الشيخ محمود . ذهبوا اليه ، حملوا حيرتهم وتساؤلاتهم ، جلسوا حوله ، نصف دائرة ، حكوا له ما حدث ، تكلم ابو السعود ، اوجز احيانا ، توقف امام بعض الامور طويلا ، وكان الرجال يوافقونه على كل ما يحكيه .

ــ آدى الحكاية ياسيدنا ، من طقطق ، لسلامو عليكم .

اكمل بعضهم ، بكلمات بسيطة ، ما لم يقله ابو السعود ، اعتذروا بانه لا احد فيهم يستطيع الكلام مثل ابو السعود ، ولكنهم اكملوا ما قاله . تكامل الموضوع امام الشيخ محمود ، صمت ، دارت حبات المسبحة فى صعود وهبوط بين اصابع الشيخ ، راح الكل ينظر الى شفتيه .

ــ واطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، وأولى الامر منكم .

افهمه احدهم ان ما يطلبونه هو مشورته .

— صدق الله العظيم .

انهم لايطلبونمنه ، أن يقرأ الغيب ، أو يحاول معرفة ماسيحدث البلد ، قال أبو السعود أن حياة البلد كلها ، تتوقف على هـذا الموضوع ، ان هذا الرجل ، وأشار الى ورداني ، صاحب الارض والبئر ، انه صاحب أكبر اسهم فى الشركة . أما أنا ، وأشار الى نفسه ، انا أبو السعود ، منادى البلد ، وقارىء الـكف ، وحامل اخبـار الرجال والنساء ، ساكون رئيس العنـابر الداخليـة فى الشركة . للوم هو المدير العام ، مدير شئون العاملين بالشركة . حب الدين ، نائب رئيس مجلس الادارة . الادارة العموميـة ، التى لايعرف احد اين سيكون مكانها ، مصر أو ايتاى البارود ، أو السوالم . فتحى سالم عضـــو مجلس الادارة المنتدب ، سأقدم تقريرا كل يوم ، عن سير الامور فى العنابر الداخلية ، قال أبو السعود ، انه ضمن مشروعاتهم ، ان يبنوا مسـجدا كبيرا ، من دورين ، دور للرجـــال وهو الارضى ، والدور الثـــانى للنساء ، العمل فى هـذا المسجد سيكون بمرتب كبير ، وسيبطل العمل بالمسائية ، وسيضاء المسجد بالنور بدلا من الفانوس القديم ، ستكون صلاة الفجر بلا متاعب الظلام . صمت الرجال ، فى العيون وهج رائع ، احساس طازج ، اعادوا السؤال على الشيخ محمود . وبعد فترة صمت ، قال لهم الشيخ محمود :

— لا يعلم الغيب الا الله .

شعر الرجال انهم عاجزون عن الفهم ، وبانه تفصلهم عما يقولونه مسافات طويلة ، سنوات لا نهاية لها ، يبتلعون فيهـا الأميـال الطوال ، بحثا عن ارض جديدة . قام الرجال . فى مقام سيدى الغريب ، مروا بأيديهم على سترة المقام الخضراء ، قبلوا أياديهم ، مســحوا بانفهم على وجوههم ، كان على الستـرة الخضراء كلام مكتوب باللون الابيض ، الرجال لا يعرفون القراءة أو الـكتابة ، غير انهم يعرفون ان المدون على هذه السترة ، هو : الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وأمام المقـام ، فى حضرة سيدنا الغريب ، تذكر كل منهم امنياته ، عاشها من جديد ، اطل من خلالها على ايامه القادمة . وفى صحن الجامع ، كانت تصرخ فى وجوههم ، كتابات قديمة ، على الجدران ، حروف متآكلة ، تتحدث عن الذى لن يحضر ابدا والذى يأتى ولايأتى ، وعن البر والتقوى ، والخوف والشجاعة ، وماقاله الخضر لموسى ، من انه لن يطيق معه صبرا ،

وفى كثير من موضع . كان هناك كلام عن الصبر .

فى الشارع الرئيسى ، شعروا بالاستخفاف ، بأنهم يطيرون فى الافق البعيد . ومن خلال الصمت . بدأوا يضحكون ، ضحكات موشاة بالسرور المفاجىء . انهم ينادون انفسهم بوظائفهم الجديدة ، وأهالى البلد ينظرون اليهم ، ويقول البعض . انهم اصابهم مس وان المهندس ضحك عليهم .

— لا حول ولا قوة الا بالله .

قالوا : آخر زمن . السوالم سترى ما هو اكثر ، طالما ان المهندس يعيش فيها . الرجال يسـيرون فى الشـوارع ، يقولون النكات ، يفرقع بعضهم باصابعه فى الهواء تعبيرا عن السرور ، تخرج من افواههم ضحكات صافية ، مكتملة الخلقة . لقد اكتشفوا ان الامور اصبحت لا تطاق ، ودوام الحال من المحال ، استـمرارهم يعنى ان يموت الـكل ، المهنـدس اتى فى الوقت المنـاسب ، واكتشفوا انهم كانوا سذجا ، لقد رضـوا بما قسم لهم فى الايام الماضية ، وتساءل كل منهم : كيف كانت تسير الأمور من قبل ، واستعدوا لتقبل التغيير الجديد فى حياتهم .

على الجسر ، فى المساء جلسوا ، لعبوا السيجة ، تـكلموا ، أسـكرتهم الـكلمات . فتمايلت الرءوس . وتحركت الالسن فى الافواه بصعوبة ، وارتفعت الايادى بتثاقل . قال حب الدين ، انه سيذهب الى دمنهور فى الاسبوع القادم ، ومن السوق العامة ، سيشترى قماش بدلة ، انه يفضل اللون الرمادى أو الازرق ، على ان يكون القماش سادة ، فهو لن يرتدى الجلباب بعـد اليوم ، الجلباب لا يصلح الا للنوم او الجلوس فى المنزل فى الامسـيات . حب الدين يقول لهم : انه لا يتصور كيف كان يرضى من قبل بلبس الجلباب . قال وردانى : لن ابيع الارض للشركة مهما حـدث ، سأظل مالـكها الوحيد ، وسيأخذ نســبة من ثمن البترول ، وبالنقود ، سيفعل كل ما يتمناه ، يبنى بيتا ، يفتح مشروعا كبيرا ، يشترى سيارة ، فلا احد يضمن ما تأتى به الايام .

— الموضوع دا من اختصاص القضاء ، تأجر او تبيـع ، فيه جهات مختصة .

المتحدث هو حب الدين ، وردانى ثار ، هاج وماج ، وسخر من مسألة التخصصات (وان لم يكن قد فهمها) . المسألة واضحة ، الارض ارضه وهو حر فيها ، توقف وردانى ، نبه الجميع الى

حقيقة ، يجب الا ينساها احد، لقد سلم الارض بمزاجه للمهندس، وكان يملك الا يسلمها ، وبذلك يتوقف المشروع ، ولكنه تنازل عن ارضه فى سبيل مصلحة البلد . انه يذيع سرا فى هذه اللحظة ، لم يكن يجب ان يقوله ، الرجال ليسوا غرباء ، قال له العمدة يومها ، انه حر ، الارض ارضه ، وله أن يفعل ما يراه . قاطعه للوم ، طلب من حب الدين أن يبحث له عن شاب متعلم ، كى يعمل معه فى مكتبه الجديد ، ظروف العمل تغيرت ، سيفتح مكتبا فى منزله بصفة مؤقتة ، فالشركة ستبنى له مكتبا فخما ، يقول للوم : انه شاهد مكان مكتبه بالامس على الخارطة مع المهندس .

انهم يجلسون ، قالوا لانفسهم ، ان شمل الحياة يجتمع من جديد فى السوالم ، سيعود الرجال الذين رحلوا لضيق ذات اليد، او لعدم وجود عمل ، قال ابو السعود : انه لن يمر على البلد ، فى حواريها الصغيرة الملتوية ، وينادى بصوته الحيانى : « ياعباد الله ، الحاضر يعلن الغايب » لن يجتمع حوله الصبية والاطفال ، ويتكاثر الصغار حوله كلما مر بحارة جديدة ، سيكتب ما يريد ابلاغه للناس ، على ورق ابيض ، ينطلق به صبية ، أو يعلق على لوحة فى مكان عام ، كى يقرأه الناس .

— ما هى كل النـاس ، حتى النسوان ، لازم يعرفوا القراية والـكتابة ، امال حا نفضل كدا على طول . مش ممكن ، المهندس قال كدا .

— امال ياعم ، والله وشفنا أيام حلوة .

وردانى يتصور ان ارضه قد باحت بسرها لرجل سواه ، انه المهندس عصمت ، يبتسم وردانى ، لا يصدق . سيذهب الى ارضه ، سينام هناك ، وفى الليـــل ، مستودع الاسرار والرؤى والاحلام ، سيعرف السر .

— والنبى دى الاشيا بقت معدن ..

همس لنفسه ، انه يتذكر الايام الماضية ، كان يجلس فى عشة سلسبيلة ، الرجال من حوله يطلبون ادوار الشـاى الثقيـلة ، يدخنون المعسل ، غير ان وردانى كان يدور فى عقله شيء آخر : حساباته ، ما عليه ، ما معه ، النقود التى ينتظر الحصول عليها ، بعد شهر او شهرين . فى اللحظة التى يأخذ فيها كوب الشاى ، أو يدس غابة الجوزة بين شفتيه ، يدرك معنى ذلك بالنسـبة

لمعروفه ، قوت عيـاله ، ويدرك ان ذلك كثير ، ولـكن ما باليد حيله ..

الرجال يجلسون على الجسر، والليل قد حل ، انهم يرون مناظر لن يروها ويسمعون امورا لن يسمعوها ، ويملكون مكانا واسعا فى سماء الله العالية ، يفعلون فيه ما يشاءون ، دونما خوف. كان الليل مقبلا بالاشواق ، الليـل يطوى بداخله الحوارى والبيوت والناس ، زارعا فى النفوس الاحلام والامانى .

قال لهم فتحى سالم : ان هذه الحكاية ، قد حدثت من قبل ، فى السوالم ، فى قديم الزمان ، منذ مائة سنة ، قراها فى الكتب ، ابدى الرجال دهشتهم ، انصتوا اليه ، الحكاية لم تكن حكاية بئر بترول ، كانت حكاية اخرى عن السوالم . قاطعه احدهم ، البئر والمهندس والبترول ليست حكاية ، انها حقيقة ، المهندس ليس حدوته تحكيها العجائز فى ليالى الشتاء المستطيلة الوجه المطوطة اللحظات ، هو حياتهم ، وجودهم . قال فتحى سالم ، انه يطلب الفرصة فقط كى يتكلم ، ولا يجب ان يقاطعه احد . سكت الجميع فى السوالم ، غنوه حزينة ، تغنيها الصبايا وقت الحصاد ، فى اتساع الحقول ، تحدى احداهن ، فتاة صغيرة وجميلة ، تسمى نفسها سلسبيله ، وترد عليها الباقيات ، يطلبون فيها من الشاطر حسن ، أن يركب حصانه ، ويجهز الزاد ، فهو على سفر قد يطول ، وزاد المسافر ، خياله وعقله وقلبه المفعم جسارة ، ست الحسن والجمال ، محبوسة فى قصر ، فوق صخرة ، الصخرة العالية ، بين مساحتين من الصحراء ، بحار لا نهائية من الرمال ، خرج الشاطر حسن ، سافر ، غير انه لم يعد ، انتظره الرجال والصغار والنسوة ، تعلقت خيوط نظراتهم بخط الافق ، ولم يطالعهم وجهه الجميل ابدا ، دفنوا حكايته فى حبات القلوب ، قال فتحى سالم ، ست الحسن والجمال هى السوالم نفسها ، الشاطر حسن ، كان أحلى ابنائها ، وانه كان مطلوب منه أن ينقذ بلده ، من خطر ما ، لا تذكره الاغنيـة القديمة ، وان الشـاطر حسن لم يعد من الصحراء الواسعة ، وقد يكون هناك حتى الآن؛ السوالم ما زالت حزينة عليه ، وهى تعيـش على أمل أن يعود اليها ، قال فتحى سالم ، انه لا يعرف لم ذكر هذه الحكاية ، وقال انه يفضل ان تنتظر ست الحسن والجمال عودة الشاطر حسن، انها ورجلها ؛ الفرح خيانة له حيث هو الآن ، الخيانة يا أهل

السوالم مرة المذاق على اطراف الالسن . قال فتحى : ان كلمات الاغنية مكتوبة على الجدار الداخلى لبئر المياه المهجور . خلف جامع سيدى الغريب ، وهى مكتوبة بدم الشاطر حسن ، وبخط كوف جميل ، وانه قراها فى صباه ، قال : اننا يجب أن ننتظر ، وان ندون كل ما يحدث لنا ، على نفس الجدار الداخلى ، فنحن لا نعلم ما قد يحدث بعد ذلك . كبس على الرجال صمت غريب ، هل يعود الشاطر حسن ذات مساء . رجل كبير . عملاق ، تساءل احدهم . هل ورد ذكر لهذه الحكاية فى الكتاب الذى الفه سيدنا الغريب ، لم يجب عليه أحد ، قال فتحى سالم : ان الشاطر حسن الذى تنتظره السوالم كلها ، شاب كبير ، مفتول العضلات ، طول خطوته الف الف فدان ، تدوس قدمه على الارض فتهزها . يرفع قامته فتنطح السماء ، رد حب الدين ، قال : ان الشاطر حسن ، هو النبى الذى تحدث عنه مولانا ، فى آخر صفحات كتابه ، وانه لابد وأن يحضر ، وانه لن يحزنه ان يعود فيجد بلده على أحسن حال ، الصمت يحوم فى الظلام ، وحب الدين يواصل كلامه ، الكلمات لا تقال بنفس الاندفاع الاول . الرجال فقدوا حماسهم ، وانشغلت الاذهان بما قاله فتحى سالم ، قال حب الدين لنفسه : ان عشته ستتحول الى كازنيو ، مراهنات الرجال فى اللعب ، ستكون على أشياء كبيرة ، وقد يلعب الرجال الورق على الجسر ، وامامهم أكوام من النقود ذات الرائحة المحببة ، لن يطلب الرجل منهم كوب شاى واحد على الحساب شكك . قال حب الدين للرجال : انه يجب على كل اعزب أن يتزوج بعد عمل البئر ، وعلى كل رجل متزوج ، أن يتزوج مرة أخرى امراة جديدة ، قال عن نفسه : انه سيتزوج بعد أسبوعين على الاكثر ، وانه لن يناسب الا احد العمد ، وقد يتزوج مره ثانية او ثالثة على سنة الله ورسوله والمؤمنين .

ـ بس لما الباشمهندس يتجوز الاول ..

ـ بصحيح ..

قالوا : ان ليلة فرحه ، ستكون ليلة ولا كل الليالى . الرجال أيامها ، لن يعرفوا ، كيف ينفقون النقود . قال حب الدين ، انه سيزفه فى بيته الجديد ، سيخطب له احلى بنات الناحية كلها ، وانه سيشعل السيجارة الاولى فى السهرة ، من ورقة بعشرة جنيهات كاملة . هبت عليهم نسمة هواء باردة ، وارتفع بخار خريفى ابيض من الترعة تحتهم ، ذكرهم بان الليل قد حل منذ وقت مضى ، قام الرجال ، وقبل أن يتركوا الجسر ، اشار لهم حب الدين ، ان يقتربوا منه ، كونوا دائرة صغيرة ، وهم وقوف لم يكن يبدو سوى بياض العيون يدور فى سرعة ، احسوا بدفء انفاسهم ، ينزلق على الوجوه . همس حب الدين لهم ، بصوت منخفض :

ـ كلام فى سركم ..

قال لهم : انه بعد افتتاح المشروع ، سيعاد انتخاب اعضاء الاتحاد الاشتراكى . وفى هذه الحالة ، سيتغير اكثر اعضائه ، انهم لن يخافوا احدا بعد ذلك . كل الامور ستتغير ، ان عمل العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر سيبطل . سيكون هنا ، مركز بوليس فيه ضابط كبير ورؤساء لقطاعات المدينة ، ستكون هنا مؤسسة للكهرباء ومرفق للمياه ومكتب للبريد وفروع لكل البنوك ومحطة خطوط اتوبيسات تصل السوالم بكل البلاد ، ومكتب تلغراف وتليفونات ، وستمتد خطوط القطارات حتى البلد . ونواد ومقاه نظيفة . قال لهم حب الدين : على كل منهم ، ان يشترى عفريته زرقاء جديدة ، بدله للشغل فى المصنع ، وأن يستخرج بطاقة شخصية او عائلية ، مع استخراج شهادة ميلاد وتجهيز شهادة تادية الخدمة العسكرية او الاعفاء النهائى منها ، وبطاقة عضوية الاتحاد الاشتراكى وان تكون الاشتراكات مسددة حتى آخر شهر . والفيش والتشبيه . احس الرجال ان وجودهم الذى لم يكن محددا من قبل . سيتم حصره فى اوراق بيضاء ، مكتوب فيها معلومات غريبة ، من جهات بعيدة . تحدد كل بيانات حياتهم . انهم يدركون ان كل شىء هنا . كان محسوبا دون أن يدرى احد ، قال لهم حب الدين : ان البلد بلدهم ، وانهم أولى الناس بالعمل فى هذا المشروع . قال لهم : ان عصمت افندى ، سيساعدهم بنفسه ، وفى كل الجهات ، فى سبيل الحصول على الاوراق المطلوبة . هذا الكلام ، قال حب الدين : لا يصح أن يعرفه أحد غيرهم ، حتى ولا زوجاتهم فى المنازل .

أحس الرجال بدوار فى رءوسهم ، طعم الحياة يتغير فى مذاق كل منهم ، والتغيير الذى يوشك ان يحدث لهم ، نادر الحدوث . تواعدوا على اللقاء ، بعد صلاة العشاء فى عشة سكر ، ثم تفرقوا . حب الدين يسير فى حوارى البلد ، طريقه الى خيام الغرباء ،

يفكر فى سيره البطىء فى سلسبيله ، يدرك انها آخر ما تبقى له . شعر بشوق جارف لها ، احس بالحنين الى بسمتها الصافية ، فكر فى ان يغير طريقه ويعود اليها ، قال لنفســه : ان الله قد جزاهم خيرا على صبرهم الطويل ، وقال ان وجه سلسبيله ، كان خيرا على السوالم كلها . الهواء يداعب وجه حب الدين وهو يسير فى حوارى السوالم ، انه يشعر برغبــة فى الغنــاء ، ويجيش فى وجدانه موال قديم ، يترنم به ، لــكن لنفسه .

ـ محبكم داب ، وانتم لم دريتوا بيه ..
والنار بترعى فؤاده ، وانتم لم دريتوا بيه ..

ان قدمه تدوس على الارض ، وترتفع عنها ، بحركة آلية ، وهو يسير ببطء فى حوارى السوالم . ان عينيه ، تكتســبان رؤية جديدة ، لمشاهد بالفة القدم ، انه يملأ عينيه من كل شىء ، ومما ادهشه ، انه عندما قابل المهندس ، سلم عليه بحرارة ، ورحب به وقال له المهندس ، وهو يضع يده على كتفه فى ود وحنان :

ـ اهلا بنائب المدير العام ..

مفتتح : امراة لينة العود ، مفرودة القوام ، مثل عود الـ...ر... الذى زرع ونبت فى ايام الرخاء ، فى حلاوة الشهد ، تنام رموشه... الطويلة على العيون الواسعة ، تزد د العيون اتساعا فى الليــل... وتحضن الشفة السفلى ، اختها العليا فى وسن هامس ، مكونتين... معا دائرة صغيرة ، فى حجم وحمرة حبات النبق . اليد والذرا... فى بياض القشدة ، تتحرك ايدان خلف النصبة ، بخفة ومهارة... يبتعد الرموش السوداء ، عن العيــون المفنجلة . فتنظر ناحيــ... الرجال ، فتبذر فيهم جميعا ، وعودا مبهمة ، رؤى ضــبابيـ... غامضة ، حنينا وسهادا ورغبة .

سلسبيله امراة بلا رجل ، وكل امراة بلا رجل فى الســوالم... فهى امراة متاحة . يقول الشبان . ان من له زند رجل . وذرا... ذكر مغطى بالشعر ، وفى جيب الصديرى الداخلى . الذى ينـــا... على صدره العريض مال ، فهو قادر على ان يتحسس بيده حلاو... الشهد ، ويغرس اصابعه فى ليونة الجسد الابيض ودفئه . وعندئ... قد يرى عن قرب اتساع العيون . وقد يكحل عينيه بســــوا... الرموش التى تغطى فدان ارض ؛ وقد يرى بياض الجسد يضى... ويشع فى حجرة ضيقة ، مطعونة بمساحات الظلام الليلى .

يجلس الرجال فى عشة سلسبيله ؛ يتربع فى وسطهم حب الدين... امامه الطبلية المستديرة الواطئة ، التى يلعب عليها الرجال الورق... احيانا . سكر من معالم المكان ، تتصدر العشة ، تصطدم عينــ... الداخل ، بحلاوتها خلال دخوله . فتحى سالم يجلس وسطهم... وحضوره امر نادر الحدوث ، ولعل السبب الوحيد فى حضوره... حديث الامس وما قاله المهندس ، فتحى سالم قلق فى جلسته... ويبدو انه غير مقتنع بحضوره الى العشة ، ورغم هذا ، فهو مكر... على الجلوس ، ومن يدرى فقد تمتد الجلسة الى ما هو اكثر م... هذا ، انه ينزلق ، والهاوية ممتدة امامه الى ما لانهاية ، والتوقف... اصعب من الاستمرار فى لانحدار . فتحى سالم صامت . لايتكل... يتحسس جبهته واذنيه وفتحتى منخاريه ، يحدق فى الرجال

ويتعمد الا ينظر ناحية سكر . ويقول لنفسه . ان لكل امر من امور الحياة جانبه الجميل . ويكتشف الان . ان سلسبيله رائعة ، ويحسد حب الدين . ويستريح فى جلسته . ويمنح الرجال اذنيه . الرجال يتكلمون فى كل الامور دفعة واحدة . ومع الحديث ، يستيقظ فى نفوس الرجال ، الآلام والخطا والجراح . الحديث ينفض عن القلوب الصدأ والغبار . انهم يعزلون من قحط ايامهم وجدب الحياة من حولهم ، حكايا تبلغ حد الروعة ، ووسط الحديث كانت اعينهم مربوطة بمكان ما . فى الافق المعتم وسط الظلام . ان احدا منهم لا يستطيع احتواء شعوره الداخلى . او يتذوق مذاقه . وسيظل هذا الشعور سره الخاص به ، دون اكتشاف بالنسبة لأى منهم .

الرجال ، الجالسون فى عشة سلسبيله . تبدو قدرتهم الوحيدة فى ان يحلموا ، ان يرسموا بعيون الخيال . اشياء . احبها فى نفوسهم المهندس . تدور الجوزة بينهم . يخرج الدخان الازرق من افواههم وانوفهم ، يختلط ببخار اكواب الشاى الدافئة . يكونان معا ، سحابات من الغبار الشفيف فى جو العشة . وفى الخارج يذوب وسط الليل الناعس .

– وحدوه ..

– لا اله الا الله ..

الرجال ينظرون الى بعضهم ، كانهم يرون انفسهم للمرة الاولى. تنغرس كلماتهم فى جو العشة ، فترسم امام عيونهم اشكالا ، صورا ، بلادا ، تحيل احلامهم الى واقع محدد . لقد تباعدت المسافة بينهم وبين السوالم ، وشعر الرجال ان حبال الالفة والمودة بينهم وبين البلد قد تقطعت . لن تعود الحياة الى ما كانت عليه من قبل . كانت الامور قد ساءت ، واضحى كل رجل . فى الصباح ، يشعر بأن كل شىء قد غدا ثقيلا ، الحياة ، الحوارى ، البلد ، لقمة العيش ، نظرات الآخرين ، سماء الله العالية .

– اما يا اولاد لو طلع الكلام ده صح ..

تشتعل الكلمات ، تندفع فى سباق بينهم ، ولا تستطيع الاذن ان تميز شيئا وسط سيل الكلمات المتدفق . الرجال يحلمون بسوالم اخرى ، لايوجد فيها عمد ، وبرجال لا يقضون حاجاتهم فى السباخ ، على شاطىء الترعة ، وبليل لا يبدأ فى السادسة مساء ، ويستمر حتى السادسة من صباح اليوم التالى ، ولا يرتبط الليل

فى اذهانهم بالظلام والصمت ، انهم يحلمون بسماء مفسولة بالشهد والحنين ، تعبرها طائرات كثيرة . وقد يكون هناك مطار كبير. الطائرات لن تذكرهم بعد ذلك بالحرمان ، ولكن لتربطهم بالدنيا الواسعة . وقد تختفى اختامهم ، تلك القطع النحاسية الصفراء المربوطة بالدوبارة فى محافظهم الفارغة . وقد تبقى النقود ، تلك القطع الفضية اللامعة ، والاوراق الخضراء ذات الرائحة المحببة . فى الايادى فترة اطول ، حتى تدفئها ، وقد تعرق الايادى على النقود من الفرح ، وقد لا يخافون شيخ الخفر ، وشيخ البلد ومقاول الانفار ومعاون الزراعة .

سلسبيلة تهيم خلف النصبة ، وتقوم بعمل كل ليلة ، انها تغنى بصوت لا يسمعه سواها ، كلمات سمعتها فى الزمان القديم ، فى احدى القاعات الضيقة الحمراء ، الفاقعة الحمار ، فى شارع محمد على ، فى مصر ام الدنيا ، الكلمات التى تترنم بها ، مربوطة حول القلب ، كحجاب لا يفارقه . ترددها دون ان تفهم معناها :

– آه منك يا زمن السفر والترحال ..

حب الدين : قلت لنفسى . يا مركب العمر ، ان جاكى العدل حلى ، واقعد على دفتك ، وآخد بايدين خلى ، وعدنى المهندس بالعمل . قال اننى خامة جيدة ، واننى ساجد نفسى فى العمل معه عندما سمعته ، لم ادرك معنى ما يقول . غير اننى فى الليل . والليل يخفى حقائق الاشياء ، بدات ادرك معنى كلمات المهندس. اننى احبه ، وفى كل ليلة ، بعد ان تخلو العشة تماما ، اصبح بمفردى فى مواجهة سلسبيلة ، نجلس معا فى مواجهة بعضنا ، نتحاسب ، نضع نقودنا فى منتصف الطبلية ، اقيد الحسابات . اقول لنفسى : يارب سترك ، والنبى يارب . اننى لا اخاف سوى شماتة الناس ، لم اكن اطلب الكثير . قال لى المهندس : ساعمل معه ، ملاحظا لتشغيل الانفار ، على ان اراقبهم فى العمل ، صرف الاجور سيكون كل خمسة عشر يوما ، او كل اسبوع . زى ما انتو عايزين . قال انه سيعطينى اعلى اجر فى الناحية . قال ان المعجزة ستحدث هنا ، سنرى بأنفسنا الكثير . مال على المهندس همس بكلام حلو عن مستقبل السوالم ، اذكر انه قال ، كلمات رائعة ، كانت فى عينيه غنوه مقيدة ، عبارات حبيسة تريد ان تنطلق ، ان تعربد فى الهواء ، فركت يدى فى بعضهما ، احمر وجهى « احنا تحت امرك يا باشمهندس » وكنت صادقا فيما قلت

أشعر أننى وجدت شيئا ما ، وقد أقضى بقية العمر مستريحا ، كنت أفكر فى ترك السوالم من قبل ، كانت الحال قد ضاقت بى ؛ كان الفراغ وضيق ذات اليد وبيع الارض قد دفعنى الى حافة الياس ، سرت مع المهندس حتى الخيام ، تركته هناك ، وما كنت اود ، ان افارقه لحظة واحدة ، كنت حريصا عليه كما الحياة .

« تصبح على خير يا باشمهندس » عدت ، فى طريق عودتى ، كان فى نفسى شعور خبيث ، نوع من التشفى فى العمدة وشيخ الخفر والخفر والمعلم يعقوب ، كنت اتشفى فى كل من يقبض ماهية أول الشهر ، كل الذين لا يطلبون من الله سوى ان يدوم الحال ، رحت امنى نفسى بالايام القادمة ، ابى يرحمه الله ، تنبأ بما حدث من قبل ، الفجرية التى مرت بالسوالم فى الربيع الماضى ، جلست فى وسطنا ، كنت اجلس على الجسر ، اخذت اثرى ، وشوشت الدكر ، رميت بياضى ، قالت لى : يأتيك رزق كثير بعد عمر طويل، اطلبه من الله ، سألتها عن العمر الطويل ، قالت سنه واحده او اكثر . رفعت يدى نحو السماء الربيعية الزرقاء ، قلت يارب . اوزع الشاى على الناس ، اتحرك بين الرجال ، وقد بدأ جو العشة مثقلا بالانفاس والدخان ، اتخيل نفسى ، العفريتة الزرقاء . الحذاء اللامع ، اليد الناعمة ، حب الدين سرحان رئيس قسم . بشركة ، الزواج . العشيقة ثم الزوجة ، يصل ويسلم ليد السيد . العمل فى النهار ، استعادة الارض التى بيعت للمعلم يعقوب ، القيراط الخامس والعشرين ، لابد وان أقول ، اننى لا اتصور كيف كانت الايام ستمر بدون المهندس ، النوم حتى العاشرة الاستيقاظ ، الافطار ، التدخين ، النوم مرة اخرى ، الصحو ثم النوم ، ولا شىء غير هذا ..

فتحى سالم : اخوانى ، اهالى السوالم الكرام ، رشحت نفسى نيابة عنكم ، املى فيكم ، انتخبوا الفلاح المثقف ، فتحى سالم ، رمزه المفتاح ، كانت ليلة جريحة ، لم انم حتى الفجر ، بدا لى الصباح متعبا ، قمت من نومى ، تناولت افطارى بفم غير فمى ، ذهبت الى دوار العمدة ، لا ادرى لم ذهبت الى العمدة بالذات ، تحدثنا فى كل الموضوعات ، سألنى عن اخبار البلد ، واخبار اعضاء الاتحاد ، واخبار الجمعية التعاونية ، والمدرسة ، طلب منى أن اصبر . بعد ايام ، سيكون الامر فى لجنة الاتحاد ، درنا حول كل الموضوعات ، الا الموضوع الرئيسى ، المهندس والبترول ، لم اسأله . ولم يشأ الحديث عنه . كلانا يدرك ، اننا لم نلتق فى هذا الصباح المتعب . لا من اجل ذلك الموضوع ، راحت الدقائق تمتد بين الكلمات . لم نجد ما نقوله . حضر الى العمدة ضيوف من بلاد بعيدة ، قمنا ، سلمنا ، رحبنا بهم . سالونا عن الصحة والحال . احسست ان وجودى اصبح بلا جدوى ، قمت ، سلمت استأذنت من العمدة ..

ــ ما انت قاعد ياسى فتحى ..

ــ أصل ورانا شغل ..

ــ طيب ياخويا ، خطوة عزيزة .

فى الطريق . وكنت بمفردى ، رحت أفتش فى نفسى عن احساس واحد . أعرف به موقف العمدة مما يحدث ، كان وجهه فى هذا الصباح . اخرس ، مسطحا لاينطق، قال لى : ان الظروف صعبة . لقد فعل ما قدر عليه ، نحن عاجزون . مات والدى ، بعده تركت المدرسة . ورحبت بالفراغ و لتسكع ، ونزهات الليل. فى حوارى السوالم . وقلت لنفسى ، ذات مساء ، فليكن مايكون، فلأحاول الحصول على شىء ما من معجزة المهندس ، لقد استطاع حب الدين أن يتسلل اليه . ان حب الدين اكبر منى. كنت اقول له من قبل : ياعمى حب الدين . لحال تغيرت ، دائما يسبقنى حب الدين . مكتوب على أن اكون تابعه ، أو بعده او مقلدا له فى كل ما يقوم به . مجرد وجود حب الدين فى السوالم نار دائمة الوقيد . تكوى القلب والجنب والعين ، كان من المفروض على ان اكتب رأيى فيما يحدث فى التقرير الاسبوعى الذى ارفعه الى مكتب المركز . كل تأخيرة وفيها خيرة . دائما كنت احافظ على المواعيد . وأخدم التعليمات ، عن خوف لا عن اقتناع ، غير انى فى نهاية الامر لم احصل على شىء . عندما وصلت الى منزلى ، ادركت ان الحال فى السوالم امر من اى وقت مضى ، واننى لم ادرك هذا الا بعد حضور المهندس . فى المساء ذهبت الى عشة سلسبيلة ، وضعت على الشفتين ابتسامة باهتة .

ــ مساء الخير يا رجالة ..

ــ مين ؟ سى فتحى ، يا نيلة بيضة ، اهلا وسهلا ..

كان المساء قد حل ، وطار طائر الشوق ، شق فضاء السماء الكاذب ، حاملا الحنين للأهل والاحباب . جلست بين الرجال، فى يدى جريدة قديمة ، دائما قديمة ، حاولت أن أتصنع الاستماع

الى الراديو ، احسست بالارتباك ، كنت مزهوا بهزيمتى ، اقول لحب الدين كلاما ، تنزلق عباراته من طرف اللسان ، دون ان تترك اثرا فى النفس ، حب الدين يدرك معنى كلماتى ، كرهنا بعضنا لحد الموت ، وقلنا لبعضنا البعض ذات مساء ، دونما عذاب الكلمات ، ان بضاعتنا واحدة ، واهل السوالم الطيبون ، اما ان يشتروا منى او منك انت . وقلنا يومها ، هذا الكلام صحيح لم تكن لنا حيلة . قلت لنفسى : كل ما حولى يشير الى اسفل ، الى قيعان الاشياء ، لا امل ، اجلس ، اتفرس فى الوجوه ، تستقر نظراتى على وجنتى سلسبيلة ، تستريح عيناى لجمالها ، فى الصدر و"قلب هذيان ، شعور من فاته كل شىء ، من استيقظ ذات صباح فوجد ان الارباح قد تم توزيعها ، بالعدل او بالظلم ، المهم ان الذين وزعوها ، نسوه ، ولا امل فى تصحيح الامور . اكره المهندس لحد الموت ، ولكنى ادرك ، انه اتى ليوقظ الاحلام المؤجلة منذ سنوات . قالت لى امى بعد الظهر : ان البيت فى حاجة الى كيلتين حب ، فكرت طويلا ، قلت لها : حاضر ، كل الامور حا تتصلح ان شاء الله . لبست عدة الشغل ، الساعة ، الجلباب المكوى ، الحذاء اللامع ، الشراب الكاوتشوك ، امسكت بالجريدة القديمة ، وخرجت . قال الرجال ، احسن تشتغل شغلانه ، قلت : هى ايام التسكع ، ان زمن النزوح والترحال لم يحن بعد ، وقلت لسلسبيلة : يوم أن حضرت الى بلدنا ، وهى تخطو فى الشارع الرئيسى ، فتوقظ الرؤى والاحلام ورعشة الليل ، وتنفض الغبار عن العيون والصدأ عن القلوب ، قلت لها : يا ارض احرسى ما عليكى ، فتوقفت ، استدارت ، نظرت الى ، انغرست نظراتها فى لحمى ، ومضت فى طريقها ، فكرهت الخديعة والفشل والآمال المؤجلة . وعندما حضر المهندس الى بلدتنا ، قلت لنفسى ، وكانت ديوك الفجر قد بدأت تؤذن : خيرا ، ليكن امتحانى الاخير ، وبعدها مرحى يا زمن النزوح .

ابو السعود : لم يرسل المهندس فى طلبى ، يبدو انه لايعرف انه يوجد فى السوالم شخص اسمه ابو السعود ، واسم ابيه ابو السعود ، واسم جده ابو السعود ، آباؤه وأجداده سموا العائلة باسم واحد ، قد يحتاجنى المهندس ذات يوم ، يطلب منى أن ابلغ الناس ما يريد ابلاغه لهم ، وعندئذ سأدور فى الحوارى ساعة الغروب : يا عباد الله ، يا أهالى البلد ، لن تكون المناداة عن

ماعز تاهت فى طريق العودة من الحقل ، او طفل صغير ، ضل الطريق الى بيته ، او عن موعد الترحيلة الى جناكليس ، ستكون المناداة ، بكلام حلو ، كلام المهندس ، لا أفهم لم يكره العمدة المهندس ، لم يقف ضده ، لو صح كلام المهندس ، لاصبحت الحال غير الحال ، ولودعنا ايام الجوع والعرى . الشيخ محمود يعطل على رزقى ، ولم يعد امامى سوى ان ادور فى الحوارى وانادى . ومن قبل ، فى الزمان القديم ، قيل ان والدى ، كان يغسل الموتى ويكفنهم ، ويقرأ القرآن فى المآتم وايام الخميس وذكرى الاربعين ومن صغرى وانا امنى نفسى بالكثير ، بعد وفاة والدى ، لم اجد لنفسى ، سوى أن امر فى الحوارى . قلت : يوم ان يطلبنى المهندس ، سأطلب منه اغلى ثمن ، ان النقود فى يده ، مثل حبات الارز ، قيل لى : ان اسهل ما عنده ، ان يعطى نقودا ، لن اتنازل عن مليم ، ان فاصلنى ، واعتقد انه لا يعرف الفصال ، سأقول له : بين البائع والمشترى ، يفتح الله ، سأتركه وامشى ولن أعود اليه ، ولن اسكت عليه . فى صباح اليوم ، ذهبت الى الخيام ، سلمت ورحبت وعرضت خدماتى ، وقلت : انا ابو السعود ، الذى يعرف كل ما خفى ، ضحكت امام الغرباء ، انا ابو السعود ابو السعود ، ابو السعود ، ابو السعود ، ابو السعود . أمتلك مائة الف عين ومائة الف اذن ، لا شىء يحدث فى السوالم الا وعرفته ، أتحداكم ياضيوف بلدنا ، انكان هناك ما لاعرفه ، وودت ان اشتم فى الشيخ محمود ، اجلت ذلك الى ما بعد . أثناء وقوفى ، لمحنى ورداني أتحدث مع الغرباء ، اسرع فى سيره نحو دوار العمدة ، هذا لا يهم ، عند الغرباء سأجد الحماية ولقمة العيش والراحة والستر ، على استعداد لافعل ما يطلبه الغرباء ، فرح الغرباء بحديثى ، قالوا : دمى خفيف وروحى لطيفه ، وندموا على الايام التى مضت دون أن يعرفونى ، قلت لهم : خدامكم يا بهوات ، دا احنا اهل . توقفت ، رحت انظر الى الجالسين امامى ، جلست على الارض ، تربعت ، رفعت يدى ، فانحسر كم جلبابى عن ذراعى اليمنى ، صنعت منه شمسية ، تغطى عينى ، حتى استطيع ان انظر الى الافندية الغرباء . تفحصتهم واحداً واحدا .

– امال فين الباشمهندس عصمت ؟

– دا مش موجود ، وجاى بالليل ..

ـ كدا ، طيب عن اذنكو بقى ياجماعة ..

للوم : سمعت ، ان المهندس ، سيحتاج انفار للعمل معه : موعد الترحيله قرب . بعد ايام قليلة ، يحضر المعلم من ابي المطامير ، ومندوب المحافظة من دمنهور ، الفصال ، الاتفاق ، قراءة الفاتحة دفع العربون ، تحديد موعد السفر ، تناول طعام الفداء في المندره ، ارسال من يشترى زجاجات البيرة من الضهرية ، لوح الثلج الذى يقطر برودة وسط الحر ، الدخان الخارج من النوافذ والابواب . سمعت ان المهندس سيدفع أعلى اجر في الناحية ، المال معه كثير ، تلك نقطة اتفقنا عليها جميعا رغم كل خلافاتنا القديمة والجديدة ، رايت المهندس من قبل ، غير اننا لم نتبادل كلمة واحدة . سأل المهندس عنك . يا معلم للوم ، قلت لمحدثى ، ذلك من مصلحته هو ، وقلت لنفسى في غيظ : لو حدث واجر له مقاول غيرى انفارا ، لحرقت الخيمة ، وقتلت المهندس في خبء الليالى وصمت الحقول ، والنقود قادرة على عمل المعجزات ، كل ما يعجز عنه القلب واللسان . بعد لقائى الاول مع المهندس ، عرفت انه من السهل الضحك عليه ، انه من عيال البنادر . قالت لى امى المريضة ، عندما شكوت لها سوء الحال : وحكيت لها ما حدث اخيرا للسوالم ، قالت : لماذا انظر الى الموضوع بخوف ، قد يكون الموضوع خيرا ، ذكرتنى بما سبق أن فعلناه مع الافندى القادم من المحافظة ، ومقاول أبى المطامير ، قلت لنفسى : ان المهندس فرصة لمزيد من الغنى ، وبعدها سأشترى السوالم بمن فيها ، وابنى لنفسى قصرا عاليا ، اطل منه على السوالم . في العمل ، قد تخطف عين المهندس فتاة صغيرة ، يسأل عنها ، يتابعها ، يطلب منى أن تحضر كل يوم ، وفى يوم ما ، لا احضرها ، فيسأل عنها المهندس ، لا ارد عليه ، غير انى سأقرأ في عينيه اللهفة ، واعرف كل شيء ، وذات مساء ، ونحن عائدون من مكان العمل الى البلد ، يقترب منى المهندس ، يمسك بى من ذراعى اليمنى : « باقول لك ايه يا حضرة المقاول . انت طبعا ابن بلد وسيد من يفهم » . اعرف هذه اللحظة جيدا ، وسيكون كل ما قبلها انتظارا لحدوثها ، الخجل في العيون ، الشفاه المشققة ، التردد على ملامح الوجوه ، ابتسم له ، اتكلم « احنا اخوات يابيه » يطلب منى أن تذهب البنت الى الخيام بالليل ، ويقسم لى ، مؤكدا القسم بيده ، وبرحمة اغلى ما له في الحياة ، انها ستذهب للعمل فقط ، تزداد ابتسامتى اتساعا ،

وفع ، غمزت لسنارة ، ارفع يدى ، اربت على كتفه « بس كدا . عالى والطلب رخيص ، يا أمير يا ابن الامرا » . الباقى على انا ، سأضع المهندس في جيب الصديرى الداخلى ، وتكون الليالى مترعة بالسرور ، الدخان ، الجوزة ، احلى البنات فى حجرتى الداخلية ، وفى الخارج ، دعوات امى . في المرات السابقة ، كانوا مقاولين صغارا ، هذه المرة ، لا اصدق نفسى . وجود المهندس ، وعد صادق بالامان ، وعد بان اخرس الالسنة ، وأن يقف كل عند حده ، وأن تموت ذكرى الصرف واليمين الباطل وليالى المركز والتحقيق وطرحة امى المرقعة والعمل في الحقول الواسعة كل يوم ، عند الآخرين ، وان تدفن الى الابد ، عبارة من اين لك كل هذا ، والشبهات ، وكلام الناس . ومن يدرينى ، قد اصبح احد مالكى الاراضى ، وقد اناسب عائلة الحاج منصور ابو الليل من الضهرية ، او عائلة المنيسى من دميسنا ، او عائلة الدفراوى هنا في السوالم .

سأسيبلة على الله ، والله لو سعدنى زمانى لأسكنك يا مصر ، وازرع لى فيكى جنينه ووسط الجنينه قصر . انتم صابكم ايه يا اهل السوالم ، لله ، قال لى حب الدين ، وهو يهزنى : ان ربنا فرجها اخيرا على اهل السوالم . لم أرد عليه ، قلت لنفسى : ليبق المهندس في السوالم طويلا ، وجوده معناه ، ان تروح الحال في العشة كل ليلة ، ان تخرج القروش الدافئة من كثرة حفظها في الجيوب ، وتوضع على المنصبة ، دون ان يدرى الرجال كيف يحدث هذا . ها هو فتحى سالم بنفسه ، جالس ، رغم كل ما كان يقوله علينا . كل ليله من الليالى ستحمل لنا وجوها جديدة . قال لى حب الدين : ان عشتنا ستتحول الى كازينو ، ساكون صاحبته . كلمات حب الدين توقظ الاحلام التى اماتها الانتظار والتردد « كازينو عمال شركة السوالم الكبرى » كوب الشاى قرشان ، كركديه : قرش ونصف ، المثلجات بكافة انواعها : ثلاثة قروش ، يضاف الى الاسعار ١٠ ٪ خدمة ، ان يكون هناك شكك . شكك ايه ، قال حب الدين ، دى الفلوس حا تبقى اكثر من الهم على القلب . الشوارع ستضاء . حتى الصباح . والناس لن تنام قبل الثانية صباحا ، سينشغل كل بحاله ، لن ينظر احد الى الآخر في الشوارع ، محلات ، منى فاتورة ، بقالة ، سينما ، مقاه ، مطاعم ، مكاتب ، اتوبيسات ، العمارات العالية . النزهة ساعة

العصارى ، التنزه فى الحدائق ، وقد نلتقى ذات مساء بعصمت ، عصمت دون سواه . الرجال اصابهم هوس ، كل هذا لم يحدث الا بعد حضور المهندس ، يتحدثون ، تعلو اصواتهم ، تخفت ، يصمتون ، يعودون الى المهندس ، دائما المهندس ، لم اره حتى الآن . لايهمنى . عدم حضور المهندس الى العشة ، أهانة لى ، غضبت ، شتمته اكثر من مرة ، قلت : انه لابد وان به عاهة . قد اكتشف ذلك . لم أهتم به . حاولت أن اتخيل صورته . وان كنت لا اعرف اسمه ، كل الناس لا تقول سوى المهندس. يقول لى حب الدين ، فى لحظات الصفاء : انت يابت وشك خير على السوالم كلها . لا اصدقه ، سوف يكون اسمى المعلمة ، معلمة المعلمات ، سلسبيلة ، سكر، سوسو ، عطيات ، سلسبيلة على الله مصر ، شارع محمد على ، السوالم بحيرة ، الترام القديم ، كركرة سيره فى الشـــارع ، الاهتزاز الذى يصيب البيوت من مروره البطىء ، الشارع الصاعد الى القلعة . هات خمسينة طافية . الحارات الضيقة ، البلاط المضلع القديم . افص تحت الضرس . والنبى احنا ما كنا عايشـين ، يتحدث الرجـل . اجلس خلف النصبة . فى آخر الليل ، سلسبيلة ، انا .. انا .. بحبك . حب الدين يريد أن يضحك على، ما يهمنى هو المهندس. احبته ؟ لست ادرى لم . القلب فاض بما فيه ، منذ سنوات . اريد ان ارى المهندس ، ان امسحه بنظرة احتقار وتشف . ســـيرتمى تحت القدمين ، ساعذبه ، بعدك يا عصمت لن اعرف رجالا آخرين ، زمن السفر قادم ، وما انتظره وما ابحث عنه ، لن اجده هنا . بل على ارض اخرى ، بلاد بعيدة . مدينة لم توجد بعد . ويقول لى حب الدين ، فى آخر الليل ..

ورداني : بكره الصبح ، تسلم ارضك يا ورداني ، بس ياحضرة العمدة ، معلهش يا ابنى ، المهندس ، النصف فدان ، الحكومة ، التسليم ، الهزيمة ، الجاموسة تتلوى فى البيت . فى الصباح ، احل المواشى ، امشى بها فى وسط حقول الناس فلا حقل لى . قال لى جارى : ان بقاء المواشى فى الزريبة يصيب اقدامها بأمراض كثيرة ، امشى على الجسر الطويل ، اتركها ترعى فى الحلفاء الشائكة اعود الى البيت ، يقول الناس بعد مرورى عليهم ساعة العصارى الحكاية ماجتش على دماغ حد الا هوه ، فى الليل ، تأتينى الازمة تركونى بمفردى امام المهندس ، انتهى الامر ، ما فائدة كل ما يقال

فى المركز . دخلت المستشفى . رآنى وكشف على اكثر من طبيب خلعت ملابسى . ارتديت ملابس المستـــشفى . نمت على سرير طرى . وقال لى الاطباء . بالحرف الواحد : عندك ربو ، حالة قديمة . اعود ، فى الصدر شك الابر ، اتفادى الزعل والعراك . يوم خروجى من المستشفى . قال الدكتور فى مرور الصباح : خروج . دون نفس الكلمة بالاحمر . على ذيل أوراق العلاج المعلقة فى سريرى ، لم اكن شفيت بعد ، قالوا لى ان من يصاب بهذا المرض . لا يشفى منه ابدا . بعد قليل ، كنت اقف خارج سور المستشفى ، سور حديدى مرتفع ، فى يدى بقجة فيها ملابس متسخة وبقايا اكل ، كان على ان أسلك اقرب الطرق الى السوالم ، سيرا على قدمى ، لم يكن معى ما اركب به حتى السوالم . بكره الصبح تسلم الارض يا وردانى . حاضر . فى يوم التسليم . قلت اننى مريض ، لم اقم من نومى . روحى انتى يابت . قالت زوجتى ان ابنى الصغير انفطر قلبه من العياط ، لم ارد . قالت : ربنـا يهدهم ، هو ما فيش حد قدهم ، لن اسلم . الحكومة ، المهندس ، العمدة .

عندما قلبوا باطن الارض ، اخرجوا مصارينها ، شعرت ان هناك شيئا ما انتهك عورتها ، انكشفعليها الغربا . قلت لزوجتى: ان تعد كيلة حب كى تبيعها فى السوق يوم الخميس ، كانت الارض جرحا ينزف فى القلب . العزاء اننى سأتسلم فى الاسبوع القادم ، ايجار النصف فدان لمدة سنة . طلبت من زوجتى ان تلم لسانها ، والا تذكر ذلك امام أى احد من اهل الحارة . ابو السعود ، اتى لى بالامس ، وقت الغروب ، ومال على :

– اعمل حسابك فى اتنين جنيه سلف من الفلوس ..
فأولاده وزوجته يمشون بدون ملابس
– فلوس ايه ؟
– اللى حا تقبضهم من المهندس
– يسمع منى ومنك ربنا
– ايجار الارض ، من المهندس ، ربنا يوسع عليك ..

صحت فيه : لن اقبل مليما ، ساشكو للعمدة والمركز، وسأرسل تلغرافا للرئيس ، وقلت لنفسى : ان الخير قد يكون مع المشروع ، وقررت ان ابيع النصف فدان بالف جنيـــه ، لتتكلم النـــاس : ساخاصم كل الناس ، لن ارمى السلام على احد ، سادير وجهى

ان قابلت اى رجل ، ساخاصم الجسر والعشة والجامع ودكان المعلم يعقوب ودوار العمدة . السوالم كلها . لا يطمر فيها العيش والملح وتهون عليهـــا العشرة . احلف . بتربة ابى ، والمصحف الشريف ، ان ارضى لن تبوح بسرها لاحد ، ولولا خوفى من الازمة ، لذهبت اليها فى الليل . وهناك ، ساعرف الامر كله ..

السوالم ــ بحيره ..

الخميس ٨ من اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

فى الصباح ، قمت من نومى ، غسلت وجهى ، حلقت ذقنى ، تناولت طعام الافطار ، واثناء شرب الشـــاى ، رحت افكر فيما ساقوم به خلال اليوم ، وادركت ان ما على القيام به كثير. ارتديت ملابسى ، امام الخيمة ، عرض على مساعدى ، بعض الخطوات التى تمت ، شرح لى احتمالات المستقبل ، نظرت الى الرســـومات والخرائط والجداول والـكتابات . كان ذهنى شاردا ، لم اعلق على ما قاله . طلبت منه ارجاء الامور حتى اعود من رحلتى . ما يهمنى ليس ابئر ولبترول ، بقدر ما يهمنى الناس ، وجودهم حياتهم ، ما يحلمون به ، ما يرجونه من الايام القادمة ، كان على ان اذهب الى شش الانعام ونكلا العنب وايتاى البارود. ساقابل كثيرا من الناس ، ساحدد معهم ما سنعمله . كان من المفروض ، ان يقوم المساعدون ، بهذه الخطوات ، فضلت القيام بها بنفسى . فى البداية ، كنت اريد أن اكون مشرفا على المشروع ، وامدتنى الشركة بعدد من الموظفين ، ووزعت بيننا الاعمال . بعد حضورى، وجدت فى السوالم ما لم اسمع عنه من قبل . قررت القيام بكل خطوات المشروع ، لفت نظرى ، ان الرجال ، بحكم تعودهم على المسافات الواسعة ، فان المســافات لا تعنى عنـدهم شيئا . ان انبساط الارض والحياة عندهم ، وانفساح السماء فى وجوههم ، افقدهم الاحساس بالمسافات . وكون الايام متشـــابهة الشكل والحوادث . جعل احساسهم بالزمن لا وجود له ، ما يحـدث اليوم ، هو ما حدث بالامس ، وهو الذى كان يحدث منذ سنوات، وفى مستقبل الايام لن يحدث سواه . وعندما يسافر احدهم الى البنادر القريبة ، ويعمل هناك ، وتجرى النقود بين يديه ، فانه يشترى ساعة يلفها حول معصمه . انه لا يشترى سوى الساعة ، وهى رمز بالغ الاهمية ، انه دخل مرحـلة يحسب فيهـا الوقت بالدقائق والساعات . ان البنادر مليئـــة بكل الاشياء ، غير انهم

جميعا لا يشترون سوى الساعات . وذلك اتفاق غريب بين كل الناس .

تسأل عن الضهرية ، الرجل الذى تسأله يقف مكانه . يضع يديه فى جيوبه ، يضيق عينيه ، يحسب ، ويقول لك : دى قرية خالص ، فركة كعب يعنى . الضهرية : على بعد ستة كيلومترات بالتمام والكمال . أجمع ملاحظاتى عن السوالم . لا ادرى لم أجمعها ، امام شكل الحياة اضعف ، اشعر اننى امام شىء عفوى وعظيم . قال لى ابى ، يوم أن تركت قريتنا النائية فى اقصى الجنوب : سافر ففى الاسفار سبع فوائد . لم افهم معنى الكلمة . الآن ، وبعد سنوات ، أدركت ما تعنيه . ان حياة الناس فى السوالم خصبة وغنية ومليئة بالوعود الرائعة . لقد قررت ان يكون وقت فراغى كله لعمل دراسات عن المنطقة .

سيكون هذا اليوم ، دراسات مبدئية ، عن المنطقة المحيطة بالسوالم ، لن أرجع الى كتب ، ولن أسمع من الناس ما يقولونه ، سأذهب بنفسى ، سأقابل من يعنيهم الامر ، سأتعرف بهم . بالامس ، تأكد لى ، بما يشبه اليقين ، ان علاقتى بهذه البلده ، لن تقتصر على البئر والبترول ، أدركت ان هناك علاقة ما ، صلة تربطنى بهذه الارض ، وانه تم بيننا اتصال بشكل او بآخر من قبل . سابدأ عملى فى الحفر يوم السبت القادم . ما يهمنى اليوم ، ان ادرس جملة امور ، طريقة الوصول الى المنطقة ، وسائل المواصلات وتكاليفها ، الطرق الصالحة ، امكانية انشاء طرق جديدة ، أو ترميم الموجود منها ، التموين من اعاشة ومواد خام ، حالة العمالة ، عدد العمال ، مستوى الاجور ، مدى استعداد العمال للعمل فى المشروع ، مكان اقرب انتاج زيتى او غازى . كل الدراسات والرسومات ، التى تمت ، كانت دراسات جيولوجية معملية ، توصلت فيها الى نوع الحفريات ، سمك الطبقات الرسوبية ، مدى وجود صخور خزانية وعمرها . كان التقرير يحتوى على البيانات الجيولوجية والاقتصادية التى امكن الحصول عليها . كان فيه تقييم للامكانيات البترولية فى المنطقة ، وتوصيات عن مناطق اخرى تستحق دراسات تفصيلية . كان على ان اكمل مع زملائى الدراسات النظرية ، على أن نقوم بعمل اللازم لحفر البئر الاختبارية .

فكرت قبل ان انام ، ليلة الامس ، وقلت لنفسى : حياة الناس

تتحول . قال مساعدى : انه من المناسب ان أؤلف كتابا عن الناس لم يبق امامنا سوى جمع مادة الكتاب خلال عملنا اليومى . عندما رأيت انسياب الاحلام فى العيون ليلة أن كنا على الجسر ، ادركت اننى قطعت منتصف الطريق . فى الليل ، بعد أن عدت من على الجسر ، همست للحوارى : من حق الناس ان يحلموا ، ذلك هو الأمل الاخير لهم . وقبل ذلك ، اخذت حب الدين معى ، سرت فى الحوارى ، زرنا جامع سيدى الغريب ، شاهدت المدرسة الابتدائية ، الجمعية التعاونية ، مكتب البريد ، منزل شيخ البلد ، الجرن الواسع ، المقابر ، وصلت الى اول الطريق الزراعى الآخر الموصل الى شنشت الانعام ، قال لى حب الدين : انه يخاف ان اسمع كلام الناس عنه .

— الناس هنا اصلها ، ما بتخليش حد فى حاله

حب الدين رجل اعزب ، وكل رجل اعزب فى هذه البيئات الضيقة . مكروه . ولا يطمئن اليه احد ، انه يشكل امام عيونهم وقوفا فى وجه الطبيعة ، وعدوانا مستمرا على حرمة بيوتهم ولو بالنظرات . قال حب الدين : يوجد فى السوالم عائلتان : فى السوالم قبلى عائلة الدفراوى ، ومنها عمدة السوالمين الآن ، وامين الاتحاد الاشتراكى ، وعائلة الخولى ، وهى من السوالم بحرى . كان منها العمدة فى الزمان القديم ، وبعد ان مات ، لم تقم لهم قائمة بعده ، واكتفى المركز بان عين عمدة واحدا له نائب فى السوالم بحرى . قال حب الدين : من اشهر العائلات فى الناحية ، عائلة ابو النبل فى الضهرية ، والمنيسى فى دمبسنا ، هناك عائلات اخرى . ادركت من حديثه ، فهمه للعائلة الكبيرة ، لابد وان تكون كثيرة العدد ، لا يقل افرادها عن مائة شخص ، ملك الاراضى شرط اساسى . احيانا يكون من العائلة فرع صغير ، رجل مال به الحال ، وعن طريق هذا الفرع الصغير ، تناسب العائلة الكبيرة ، عائلات صغيرة متطلعة وطموح . لذلك ، قال لى حب الدين : ان السوالم ، قبلى وبحرى ، عائلة واحدة ، وذلك عن طريق النسب ، قصة الحياة ، هى قصة الخلافات بين العائلتين الكبيرتين ، والبلد مكون العائلتين بلا زيادة ولا نقصان . لا توجد عائلة صغيرة ، او فرد ثالث لا تربطه علاقة مع عائلة الدفراوى او الخولى ، ولا يوجد موقف . قلت : ان حفر البئر يجب ان يتحول الى تجربة حياة لكل الناس ، تعنى وجودهم . لا يجب ان يتصور احد ، ان

ابترول هبط من السماء ، او اتى من عند الجن والعفاريت ، يجب ان يدركوا . انه نبع من حبات قلوبهم . من تحت جفون لعين . سلمت على الرجال ، دخلت بيوتهم . شربت الشاى الاسود على المصاطب الصغيرة معهم ، استمعت اليهم . يقولون حكايات ، كلمات تنسجها الشفاه تبلغ حد الروعة . فى أثناء سيرى فى الحوارى ، مع حب الدين ، وكان ظلام المساء . يمتص نور النهار ، الرجال يجلسون أمام ابواب بيوتهم . يتكلمون . سلمت على شيخ لخفر ، ذهبت الى ارض وردانى بعد استلامها ، عاينتها آثار وردانى فى كل مكان ، اشجار صغيرة زرعها ، تكعيبة عنب ، ساقية ، حديد يحدها من الجهات الاربع . مربط المواشى ، كوم انسباخ على راس الحقل . كان على ان اطلب المنادى . ان اكلفه ان يمر فى حوارى البلد . ويطلب من الناس الحضور يوم السبت . التاسعة صباحا ، حيث سيتم افتتاح المشروع بشكل رسمى ، فى حفل سيحضره كل الناس ، قالوا لى ان المنادى اسمه ابوالسعود، وانه رجل فكه ، فى الخمسين من عمره ، كان يعمل لحادا من قبل ثم احترف المناداة . لابد من لقاء آخر بينى وبين الناس ، ما اريده هو ان اقترب منهم اكثر ، اشعر بهم ويشعرون بى . يوم لقاء الجسر ، جلسوا حولى ، صمتوا ، استمعوا الى ، هزوا رءوسهم ، لم يتكلم احد منهم ، كان الصمت جرحا شوه طعم اللقاء فى الافواه اغلب الرجال فى هذه الايام من كل عام لا يعملون فى الضحى ، وتكون الشمس قد وضحت للعيون ، يجلسون على الجسر ، بعضهم ينام على الافريز الصغير ، بجانب سوره ، يغمض عينيه ويحلم ، وباقى الرجال ينظرون ناحية السماء الصافية ، يحركون اياديهم ، يطردون بها الذباب من فوق الوجوه ، وتبدو عيونهم المبتلة بالنعاس ، كانهم لم يصحون بعد من وسن الليلة السابقة ، أو انهم يستعدون لنوم الليلة القادمة . انهم يتثاءبون ، يفتحون افواههم على آخرها ، فتبدو اسنانهم الصدئة المتآكلة . يرفعون اياديهم فى الهواء ، يمدون اقدامهم حتى آخرها ، انهم يستنشقون رائحة ملل الايام الفارغة . اجلس الآن فى خيمة صغيرة ، يجلس امامى مساعدى فى الخيمة الاخرى ، السائقون والفنيون وباقى العمال ، انهم جميعا متذمرون من الحياة هنا ، يقولون سوء الحظ رمى بهم هنا ، ويتحسرون على كل ما فى البلاد الاخرى ، القاهرة الاسكندرية ، حيث النساء الجميلات ، السيارات ، الانوار ،

علامات الطريق ، الشوارع المغسولة بظلام الليل ، الاحمر والاخضر ، ممنوع انتظار السيارات ، مدرسة ، ممنوع استعمال آلات التنبيه الاعلانات ، العشاق فى الشوارع المظلمة ، لم احاول ان اناقشهم . فى لحظة الغسق من كل يوم ، يكتبون رسائل صغيرة ، يرسلونها الى الاهل والاحباب ، مقربين يوم اللقاء ، ضاربين له موعدا ، الموعد سيتحول الى شيء مؤجل ، وسيظل مؤجلا الى غير ما حد. مشروعى يسير حتى الآن بشكل حسن . فى ليلة الامس حلمت بالدخان الازرق فى السماء ، المصابيح العالية ، الناس السعداء ، قرات خبرا فى جريدة معلقة فى الفضاء عن تسريح جيوش العالم وتحويل الحدود بين الدول الى خطوط وهمية لا وجود لها الا على الخرائط وكان الذئب يداعب الحمل والاسد يجلس وسط الرجال وكانت الشوارع نظيفة لم يكن فى الاتوبيس محصل . صندوق صغير يضع فيه الراكب الاجرة ، الجرائد والمجلات على الارصفة الناس جميعا امناء ، يقف الرجل ، يأخذ ما يريده ، يخرج ثمنه ويضعه على الارض ، لم ار اقسام بوليس ، ولا محاكم ، ولا قضاه ولا حاكم ولا محكوم ولا مسجون ، لم يكن هناك متسول او محروم او باك ، كل ما يطلبه الانسان فى متناول يده ، نظرات الرجل حالمة وادعة . لم تبق آية مشاكل، لا احد فى السوالم ينتظر مجيء النبى الجديد ، وعلى الحيطان عبارات عن مصر المستقبل ، السعادة ، الاخوة ، المساواة . لا احد يملك ، الغنى ، الزهد .

فى الصباح ، لم احك ماشاهدته لاحد ، اعتبرت ان ما رايته سرى الخاص ، فى هداة الليل ، اكتب على ضوء مصباح. السوالم كلها تنام ، مكان واحد ينبعث منه نور، عشة سلسبيلة ، انها آخر ومضة نور تنطفيء فى ليل السوالم ، بعد انطفاء نور العشة ، ادرك ان كل شيء نام اخيرا ، الرجال يعودون الى بيوتهم بعد سهر كل ليلة . اشعر ، وارجوكم الا تضحكوا منى ، اننى قد تزوجت السوالم ، قبلى وبحرى ، واننى قلت لها ذات مساء احبك ، وكنت صادقا ، كان القلب ظامئا والطريق مجدبا ومكان اللقاء متاهة. الشوق بعيد ، بعيد. وقالت لى السوالم ، وشعرها يغطى الجسد الذى يبدو بياضه من خلف الظلام ، انا ايضا احبك ، اقول الآن النعيم ليس شيئا فى العالم الآخر ، حيث جنات عدن والانهار والملائكة ، النعيم يجب ان يكون على الارض ، وان لم يكن موجودا فمهمتنا ان نوجده ، نخلقه ، فى السوالم ، فى الارض

والبيوت : فى قيعان نفوس الناس البسطاء ، يكمن الجواب على الحيرة والتساؤلات والاتهامات اليومية ومن يبتعد عن هذا البلد ، فلقد قام برحلة خرافية ، بلا نقطة ابتداء وبلا أمل فى الوصول الى مكان ما .

قابلت رئيس مجلس القرية فى شنشت الانعام . سلم على ، رحب بى ، جلست معه طويلا ، حدثنى عن متاعب منصبه ، شربت القهوة ، ان السوالم تتبع مجلس قرية شنشت الانعام ، عرضت عليه افكارى ومشروعى ، حاول ان يعترض ، لم يرجع الى رؤسائه فى مجلس المدينة ، قلت له اننى قمت بعمل اللازم قبل حضورى وعدنى بانه سيكون معى . قال لى ان عدم الفهم هو اس البلايا فى هذه البلاد ، الرجال لا يفهمون حقيقة ما يحدث للبلد . التعامل مع الناس شديد الصعوبة . قال الرجل وهو يقف : اى محاولة للاصلاح لا قيمة لها ما لم يتعلم هؤلاء الناس القراءة والكتابة اولا . كرر . القراءة والكتابة قبل كل شىء . اكمل : الايام القادمة ستحمل للبلاد الخير . قال انه يتمنى لابنه الذى يتعلم فى مصر . أن يكون مثلى . قمت معه ، شاهدت الوحدة المجمعة ، زرت المدرسة والمجموعة الصحية والمركز الاجتماعى . ذهبت الى مركز ايتاى البارود ، فى المركز قابلت اكثر من مسئول : قال لى الشاويش وانا خارج من باب المركز : ان الحال امان . ابناء الليل اختفوا ، الرجال فى هذا الزمان نادرون ، طلب الى ان اطمئن لكل الناس . لقمة العيش قهرتهم . الناس لاتريد الا ان تعيش فى سلام . قابلت مفتش صحة المركز ، طلبت منه أن يتعاون معى ، ابدى استعداده . فى طريق عودتى بالسيارة . على الطريق الزراعى : كانت سحب الغبار ترتفع وتدور حول السيارة وكنت افكر فى كل الذين قابلتهم ، ادركت حقيقة هامة : قراتها فى حياة السوالم ، وتاكدت لى بعد هذه المقابلات الحياة معمرة . القيم والتقاليد رسخت ، وفهم الناس من الصعب احداث تغيير فيه. مجرد تجاوب الناس معى معجزة . القدم اكسب اكثر الاشياء دمامة وقبحا والفة جعلتها تبدو رائعة فى العيون. الناس جميعا . مغروزون فى طين الارض حتى رقابهم ، وعيونهم المثبتة فى الارض تدور فى رهبة ؛ فى كل ناحية. الاختيار صعب . فى صعوبة الموت نفسه . الحياة بشكلها الواحد ، والوجود بثباته : يثير فى نفسى الفزع . نظرت الى الطريق والحقول والناس ؛ ادركت ان ما يجول

بذهنى يعد اكتشافا ، قلت ان تدوين كتاب عن الحياة هنا امر بالغ الاهمية .

منذ يومين . قال لى حب الدين . وهو يودعنى ، عند باب الخيمة ، وكنت أستعد للنوم : ان الفلاحين يقلبون الارض فى هذه الايام ، تمهيدا لزراعتها بعد ايام الجفاف وأن قلب الارض معناه أن يحلم الناس بالليل . قال لى : اننى قد أحلم . ولذا فانه من المستحسن أن أبقى فى الخيمة ، مصباحا مضاء أثناء النوم . قال حب الدين : أهل البلد يحلمون الآن أحلاما سعيدة . فشكرته . استدار حب الدين ، اشار بيده اليمنى الى البلد كلها :

— اهم كلهم بيحلموا

قلت له :

— تصبح على خير

وقلت لنفسى : كلنا نحلم فى نهاية الامر

آخر الليل ، فى عشة سلسبيله

ينصرف الرجال ، يتمنى كل منهم للآخرين ليلة سعيدة « تصبحون على خير » يردون يقولون كلمات منطفئة ، ينهون بها سهرهم ، يذهب كل رجل الى منزله . لسوالم تكتسب معنى جديدا بالنسبة للرجال ، القمر فى السماء العالية ، يبدو مشطورا ، نصفه فقط ، يرسل ضياءه على البلد والرجال ، وفى الحوارى الواسعة ، يبدو أن الاضواء الشاحبة التى يلقيها القمر هى التى تملأ خيال الناس بحكايات عن العفاريت والجن . وفى الباحات ، اشجار عجوزة ، ترقد ظلالها تحت اقدامها فى سكون . وفى الليالى ، لا يبقى للسائرين فى الظلام ، سوى القشعريرة ملء الجسد والقلب والعقل ، صلوات الاستغفار والاستعاذة على طرف اللسان ، ان السكون الرمادى الموحش يصيب الرجال بخوف لايبعث الى قلوبهم بالبرودة والانكماش ، خوف من نوع آخر حار ملتهب ، مرتبط بحكايات سمعوها رهم صغار فى ليالى الشتاء الطويلة ، عن العفاريت وابناء الجان ، وقد يحلو للرجل ان يذهب الى حقله ، وعندما يمر على آخر بيوت البلد ، تبدو له أشعة القمر الفضية ، تنساح على السهول الواسعة ، وتمتد المسافات ويبتعد خط الافق ، وفى البيوت النائمة ، التى اختلطت ببعضها ، تتاهت معالمها ، وتحولت البلدة كلها الى كتلة من السكون الموحش ديك كبير فى قفصه ، خدعه ضوء القمر ، ونسمة هواء باردة ، فانطلق يصيح ، معلنا ميلاد يوم جديد ، ناشرا الاضطراب والحركة والصياح بين باقى ديكة البلد الاخرى . آخر الليل فى عشة سلسبيلة ، معناه أن ينصرف آخر زبون ، ان يقول الرجال كل ما عندهم ، ان يلعبوا الورق ، ويدخنوا ويشربوا الشاى ، ثم يرين عليهم صمت شفيف ، ولا يبقى امامهم سوى ان ينصرف كل لحاله .

حب الدين وسلسبيلة بمفردهما ، ستبقى هذه اللحظة الصامتة المشحونة سرا خاصا بهما . ينصرف الرجال ، ويجد نفسه بمفرده

معها يجيش وجدانه بأشياء غريبة ، وهما فى العشة . اثناء جمع اشيائهما ، البراد والاكواب ، الراديو ، الجوزة ، الطبلية . الورق . يدلق مياه باردة على النار المشتعلة ، يلم الحصر . يتحاسب حب الدين مع سلسبيلة ، يحسبان ما عليهما ، ما لهما . يدونان الشكك فى الدفتر ، تعطيه النقود التى معها ، تطلب منه أن يذهب فى الصباح الى ايتاى البارود لشراء المونة ، تعدد له ما تحتاجه ، وفى آخر حديثها : تطلب منه بحروف لينه ممطوطة . ان يشترى لها اشياء خاصة بها ، اشياء لا تباع فى السوالم . ولا تسمع عنها النساء .. احمر شفاه ، بودرة ، قمصان نوم نايلون ، سوتيان ، وتوصيه ، وتحلفه برحمة من ماتوا : أن يشترى لها هذه الطلبات بعناية ، وان يختارها بذوقه ، وهى تثق به .

حب الدين يسير فى حوارى البلد ، سلسبيلة تحمل على راسها قفصا صغيرا ، وضعت به العدة ، وفى سيرهما ، فى حواررى البلد ، تنبح الكلاب ، فى الباحات وعلى رءوس الحارات ، يسألهما الخفر . من هناك؟ يمران عليهم ، يرد : انا حب الدين . الخفر جالسون . بنادقهم بجوارهم مسنودة على الحائط ، انهم يتحدثون ويدخنون . فى الليلة الاولى ، اصطدم ثدياها النافرين بعظام صدره ضغطت عليه ، احتوى ليونة صدرها ودفئه بين ساعديه ، تحولت الاشياء القريبة من عينيه الى بياض فى لون الحليب ، يملأ كفه بغدائر الشعر الليلية ، يمسك يديها بين يديه ، يسيران فى الحجرة

— تتجوزنى ياحب ..

شىء ما ، يبدد بخار الرغبة فى يافوخه ، يفيق ، يحس بدفئها قريبا منه ، يتوقف ، تنزلق الكلمات من طرف اللسان . تنام رموشها على العيون الواسعة .

— بينى وبينك لا ، انما قدام الناس دا لازم يحصل .

تتحسس ملامح وجهه المجهدة بأصابع يدها الناعمة . تقف ، تمشى امامه ، وحينما تمشى ، فانه يدرك ، ان قدميها تدب على رموش العين ، وتدوس فى حبات القلب فتدهسهما بما فيها ، ولا يوجد فيها سوى بقايا افراح عجوز صدئة .

— تتجوزنى ياواد ياحب ..

تسكره الكلمات ، تقترب منه ، يزداد ارتفاع السقف ،

تبتعد الجدران ، ويشعر حب الدين باحساس ساخن يحتويه بداخله .

ــ ا .. ت .. ج .. و .. ز . ك

قالت له سلسبيلة وهما يسيران فى حوارى البلد :

ــ دا حرام ، احنا آخر ناس نروح

لم يرد عليها . جال بخاطره احساس بأن الله قد تاب عليهما ، عما قريب يعمل بالنهار مثل كل الناس . وقد يستطيع مواجهة نفسه . منذ سنوات خرج من السوالم شاب صغير خجول ، يهيم بعيدا عن الناس ، سافر الى دمنهور . كان يطلب العلم . الرجال والنساء الذين شاهدوا الشاب فى الصباح البعيد ، ما زالوا يذكرون . ان ارصفة الجسر . كانت مبتلة . وان احتمال مجىء سيارات كان ضعيفا . بسبب الشتاء . فى الاجازات . كان الصبى الصغير . يعود الى بلده . يصافح الرجال . يقبله الصبية . يجلس على الجسر طويلا . يقرأ ويفكر ونادرا ما كان يتكلم . بعد عامين عاد من دمنهور . عاش فى السوالم . كانت الحياة بالنسبة له . نوعا من الانتظار المستمر . المعجزة قد تحدث . فى الصباح ينتظر لحفلة العصارى . ووقت الغسق يتمشى بمفرده على الجسر . يجلس على افريزه فى الليل . يدور فى حوارى البلد . ويقف امام دكان المعلم يعقوب ، ثم يعود الى منزله . الليل بالنسبة له رحلة طويلة . يقظة حارقة . يتقلب . يدور حول نفسه . ينقذه من رحلته صياح ديك فى منزلهم . فيدرك انه عائد من رحلته ، القوافل ظمأى . وينبوع الماء فى السماء التاسعة . الاهالى تدرك انه فشل فى تعليمه . قالوا عنه . ذات مساء . انه مثل التى رقصت على السلم ، بخته مايل : من ظلم ابيه الناس . الله يمهل ولا يهمل . الفقراء اكدوا ان والده سيترك له ارضا . وفى هذا الكفاية ..

شاهدها لاول مرة فى ايتاى البارود ، اقترب منها ، اصطدمت نظراته برموش العين السوداء . ونسجت الشفاه كلمات عذبة غير مسموعة . سكر ، آه لو استطعنا ان نمسك النجوم بأيدينا المشوهة الاصابع ، او نصنع بها من حبات العيون والقلوب اكثر العقود حلاوة ، او تغسل بدموع القلب كل الاحزان . سلسبيلة لا اضع نظارة على العينين ، ولا ارتدى بدلة انيقة ، كما يفعل

اهل البندر ، غير انى استطيع احيانا ، ان ارص الكلمات . ملساء ناعمة ، ويكون فى الاعماق عندئذ ، شىء هادر ، فى عنف حركة الاشجار المعجوزة فى الحقول وقت هبوب الرياح .

فتحت سلسبيلة الباب ، دخلت ، اشعلت المصباح الصغير . وضعت « القوالح » فى المنقد ، دلقت عليها الجاز ، اشعلت النار . راحت ترتب المنزل ، خلعت شبشبها ، احضرت البخور ، وضعته فى النار . عبق البيت برائحة محببة الى نفس حب الدين ، تذكره بآخر الليل . امسكت بذيل جلبابها ، رفعته ، خلعته ، اصبحت امامه بقميص النوم ، ترك جسمه يتهاوى الى الارض ، جلس فى احد اركان الحجرة مستندا الى الحائط ، اغمض عينيه نصف اغماضة . وفى الخارج ، الف الف عين تحدق فى منزله ، جفت بها المضاجع ، تركت نومها ، لدى سماعها صوت بابه وهو يفتح ، الف الف اذن تسمع اقل حركة ، حتى عيون السواقى ، واوراق الاشجار ، ونصف القمر المشطور ، خيمة الضوء الشفيف تغطى البلد ، تعرف حكايته ، تحسده على سلسبيلة ، تذهب الى دوار العمدة ، تشى به ، تقول ما تشاء قوله ، ترسل الى المركز الشكاوى ، تجلس بجوار الشيخ محمود بعد صلاة العشاء . تطلب منه ان يقوم المعوج ، ويرشد الضال .

ــ واد ياحب ، مالك الليلة ؟

جالت بخاطره رغبة ، كان يريد ان يسمع اسمها كاملا . سلسبيلة على الله ، سلسبيلة على الله . تذكر الماء والظمأ . والقوافل العطشى ، وكراهية اهل البلد له ، ونظرات حبها كأول وآخر امل له فى الحياة .

ــ واد ياحب ، انا سلسبيلة ..

اطل عليه عصمت فهمى النجعاوى ، أصدق آمال العمر ، الامان والعمل والخير ، ذات مساء . قال له المعلم يعقوب : ما من احد يضمن الدنيا ، يجب ان تتغدى بها قبل ان تتعشى بك . قال له : فى الارض قيود تربطه بالبلد . الدنيا مليئة بالاشياء الجميلة ، لقاؤه بالمعلم يعقوب هو السبب ، لا يذكر متى تم ذلك . يذكر انه قال له : ان بيع الارض من اسهل الامور ، وقال له المعلم يعقوب ، وهو يأخذ منه الارض قطعة ، قطعة : احب كارهك . بارك لاعنيك ، اذا ضربك احد على خدك الايمن فادر له الايسر . وفى حجرته الصغيرة ، شرب لاول مرة ، وكان ما سمعه منه

يومها . ما دامت اهدافنا شريفة . فان كل ما نقوم به مشروع . ولا احد من حقه ان يتدخل فى شئوننا . قال له : ان المصريين لم ياخذوا من الارض سوى الشقاء . اكد له المعلم يعقوب : انه يحبه لحد الجنون ، وانه ارجل اهل السوالم . حب الدين يسمع كلاما جديدا . فشلت فى تعليمى يا معلم ، وطعم الفشل امر من العلقم ، الشماتة تكوى القلب والمستقبل مظلم . رد عليه المعلم يعقوب : العظماء دائما يفشلون فى البداية ، وانه لا يجب عليه ان يهتم بمثل هذه الامور .

عندما وقف حب الدين يوم السوق ، على الجسر ، يبيع اول قطعة من ارضه للمعلم يعقوب . لم يقل له احد ان فى باطن ارض السوالم يكمن السر والخلاص ومعنى الحياة ، استسهل بيع الارض ، وفى كل مرة ، كان يوقع عقد بيع ابتدائى ، كان يتذكر والده ، ويتذكر ان الناس قالت عنه ، انه ظالم ، وان هذه الارض اتت له بلا متاعب . وبنفس الطريقة ، فان الارض تضيع . وفى كل مرة . كانت صورة ابيه فى ذهنه تزداد تباعدا ، ويحيط بملامحها ضباب جديد . اخوته الذين هاجروا الى البنادر . يرسلون له الرسائل. خطابات تحمل اختاما سوداء ، الارض التى تبيع فيها . ليست ملكا لك وحدك . اوقف كل ما قمت به ، اى اجراء باطل. سنقاضيك . احترم ذكرى والدك . ليس من حقك ولا من حقنا ان تتصرف فى شبر واحد من الارض .

ان سلسبيله تقف نصف عارية . امام حب الدين . بياض الجسد يبدو شديد الوضوح من تحت القميص الشفاف . وعلى الكتف . كتل الشعر الليلية . وفى العيون وسن لذيذ . سلسبيله تمد يدها اليه . وفى يدها الاخرى طبلة صغيرة .

— واحده ونص ياحب ..

ترقص ، تحيى جمهورا لايراه سواها ، تستعيد ليالى مضت ولن تعود ، وتحادث اناسا تراهم فى جو الفرقة . تغنى كلمات عن النصيب وزمن السفر والترحال . وتقول وقد اسكرها الليل. رايتها فى اهل البلد .

ذات مساء . استدعى العمدة حب الدين الى دواره ، طلب منه ان يطرد الخاطئة التى احضرها من البنادر . الناس عائلة واحدة اهل . ووجود هذه المراة خطر . الرجال اكلت وجهه والالسنة لا ترحم . انه يحدثه الآن بالحسنى . كذب . اخبره انه تزوجها

على سنة الله ورسوله ، عقد القران فى طنطا ، فى مسجد السيد احمد البدوى ، وهو راض عنها ، اخرج العمدة من جيبه عريضة كبيرة ، عليها آلاف التوقيعات . لذا فنحن نفوض الامر لك ، فى هذه المصيبة التى ابتلانا الله بها ، فانت ولى الامر فينا. ان مجرد وجود هذه الفاسقة فى بلدنا ، دلالة غضب الله علينا ، واقبلوا التحية . قال للعمدة يومها ، سلسبيله هى آخر ما يملكه ، الرسمال الباقى، وان من ينظر اليها ، سيفتح بطنه بمطواةحادة . لقد ادرك ان البيت لم يكن يمنحه الامان ، كان يذكره بانه ضال. وعلى اجنحة الليل ، كانت تسبح المخاوف والاحزان ، وعندما يموت الليل ، يرسو الذبول والاحلام المحنطة والامانى المذبوحة ، تبقى معلقة فى عينيه وقلبه حياة لن يحياها ابدا .

تستدير عطيات ، تبدو ثنية الفخذ واضحة ، تسير بغنج ودلال . يشم رائحتها ، ويتذكر السهر الحارق فى لياليه الاولى معها . سكر ، عطيات ، جسدك ينبوع الحزن ومتاهة الشوق واخدود الرغبات المحمومة . انت يا سلسبيله الامل . تقبل عليه ، يعلن الجسد عن شكله وتفجره ، من خلال الملابس الشفافة .

حب الدين ياخذ الطبلة من سلسبيله ، وسلسبيله تقف امامه ، وقد لفت حول وسطها لاسته البيضاء ، كى ترقص له وحده . انها تخفى فى صحارة ملابسها بدلة رقص قديمة ، لفتها بعناية . داخل جريدة ، اقسمت بانها لن تلبسها الا فى ليلة الدخلة ، يوم ان تتحقق الاحلام ، ليلة ان يتزوجها حب الدين ، يحبها لدرجة الجنون ، انها كل ما فى دنياه . وبعد الحصول على الوظيفة الجديدة ، سيتزوج فورا . والا فمرحى يا ليالى الفرسان المسحورين ، حيث السفر والترحال . صدقته ، قالت انها تحبه، لم تكن صادقة فى كلامها ، كان القلب تملأ بذكرى عصمت وحارة باب الوداع والشاب المنتحر حب الدين يضع الطبلة بجواره ، يمد قدميه ، ويتذوق على مهل ، حزن السنين القديمة . سلسبيله تمشى الآن فى الحجرة ، ورائحة احتراق البخور تزحم انفه ، ورموش حب الدين تنام على عينيه . وفى اعماقه تنتشر اخاديد المرارة . فىالليلة الثانية ، اقتربت منه ، سكر، ووجدغابة الجوزة بين شفتيه .

— شد ، شد ياواد ياحب ..

شد كما قالت له ، واستمر ، وطقطقت النار فى الحجرة ، فتح

فمه عن آخره ، وخرجت كتلة من الدخان الازرق الغامق ، احس ببخار دافىء يصعد الى يافوخه ؛ ونبتت بين أصابع قدميه حبات عرق دافئة ووهنت دقات القلب ، لم يعد يشعر بها ، وفقد السيطرة على أطراف جسمه . الغابة تندس بين الشفتين مرة اخرى ، اطبقت الشفتان على الغابة بعصبية ، خرج الدخان من فتحتى منخاريه ، صعد البخار الساخن ، انفكت عقدة اللسان ، زاغت النظرات ، واحس ان جسمه ينصهر ويعود الى أصوله الاولى ، شعر برغبة فى الضحك ، فاستلقى على ظهره وضحك ، اهتز الجسم كله من شدة الضحك . قامت سلسبيلة ، وقفت ،

بدت له فى نومته ، مساحة هائلة من اللحم الابيض ، بدى له صدرها العريض ، يسد الحجرة ، سارت ، تحركت فى الحجرة . وقال لنفسه : يوجد هنا كنز الكنوز ، وبين طيات اللحم يكمن السر ، الدنيا لم تخلق الا للراحة والنوم والاسترخاء . العمل جنون وعبودية ، وقرر بينه وبين نفسه الا يقوم من هنا ابدا ، وان يظل هكذا ، حتى آخر أيام العمر ، حتى آخر أيام العمر .

ـ تعالى جنبى ياسكر ..

لن ترد عليه ، لن تقترب منه . السكر والرقص والتوهان وتداخل الاشياء ، شواطىء أمان لن يصلا اليها الآن . انها تريد أن ترقص ، ان تطير ، ان تدور فى الحجرة ، تدوس على الارض ، وتحمل السماء فوق الرأس ، وبعد أن تحيى الناس ، وتسمع كلمات الاعجاب ، تأتى اليه ، تمنحه كل مايطلبه . شعرت سلسبيله بالاهانة ونظرت اليه بدهشة ، كانت تريد أن تسمع غناءه ، كلماته الموشاة بالوجد ، المبللة بالوصال . وتنام فى آخر الليل على وسادة الصوت الحنون . حب الدين يشير اليها ، يطلب منها أن تجلس بجواره ، ان تنام ، ان يغوص رأسه الملتهب فى لحم فخذها الابيض ، أن تنام يدها البضة على جبهته الساخنة ، ويسمع منها حكايات آخر الليل .

ـ يا سلسبيله ..

سلسبيله كما هى ، وهو لا يجد فى نهاية الامر سوى نفسه ، انه يريدها بكل قطرة من دمه ، بكل نفحة هواء ساخنة فى أعماقه يشعر بضعف يسرى فى نفسه . ويوم ان عرض عليها أن تعيش معه فى البلد ، قبلت ، منحته كل ما قضى العمر يبحث عنه ، وقال لها : انت احلى من على الارض ؛ الله لم يخلق الجمال الا ليكون

احدى صفاتك ، ردت عليه : وانتَ اعظم رجل قابلته فى حياتى .

ـ مالك ياحب

رشف بلسانه طعم الوفاء ، وشم رائحتها . الكلاب تنبح فى الخارج نباحا متصلا .. احتضنها .

ـ الكلاب ماسكه الليلة ، لازم فيه حاجه حا تحصل

أفهمها ان الكلاب ترى ما لاتراه نحن وان الله قد اختار لها ذلك لانها لا تستطيع أن تبوح بالسر . قالت له سلسبيله انها معه مهما حدث

ـ سلسبيلة .

ـ حب .

كان يود ان يسالها ، هل ملت معاشرته ، هل سيعود ذات يوم ليجدها قد ذهبت (وقد يحدث هذا) . كان يدرك ان نصف كلامها كذب ، ولكنه كان يقنع نفسه انها الصدق نفسه . وهو معها ، كان يحس بخوف ، كان يود أن يدخل بداخلها ، حتى يحتمى بها . وكانت كفاها تدوران على ظهره ، تمسح عنه الاكاذيب والخوف والقهر ، كفاها لا تغطيان ظهره كله ، هناك مساحة عارية ، معرضة للضرب والطعنات وشك الابر وقرص الاصابع . كان احيانا يغرق فى عرقه ، وكان يحاول أن يبتعد ، وهى أسفله ، ينظر الى الامر ، فيجد ان تحته فراغا عميقا ، وكان يخاف السقوط . فكل شىء ، حتى حبات العرق على الجسد العارى تشير الى أسفل . وقال ان عدم وجود الرغبة فى شىء ما ، هى خير وسيلة لامتلاكه . وان الخوف من الفقر ، هو تسليم اكيد بأننا نفقد العمر فى معارك صغيرة ، سمع ما يقوله الودع ، وقرأ بخته ، وقال لنفسه :

ـ ليرحمنا الله ، فليس لنا الآن سواه .

حب الدين يقف ، يفتح عينيه عن آخرهما ، يخلع بقايا ملابسه . ويتجه مع سلسبيله الى الحجرة الداخلية ، واضعا يده على ظهرها ، وهى تنظر اليه ، وأصابعها البيضاء الصغيرة ، تجوس خلال شعر صدره الغزير .

ـ الا ابوكى كان اسمه ايه يابت .

لا ترد عليه ، تجلس ، تبتسم له ، تبدو البسمة كوعد بدنيا لم يعشها بعد ، وسكر بعيدة نائية ، وليطلق سهامه وينطلق ، فهى تبتعد عنه وهو يجرى ويجرى .

فى الايام الاخيرة ، كان يلتصق بها ، وعندما يكتشف جزءا من

جسمه بعيدا عنها ، كان يفزع ، ويقترب من احضانها اكثر يمسح بلسانه يدها وصدرها ، ويمرغ عينيه فى جسمها . لم يكن يدرك أن الحب العنيف معناه ان العلاقة تعيش نوعا من التحول الى شكل آخر. كان يخاف من الكذب والقهر. انه يطلب نوعا جديدا من المياه يغسل به الحياة من حوله ، قالوا له ، هذا النوع من المياه ، غير موجود ، وقد يطلع من باطن الارض ، او يهبط من السماء فجاة دون موعد .

كانت ايامه معفرة الجبين ، مشروخة ..

على الطريق ، نقاط العرق ، علامات القدم الحلو ترشده . وفى الخارج ، كل البلد تعرف ما يحدث ، اوراق الشجر ، مياه الترعة ، مناقير الجنادب ، عيون الحيوانات النائمة فى الحظائر ، فوهات بنادق الخفراء المسنودة على الخوائط ياكلها الصدأ . يتذكر وعد الزواج ، ويطلب منها بفم غير فمه ، أن تتعرى « كما ولدتك امك بالتمام » تقوم ، تخلع قميصها ، تفك شعرها الاسود . حب الدين يقترب من سلسبيله ، وفى سيره البطىء اليها ، فان ظله يستطيل خلفه ، راسما على أرض الحجرة خطا متعرجا كطريق الثعبان .

ومهما فعل ، فانه لا يضاجع فى نهاية الامر ، سوى نفسه .

قال المهندس : اما بخصوص الاخ للوم ، نظرا لخبراته السابقة حانستعين به فى مشروعنا ، رئيس شئون العاملين ، بصفة مؤقتة ، يهمنا اساسا الكفاءات بصرف النظر عن اى اعتبارات ، عرف المهندس من الانفار ، انه لن يتعاون معه أحد الا عن طريق للوم . الايام بلا عمل ، لايوجد فى البلد نفر واحد غير مدان للملوم ، ولا يستطيع العمل الا عن طريقه .

فى كل مساء ، يجلس للوم ، على المصطبة ، امام منزله ، يحصى فى ذهنه الانفار الذين يتعامل معهم . يعرفهم فردا فردا ، يحصى من يتعامل معهم من اصحاب الاعمال والاراضى ، للوم نادرا ما يدون اسماء فى اوراق معه ، عقله دفتر . ما رآه للوم فى حياته علمه الكثير ، واهم ما تعلمه الا ينسى ابدا .

فى البداية . كان عمله صفيرا ، نفرا او نفرين ، يؤجرهم اصحاب الاراضى ، الذين لا يعملون بأيديهم فى حقولهم . سماه الناس ، الخولى للوم . بالليل ، يمر على الانفار « الرجل بعشرة قروش ، والصبى بستة ، والقبض آخر الاسبوع » . اهالى السوالم يتذكرون منظره ايامها : كان شابا خجولا ، لا يدخن ، فى يده خيزرانة ، يضع يده اليمنى فى فتحة جلبابه الزفير ، يسير فى الحوارى ، يقف امام ابواب البيوت ، يقول : يا ساتر ، يخرج طفل صغير ، يسأله عن ابيه ، يخرج من الداخل صاحب البيت ، يقول : اسم صاحب الحقل الذى سيعمل فيه ، وميعاد العمل ، يطلب منه ان ياخذ معه طعام الغداء بدلا من الرجوع الى البلد وقت القيلولة . أحيانا يطلب منه الانفار ، جزءا من الاجرة ، فيعطيهم مايطلبونه ، اللقاء امام مسجد سيدى الغريب فى الصباح ، البركة فى البكور. قبل ان تشرق الشمس ، يلتقى للوم مع الانفار ، يتجهون الى مكان العمل . فى الحقل يستبدلون ملابسهم بملابس الشغل ، يلفون الاكل بالملابس ، ويضعونها فوق افرع الاشجار ، ينتشرون فى الحقول الواسعة ، يقف للوم وراءهم ، يلاحظ عملهم ، فى آخر النهار يعودون الى البلد

الناس ما زالت تذكر نجاح للوم السريع ، يلفت نظرهم ، ملابسه النظيفة ، الساعة التى يلفها حول معصمه ، الجزمه ام أستك ، الشراب الاحمر ، الطاقيه الصوف التى اشتراها من المحلة الكبرى ، الصديرى الشاهى المعتبر ، تهديده الدائم لكل من يختلف معه ، كلامه بالفم المليان ، يد للوم ضاعت منها الشقوق ، فالعز والعنى له علامات يعرفها الناس . النساء تقول، تعليقا على غنى للوم السريع : كل شيء قسمه ونصيب ، وانه لا احد يعرف كيف تسير أمور الحياة .

قال ورداني : للوم لم يرث من والده شبر ارض ، كل ماكانت تملكه العائلة ، مساحة منزلهم الصغير ، ومتر فى متر مبنى فيها القبر الذى دفن فيه ابوه . مات ابوه ، وهو يتمنى أن يفتح الله عليهم ، بقطعة ارض ، فالذى يعيش فى السوالم ، دون أن يملك ارضا ، يعيش ويموت ، وهو مقطوع الجذور ، محروم من شيء يحصل عليه الآخرون . الزمان لم يجد عليهم بما يطلبونه ، وقالت أمه : لنا الله .

الحال تسير بلملوم ، وعندما يسأله أحد ، يقول أن الامور ماشيه والحمد لله ، الآتى مثل المنصرف ، وانه يعيش على الكفاف ، ويقول انه راض بعمله ، وبكل ما تاتي به الايام والليالى ، حسده الناس ، ان المزارعين فى البلدان الاخرى يسمعون عن للوم ، فى مواسم العمل ، نقاوة الدودة ، او زراعة القطن ، جنى المحصول، تقليع البطاطس ، يهل على السوالم ، رجال عليهم القيمة ، يركبون الركائب المطهمة ، انهم من بلاد اخرى . على الجسر ، يسالون عن منزل للوم ، يقوم ابو السعود ، لا يتركهم ، يذهب بهم الى منزل للوم ، على المصطبة ، يجلس معهم للوم ، الناس تلاحظ انجسمه قد امتلأ قليلا ، انها ايام الخير . يرحب بالرجال ، يسألهم عن الصحة والحال ، يتمنى لهم محصولا وافرا ، يقول لهم : انخيرهم خير له ؛ يعقد معهم الصفقات ، يبدأ الفصال . تعلو الاصوات ، تخفت ، يقراون الفاتحة . يرفض للوم أن يكتب معهم اى اوراق. يقول لهم : ان الانسان يربط من لسانه ، كلام الرجاله اهم من اى ورق مكتوب . يشربون الشاى ، يرص لهم ابو السعود المعسل، يدور عليهم بالجوزة ، يحضر لهم المياه الباردة فى القلل المبلة من الخارج ، يقومون ، يعزم عليهم بالعشاء والمبيت عنده ، يعتذرون بأن وراءهم اعمالا كثيرة بسبب الحصاد . يقولون له : ان مقابلته

وصدقه فى العمل ، اهم من اى عزومة . ينتهى اللقاء ، يسمع اهالى السوالم من الرجال العائدين الى بلادهم ، كلاما عن للوم ، يقولونه وهم راكبون فوق ركائبهم ، ان ما يميز للوم هو دقته ، محافظته على كلامه ، رجل سابق لاوانه ، والرجال فى هذا الزمان قليلون . صيت للوم يطير الى البلاد الاخرى ، والكل فى السوالم، يراقب ما يحدث بعيون ميتة . ذات صباح ، يشاهد المارون ، امام منزل للوم ، عمال بياض ، سلالم ، جير ابيض على الارض ، فتيات يملأن المياه من الترعة ، أكثر من رجل فى خلاء بيته ، انه يعيد ترميم الاجزاء المتهدمة فى بيته ، ويطلي باقى البيت ، تمهيدا لبناء بيت آخر ، عندما يفرجها الله . قال له : من يحبه ومن يكرهه « الف مبروك » سألوه : لم لم يتزوج ؟ قال لهم : « لسه بدرى» لم يزل صغيرا . وتمنى الرجال ، وهم فى الطريق الى حقولهم ، فى ذلك الصباح البعيد ، ان يجدوا ابناءهم الصغار فى مثل نجاح للوم . البنات الصغيرات ، الجميلات على وجه الخصوص ، منت اكثر من بنت نفسها ، بان تكون من نصيب للوم . عندئذ ، تذكرت اكثر من فتاة ، ان للوم سبق ان داعبها من قبل، او ابدى اعجابه بها ، فى الحقول الواسعة ، فى وقت القيالة ، هذا كله ، كان فى الايام الخوالى . تغيرت الحال الآن .

مشاريع للوم تعددت ، وحسب له ابو السعود كل شيء ، وقال عنه الرجال ان مكسبه فى اليوم الواحد لا يقل عن خمسة جنيهات مصرية ، النقود سرعت الولد . فاصبح كل وجوده من اجل الحصول على مزيد من النقود ، يصل الى السوالم ، مندوب من جناكليس، مجموعة من الافندية ، يركبون سيارة مكتوب عليها « محافظة البحيرة » . يسال القادمون عن للوم ، يتركون السيارة فى أرض اوقف ، يسيرون على اقدامهم ، اول مرة ، تحضر فيها سيارة حكومية ، لا تسال عن العمدة أو شيخ البلد ، تذهب من فيها الى للوم .

فى منزل للوم ، السلام والتحيات والتعارف ، كما يفعل كبار الموظفين فى البنادر ، والطريق من الحجرة الضيقة ، المفروشة بالظلام ، حتى المندرة البيضاء ، المزدانة بالرسومات الرائعة ، حيث يجلس للوم ، خيوط من نظرات الرجال المحيطين بمنزل للوم للوم فى سعادته ، ينسى انه عمل فى حقول الناس بأربعة قروش فى اليوم ، ايام بطولها . قضاها محنى الظهر ، الخطوط بلا نهاية ،

يبتعد خط الافق كلما قترب منه . والشمس الحاره . تجلد ظهره بسياط لاذعة . سنوات عمره الاولى . الجراح فى الجسد والقلب . الامنيات المستحيلة التحقيق . رائحة التخديعة فى بيوت الفلاحين . تملأ خياشيمه فى ليالى الحرمان . شكل النقود الذى لم يكن يدركه جيدا . قلب الجلباب اربع مرات ، قال للملوم لامه . ليلة الامس : ان اهل السوالم كلهم كلاب ، نظر من نافذة حجرته ، وكان الوقت مساء . نادى أشجعهم ان يخرج اليه . وسيقطعه الف قطعة . قال لامه : انه كثيرا ما كان يسخر من حب الدين ، عندما يتكىء على افريز الجسر ، ناظرا الى كل شىء فى صمت . قال لامه : انها لابد وأن تنعم بحياتها ، لابد وان ينتقم من ايام الجوع والعرى . كثيرا ما بكت امه . قالت انها لا تصدق عينيها ، ما تراه أمامها كثير . كثرة النقود تخيف مثل قلتها . قالت له . ذات ليلة شتوية : النقود هى كل شىء ، الانسان يستطيع ان يشترى بها البسمة على الشفاه . والدمعة فى المآقى ، رجفة الحب فى حبات القلوب ، النقود ثم النقود ، ثم النقود .

— هود يعيب الراجل الا جيبه فى الزمان ده ..

قام الملوم ، احتضن امه . قبل يدها ، قال لها : آمين . وقال لنفسه . ن كل شىء ممكن فى هذه الايام .

قال وردانى : دا الواد لقى لقيه .

قالت سلسبيله : راجل ولا كل الرجاله

قال حب الدين : الزمن دا زمن الكلاب ، زمن السرقة والغش والخداع .

قال العمدة : لازم اعرف دا حصل ازاى ، الفلوس دى جت منين ؟

قال ابوالسعود : اسمعونى ، كلكم مجانين ، الحكاية انا الوحيد اللى اعرفها . ساحكى لكم الحكاية من اولها ، أصلها ، وفصلها ، الناس أسرار ، والفضيحة مكروهة من جميع الناس ، ما حدث مع هذا الولد ، جعل القلب يفيض ، السكوت حرام . يقول ابوالسعود كان من عادة امه ، بعد وفاة أبيه ، أن تذهب الى منزل الصراف فى نكلا العنب ، تكنس وتغسل وتمسح أرض المنزل ، تروى الزرع فى الحديقة ، تلاعب الاطفال الصغار ، تشترى الخضار والفاكهة من السوق والجرائد اليومية من كفر عوانه ، هاتى ميه يا ام الملوم ، حاضر . اغسلى ، حاضر ، اطبخى ، حاضر ، اكوى ، حاضر ،

قشرى البامية ، حاضر ، خرطى الملوخية ، حاضر ، نشى الطير ، حاضر ، اقفلى الشبابيك ، حاضر ، سوى السرير ، حاضر ، هوى اوضة الجلوس ، حاضر ، امسحى الخشب ، حاضر ، اروى الزرع . حاضر . حاضر . حاضر .

الرجال يتحدثون ، الموضوع حكاية الملوم . الفنى والفقر من اهم الامور فى حياتهم ، وحدوثها أمر لا يمكن ان يمر بسهولة على عيون وآذان الناس . وتجرح أصواتهم رداء الليـــل ، ويتنفسون مع الكلمات رائحة الايام الفارغة ، وجفاف الاراضى فى الحقول . لابد وأن يحضر النبى الذى تحدث عنه سيدنا الغريب فى كتابه الذى لم يعثر عليه احد . يبدا ابو السعود حكايته فى الظلام ، والرجال لا يملكون سوى الانصات . يقول ابو السعود ، وقد لمعت عيناه ببريق أبيض : كانت تذهب فى الصباح ، وفى المساء تجر قدميها على الطريق الخشنة ، فتتصور انها ربطت بمسامير ، تحاول أن ترفعها ، فلا تقدر ، انها متعبة ، امراة هدها العمل . تريد بكل ما فيها من اعياء ، أن تنام فى أى مكان ، لابد وان تعود الى السوالم . أحيـــانا كان الصراف يطلب منها ان تبيت عنده ، فى نكلا العنب ، بدلا من الذهاب والعودة كل يوم

— الملوم لوحده يابيه ، دا عيل ويتيم

كانت تعود .

معها بقايا اكل ، ملابس قديمة ، لقم مكسرة ، ذات مساء قبل ان تعود ، وجدت خزانة الصراف مفتوحة . أوراق النقود الخضراء والحمراء تملأ الارفف ، المفاتيح بجوار الخزينة ، رائحة النقود تعبق انفها ، رائحة تعرفها جيدا . وقفت مكانها ، شعرت بتنميل فى أطراف أصابعها ، سمعت دقات قلبها ، أحست بدقات القلب ، على جدار صدرها الداخلى ، مدت يدها ، لمت أصابعها ، استدارت ، كان الهدوء والصمت والسكون والجدران والنوافذ وباب الخزينة المفتوح ، يهيب بها ان تفعل ، تمد يدها ، بدلا من هذا الموقف البليد .

— يارب .

رفعت عينيها نحو السماء ، عبرت ذهنها الف فكرة ، رفعت يدها ، أمسكت رأسها المشتت ، تذكرت كلمات عن الامانة والمعصيه والسرقة ، وسماء الله العالية ، والحساب ، رأت بعينيها مئذنة سيدى الغريب ، تطعن الفراغ مشيرة نحو السماء المغسولة

بالحنين والرحمة ، اوشكت ان تتراجع ، تغلق البـاب وتمضى ، انصراف يقول عنها انها امينة .. الامانة من اهم الفضائل فى بنى الانسان جميعا ، تذكرت المنزل الصغير ، ذهاب الملوم ، حبة العين، الى حقول الناس ، العودة فى المساء ، الملابس المرقعة ، مساحات اللحم التى تبدو من تحت الخرق، أنوم بلا عشاء ، الاكل والشرب بحساب ، السطح الاجرد الذى لا يغطيه عود حطب . الفرن الذى لم تقدح فيه النار منذ ستة اشهر ، قبر زوجها الذى لم تذهب اليه منذ ان دفن فيه ، لعدم وجود ما تذهب به . فى لحظة خاطفة مدت يدها ، اخذت ما استطاعت ان تأخذه ، لفته فى ملابسها ، خرجت ، اصابتها رعشة ، سألتها زوجة الصراف عما اصابها ، جسمها مازال يرتعش، وعيناها تدوران ببطء ، قالت انها متعبة. فى المساء ، عادت الى البلد . وفى اليوم التالى ، اتى من فتش دار ام الملوم ، بعد التفتيش ، اخذوا ام الملوم والملوم معهم الى المركز . احتجزا هناك . وبعد اسبوع ، عادا الى البلد .

اظهر التحقيق ، انه من المحتمل ، ان تكون ام الملوم اخـذت النقود ، كل الشواهد تشير الى ذلك ، عدم وجود ادلة ، وعدم العثور على شىء عند تفتيش المنزل ، اقوال الشهود لا تعد شاهد اثبات او نفى ، ما قاله الشهود ، نوع من التخمين . اخذت ام الملوم — يقول ابو السعود للرجال — النقود كلها « الله وحده سبحانه وتعالى ، يعلم كم مقدارها ، من حقنا ان نتصور ، ماذا سيكون فى خزينة الصراف ، وقت الحصاد ، وتكلا العنب ليست بلدا صغيرا ام الملوم ، يوم ان حضرت من تكلا العنب ، لآخر مرة ، وهى معها النقود ، كانت تسير ببطء ، تقدم قدما وتؤخر اخرى ، تستغفر، تطلب الرحمة من غفـار الذنوب ، تذكره بما آلت اليه الحال . جلست بمفردها فى منزلها ، وبعد ان نام الجميع فى الســوالم ، وانطفأت نجوم الليل ، وهبت نسمات الهواء الليلية ، ذهبت ام الملوم ، ومعها ابنها ، الى المعلم يعقوب فى منزله ، كانت قد ارسلت الملوم سرا اليه ، قال له : ان امى تطلبك فى امر هام . وعندما ابدى استعداده ، قال له : ان امه ستحضر بعد انتصاف الليل. على باب منزل المعلم يعقوب ، نقرت ام الملوم ثلاث نقرات ، فتح الباب ببطء ودونما صوت ، دخلت بجانبها ، مرقت بسرعة ، وعلى ضوء شمعة خابية ، فى الحجرة الداخلية ، تم الاتفاق ، افهمها ماذا تقول ، ماذا تفعل ، وطلب منها ان تنفذ كل شىء بدقة .

يقول ابو السعود : الصراف دخل السجن ، كان المبلغ كبيرا ، زوجته قررت الرحيل الى بلدها عند اهلها ، وقبل السفر، كان لها مطلب واحد ، حضرت الى السوالم ، زهرة وذبلت ، ولـكن رائحتها ما زالت بها ، أنها لا تطلب سوى يمين الله من أم الملوم ، بعد المنازعات والاخذ والعطاء والخوف من اليمين ، وسؤال الشيخ محمود ، قامت ام الملوم ، استحمت ، وضعت ابنها تحت يمينها ، ثم حلفت اليمين فى الباحة الواسعة ، امام دوار العمدة .

الرجال يمصمصون بشفاههم ، ابو السعود يقول لهم : انها بعد ان حلفت اليمين ، ذهبت الى منزلها ، دخلته ، ولم تخرج منه بعد ذلك ابدا ، نزلتعليها النقطة ، وانها الآن لاتستطيع الحراك. المـال والمنزل الجديد والجاه ، كل ذلك لا قيمة له امام المرض الذى اقعدها فى الحجرة الداخلية ، يشير ابو السعود الى السماء ، التى لا يبدو منها ، فى هذا الوقت سوى النجوم « الله موجود » .

الرجال فى حيرة ، وسيظل ثراء الملوم امرا محيرا ، الرجال يقولون انه الحظ والشطارة ، البعض الآخر يقول انها تقود الصراف ، والبعض الثالث يؤكد انها لقية ، نقود من الذهب كانت مدفونة تحت منزلهم القديم ، وجدوها بالصدفة . يتفق الرجال على امر واحد ، المعلم يعقوب هو الذى دبر الامر كله ، يده هى التى صنعت كل ما حدث . المعلم يعقوب لا يفعل هذا من اجل سواد عيون ام الملوم ، ولا من اجل الملوم ، ولـكل شىء ثمنه .

يقول فتحى سالم ، تعليقا على ما حدث : ابدا ، الـكتاب الذى كتبه سيدنا الغريب عن السوالم ، فى الصفحة الاخيرة منه ، ان الايام القادمة هى زمن العجائب ، سـيحدث فيهـا للسوالم ، عجائب سبع ، وبعدها تقوم القيامة . العجيبة الاولى ، ثراء الملوم المفاجىء ، والعجيبة الثانية ، عشة سلسبيله وحب الدين .

— اللفندى الباشمهندس ، العجيبة الثالثة ..

يشـير الى خيـام المهندس النائمة فى ارض الوقف ، والرجال الجالسون حوله يحسـبون فى عقولهم عدد العجائب ، ويصيـح احدهم : باقى اربع عجائب اخرى ، كى تقوم القيامة .

الملوم يجلس امام داره ، على دكة من الخشب ، واضعا ساقا فوق ساق ، وقد قرر ان يتعاون مع المهندس . وعده المهنـدس بالـكثير ، مرتب ، منصب ، مكتب ، سيارة ، مستقبل عريض . قال الملوم للذين ارسلهم له العمدة ، كى يمنعه من التعـاون مع

المهندس ، انه حر فيما يراه : هددهم باخبار المهندس ، مصلحة البلد تفرض عليه أن يتعاون مع المهندس ، وانه ان امتنع سيقوم أى فرد آخر بذلك ، ولن يتعطل المشروع . فى الايام الاخيرة ، اصر للوم على ان يناديه الكل ، بسيادة المدير العام ، دون ذلك فى اوراقه ، وعلى باب منزله ، وارجأ كل مشروعات عمال التراحيل التى كان يستعد للقيام بها ، وراح يقضى ايامه البطيئة المرور فى انتظار المشروع الجديد ، قال : انه لا احد يعرف اين يكون الخير . ان عيوننا لا ترى ، ولذلك فمن الصعب معرفة النافع من الضار .

يتصور الرجال هنا . ان سلسبيله هى اسعد خلق الله . شخص واحد ، فى السوالم كلها . يعرف ان سلسبيله كثيرا ما تبكى فى الليل . تقول له : انها ليس وراءها ما يخيفها ، لم يكن هناك رجل يجرى وراءها ، يسال عنها ، يطلب رقبتها ، يدور فى بلاد الله الواسعة ، يمسك سكينا يتربص بها ، بين المزروعات وخلف الابواب وعلى نواصى الحوارى ، كى يمسح الخطا والالم والجراح . تقول لحب الدين ، وهى تبكى : ليس هناك مايستحق اللوم ، وانها تنتظر مشروع المهندس ولولاه لتركت السوالم ، وانها لا تطلب منه سوى أن يترك البلد معها ، فهو خسارة ، الدنيا واسعة ، يدها على كتفه ، ستضعه تحت رمش العين . وفى بلاد الله الواسعة سيجدان الكثير . قالت له : انه لم يجرب ان يكون وحيدا ، لا اهل ولا اصحاب له . قالت انها لم تشاهد اولادها منذ سنوات . تختم حديثها بالبكاء ، تحمر العيون ، وتبدو الخدود متورمة ، وفى الصباح ، تغسل بندى الفجر دموع ليلة الامس ، وتحاول ان تغنى .

ولدت فى حارة قديمة ، متفرعة من شارع محمد على ، بجوار باب الخلق ، اسمها فى شهادة الميلاد ، عطيات . والدها طبال ، يقول عن نفسه : ضابط ايقاع ، اما امها التى لم نرها ابدا ، فكانت تعمل راقصة .

احبها ابن الجيران ، كانت صغيرة . ايام البراءة المفقودة ، فى كل مكان ، فى الحارة ، على الناصية ، امام دكان البقالة ، عند بائع الفول ، داخل محل الكشرى ، كانت هناك عينان فى خضرة البرسيم ، تحدقان فيها . تبعثان لها الوعد والامان ، عيناه ينبوع حزن ، متاهة . قرات فيهما اشياء رائعة ، الزواج ، الراحة ، الاستقرار . كان صبيا صغيرا ، اقرب الى الطفولة منه الى الرجولة ، قالت لنفسها ، وهى تبتسم له : ضل راجل ولا ضل حيطه . كانت تعيش بمفردها مع ابيها . كرهت الحياة ، والحجرة الضيقة والسطوح والشمس التى ترهقها كل يوم ، غير انها احبت اباها .

في المساء ، حملت صورة والدها ، وقفت بها فوق أعلى مكان في سطح المنزل ، صورة قديمة ، تكسر زجاجها ، لا يبدو منها سوى شارب كث ، يقف عليه الصقر . يقول لها والدها : ان هذا الشارب ، من ايام الريف ، ايام الصلابة والعناد ، ذابت في شارع محمد على أشياء كثيرة . تحول ابن ستيته الى رجل يرقص بالطبلة كالالعبان ، وتتلوى زوجته امام عينيه طوال الليل بين الرجال . قال لابنته ان امر ما في الدنيا هو لقمة العيش. قال : وكان لسانه ثقيلا من شدة السكر : لماذا لا يخلق الناس بلا بطون ، وهل من الضروري أن نأكل ونشرب ونلبس ؟ لم كل هذا ؟ حملت سكر صورة والدها ، اشارت الى وجه ابيها ، ان كان يريدها ، فعليه الحضور الى منزلها ، لا تعرف اللف والدوران ، عليه أن يكلم والدها ، ومن ناحيتها هي ستوافق . كان خشب الصورة القديمة ، يضغط على حلمتى ثدييها النافرتين . احست بأن شيئا ما ، قد نبت بداخلها ، اكتشفت ان مساحة صدرها عريضة ، وان الامور قد تغيرت ، فرح عصمت ، اشار الى سماء الله العالية ، وقال ان نجوم الليل شهود على ذلك .

تقول سلسبيله لحب الدين ، وهي حزينة : كان هناك رجل كهل يتابعها ، لم تكن تعرف عمله ، كان في الجسد رعشة ، وفي القلب خدر ، وفي الصدر وحشة . لم تجد من تخبره ، سألت الجارات عن عمل الرجل الكهل ، ابتسمن ولم ترد واحدة منهن عليها بما يفيدها ، فأدركت ان في الامر سرا ما . وعندما كان يسير وراءها ، كان يلذ لها ان تسرع في سيرها . الرجل يجري خلفها ، وصوت تنفسه يصل الى اذنيها شديد الوضوح ، أحيانا كان الرجل لا يستطيع السير ، فيجلس على أقرب مقهى ، ينتظرها حتى تعود .

سلسبيله بنت جميلة ، قالوا لها : انها يوم مولدها ، كانت طفلة رائعة ، اختلف ابوها وامها على اسمها ، كاد الامر يصل الى الطلاق ، تدخل اهل الخير ، اقترحوا اقتراحا ، ان يدون في شهادة الميلاد ، اسم غير الاسمين ، ثم تنادى بالاسمين معا . قال والدها : انه سيسميها باسم أمه في البلد ، ورفضت الام مرة اخرى . واصبحت لها ثلاثة اسماء . تعيش مع والدها ، فوق سطح احدى العمارات القديمة . سلسبيله تعود ذات مساء ، لتجد حجرتهم الصغيرة مرتبة ، السرير السفري فرشت عليه ملاءة

نظيفة ، وعلى الارض حصيرة يجلس عليها والدها ، ومعه الرجل الكهل الذي تابعها كثيرا من قبل .

— سلمى على عمك علواني يا سكر .

— بس لو ماكنتش تكبرني يا أبو سكر ، عمها ايه .

يمد الرجل لها يده ، تسبقه بسمة خربة . يسلم عليها ، يحتوى كفها البضة بين يديه . يجلسون ، الليالى . بعد ذلك ، هي ليالى الرجل الغريب ، الرجل ينفق بسخاء ، ووالدها يشعر ان طاقة القدر فتحت له ، وان الدنيا استجابت لدعائه اخيرا .

— يا سكر وافقى بقى .

احست بالهوان ، قالت ان ذلك لايمكن ان يحدث ، تذكرت الشاب الصغير ، عينيه ، شبابه ، مستقبله . وذات مساء ، وهي في طريق عودتها الى المنزل ، شمت رائحة اللحم والسمن المحروق تملأ الحارة ، فقررت ان توافق . لا تدرى الآن سببا واحدا لذلك عادت بسرعة ، صعدت درجات السلم المتآكلة ، امسكت بالدرابزين الخشبي عندما أوشكت ان تقع ، كان والدها ينام في السرير على ظهره ، السرير منخفض من المنتصف ، ولم يكن يبدو اى شيء منه ، عيناه تحدقان في سقف الحجرة . اقتربت منه ، جلست بجواره على السرير ، راحت تنظر اليه ، ادركت ، الى اى حد ساءت الحال .

— خلاص يا بابا امرك ، اتجوز عمى علواني .

علم عصمت بالخبر ، جرى خلفها ، وضع في يدها ، في غفلة من العيون ، ورقة زرقاء مغموسة في دموع العين . لم يتكلم ، لم تر وجهه « اهلى لم يوافقوا ، ما زلت تلميذا في المدرسة ، عندما كلمت والدي ، لم يستمع الى باقي كلامي ، وامي في ترب الغفير ، والايام صعبة ، سأهيم وحدي كثيرا فى حواري الحلمية الجديدة ، ليس امامنا سوى التسليم ، سأهواك حتى تجف الدموع في العين»

تزوجت ، في ليلة الفرح ، كانت البيرة تسد عين البحر ، الاكل والشرب ، الرقص حتى الصباح ، الرؤوس الدائخة ، يقدم لها والدها حجر الجوزة ، به المعسل فقط .

— امضى باست المعلمات .

تضع ما في يدها في منتصف الحجر ، وهي مغمضة العينين ، تضحك الرجال .

— ابن **الوز عوام** .

— ولعى ياست سوسو .

تتمايل الرءوس ، وترقص الاجساد ، وتدور الغابة بين الافواه ، تمتد الاصابع دون وعى ، تمسك آخر الغابة ، تدسها بين الشفتين

— كانت ليلة ولا كل الليالى .

تقول سكر : ان عمها علوانى ، انفق كثيرا فى هذه الليلة ، وان الذين كانوا حولها ، منوها بالميراث ، واستعجلوا موته. قضت معه ليالى مترعة بالاسى ، سبحت معه فى بحار العرق ، لا تذكر سوى النهاية ، تحملته ، منحته كل مايمكنها منحه ، انجبت منه بطنين ، ولدا وبنتا . البنت فى حلاوة الشهد ، لاتعرف أين هى ؟ طلقت من علوانى . فى حياة سلسبيله اشياء كثيرة ، لا تحب ان تذكرها ، وعندما تحكى قصة حياتها لحب الدين ، فانها تمر عليها سريعا ، يتوقف حب الدين امامها ، ويعاود السؤال عنها . تقول له : انها لا يعجبها هذا التدقيق فى امور عادية . تكمل ، ما اهمية السؤال والجواب ما دام الامر قد مضى ؟ يرد عليها ، بصوت هامس : ما فائدة السؤال والجواب ، ما دام الموت هو نهاية كل النهايات .

الطـــلاق ، شارع محمد على مرة اخرى ، الليل ، الحجرة الصغيرة فوق السطوح ، ذكرى ليالى علوانى ، لهفة الجسـد ، والحنين الى صدر رجل حقيقى ، تذوق مرارة خيبة الامل كل ليلة الحوارى ، الشوارع ، الحارس المتعب المكدود ، النوم يرف فى العيون كطائر حبيس يود ان ينطلق ، نساء شـارع محمد على ، الاصباغ والالوان والبسمات المترنحة على الشـــفاه والخدود والحواجب . السكارى ، محاولة تصيد كلماتهم المتناثرة مع هبات الرياح آخر الليل . نظرات الرجال . والدها لا يحضر الى الحجرة كثيرا . وقال لها زملاؤه انه يعيش مع راقصة فى شارع كلوت بك ، لم تهتم بالامر . قالت لهم : انه لابد وان يعود الى هذه الحجرة قالت : انها لا تحب هذه الحجرة ، وانها لا تقدر على البعاد عنها وان امرها غريب ، فهى المكان الوحيـد ، الذى يدوم لهم فى النهاية . سكر لا تذكر كيف كانت تقضى الايام والليالى . تجلس وسط الحجرات المتناثرة ، فوق السطوح طوال النهار ، تتحسس جسدها ، فتشعر بسخونة وفوران ينبعثان من الداخـل ، تحن الى شىء ما ، لا تعرفه ، تحادث نفسها ، شكت سوء الحال لاحدى الجارات . قالت لها الجارة : ان الحال عنـدها اسوا . ووعدتها بعمل ما يمكن عمله من اجلها .

ذات مساء ، طرق باب حجرتها شاب صغير خجول ، مربك ، لا ينطق الكلمات كاملة الاحرف . احست انه ما زالت به رائحة الطفولة ، لم يكن قد حلق ذقنه بعد ، ذكرها برائحة ابنها الذى لا تعرف مكانه . قالت لنفسها : الشاب غريب ، امه ليست هنا حتى تغسل عنه غبار الايام ، بعد انتصاف الليل ، وضع بجوار سريرها كل ما كان معه ، النقود والاوراق والعواطف والاحزان.

تذهب الى الاسكندرية ، تغنى ، ترقص ، تشهد نجوم الليل على العهد والاحلام ، تبحث عيناها عن عصـمت ، تتحسس الورقة الزرقاء التى تحمل رائحته ، والتى ما زالت تحملها معها . تقول لنفسها ، فى ليل الاسكندرية : انها فى ايام شبابها الاولى ، احبها شاب صغير ، لا تذكر حتى اسمه .

— اسمه ايه يا سكر ، اسمه ايه يا سكر .

رفضت الخروج معه ، قال لها : انه سيقتل نفسه ، ضحكت عليه ، وذهبت الى منزلها . ضرب نفسه بالنار ، انهى الامر بيده . سكر ، انت قضائى وقدرى . كانت الورقة ملوثة بالدماء ، ملقاة بجوار جثته .

عاشت سلسبيله فى الاسكندرية ، تقول لحب الدين : كان امام منزلها مسجد صغير ، الاذان هو كل ما يربطها بالناس ، يذكرها بمرور الايام والليالى . يومها يبدأ فى منتصف الليل . وينتهى فى الثانية بعد الظهر . الحياة كالحلم الثقيـل ، والنوم كالاغماء ، اليقظة الحارقة استعدادا للنوم . يأتى الرجال سكارى ، مهزومين تقذفهم السفن والبحار والبلاد البعيدة ، يشربون الدفء المعطر ، تذوب كلماتهم مع صمت الليل ، تقتات عيونهم بالجسد الابيض . يذهبون ، وعندما كانت تنام ، فان صورة الشاب المنتحر ، تأتى تملأ عليها الحيـاة ، تصحو مفزوعة ، كرسى ياسوسو ، امضى يا معلمة ، تضع يدها على الحجر ، وكل النـاس غرباء ، تسمع أسماءهم ، تعرف القابهم ، تسأل عن بلادهم البعيدة التى قدموا منها ، الامر لايعنيها . ترص المعسل فى الحجر . تسوى كل شىء بأصابع يدها .

— ولعى الحجر دا يا احسن سكر فى العالم .

يخرج الدخان ، ومع لحظة خروجـه ، تدرك ان كل ما فى الحياة ، يتساوى . سلسبيله تقول لحب الدين : لم يكن معها ما يستحق المحافظة عليه وأضاعته ، لم تنـدم لحظة على شىء

ربطت فيه . اصبحت فى الايام الاخيرة ، لا تذكر حتى وجه ابيها ، او شكل امها . وحلمت ذات ليلة ، بوفاة والدها ، واحتراق امها ، بسبب لاتدريه . وبان اولادها يخوضون معركة الاستسلام الاخيرة ، فى مكان ما ، من الدنيا . تقول سلسبيله : انها لفت ودارت فى بلاد الله الواسعة ، كى تقابل حب الدين فى النهاية ، كل ما يحدث لنا مقدر ومكتوب حتى قبل ان نولد ، ومهما جرينا كرهنا بعضنا ، فلن نحصل على اكثر من نصيبنا . ان الايام تقضيها بالطول وبالعرض ، وبأى شكل كان .

فى دمنهور ، التقت بحب الدين ، لا تذكر سبب وجودها فى دمنهور ، كانت تلبس بدلة الرقص ساعتها . اقترب منها ، لف وراءها البلد ، قال بصوت عال : انه ابن عمدة ، وانه بلا عمل ، وسيلف وراءها القطر المصرى كله . كان يرتدى جلبابا من الصوف الفامق . على الكتف عباءة ثمينة . وفى اليد جريدة . وعندما وجد نفسه معها بمفردهما ، قال لها دون لف أو دوران :

— اسمعى يابت ، ما تيجى معايا البلد .
— بلد ايه يا ادلعدى .
— السوالم ، قبلى وبحرى .
— واسم الكريم ايه ان شاء الله .
— حب .
— ايه ؟.
— حب الدين سرحان .

استراحت له ، قالت لنفسها : قد يكون بر الامان ، حضرت معه الى السوالم ، سلسبيله تقف على باب العشة ، وهى تدرك ان الليل موحش لحد الموت ، تتحسس الظلام بيدها ، تضحك تغرق فى الضحك . السوالم تشرب ليلها الاسود على مهل ، وسلسبيله تضحك ، تقول لنفسها ، وهى تجمع اشياءها :

— الضحك على الشفاتير .
والقلب يصبغ مناديل .

انها تدرك ان كل رجل فى السوالم ، يتمنى ان تمنحه نظرة ، ترمى عليه السلام ، تطلب منه خدمة . خيوط النظرات التى تربط بينها وبين عيون الرجال ، ليست سياطا من الرغبة ، بل هى نوع من الآمال يلفها بداخله . كان ذلك يسعدها بالليل ،

وكانت تقول : ان كل شىء هنا تحت أمرها ، وما عليها الا ان تشير باصابعها فقط .

سلسبيله تجمع اشياءها من العشة ، وفى نفسها خاطر محدد ، بأن ايامها انتهت ، الحياة فى السوالم انقطع عيشها . كانت الايام اياما ميتة . وفى السوالم ، جدلت من الانتظار حبالا طويلة ، علقتها فى السماء السابعة ، وصعدت عليها ، وهناك لم تجد شيئا

العشة خالية ، وآذان العشاء لم يصلها بعد من فوق مئذنة سيدى الغريب ، الرجال الذين ذهبوا الى المهندس لم يعودوا الى العشة . اطفأت الكلوب ، حملت القفص . الشارع الرئيسى والحارات . قالت لنفسها : ان تغيير نظام الحياة ، آذن بانتهاء كل شىء .

فى البيت ، الوحدة والصمت والضوء الخافت . سلسبيلة تتحرك فى الحجرة الصغيرة ، ومن يشاهدها يكتشف ، ان سكر الفاتنة ، التى ملات قلوب الرجال بالوعود ، تسير الآن فى حجرتها الصغيرة ، كامرأة كهلة ، تقدمت بها الايام ، تشعر انها لابد وان تفعل أى شىء ، الايام لم تعد تطاق فى السوالم . فى البداية ، تحملت الفراغ ، الحوارى الجرداء ، البيوت الطينية ، الناموس بالليل ، النوم على الارض ، وقالت من أجل عيون حب الدين ، يهون العمر كله ، لكل شىء حدود . الرجال يمرون فى الحارة أمام البيت ، يشاهدون البيت مضاء على غير العادة ، وفى الداخل ، كانت سكر تنام ، تتحرك ، تعرك يديها ، تعانى هما غريبا . قامت غيرت ملابسها ، تزينت ، وقفت طويلا أمام المرآة ، أطفأت المصباح وجلست فى الظلام . حب الدين لم يعد ، انه مع المهندس فى الخيام ، وهى تنتظر عودته . قالت لنفسها : كان ابا عصمت . احبته فى الزمان القديم ، ومن بعده ، فان القلب قدمات ، كل ما يحدث لها من حلاوة الروح ، وحب الدين ، هو الذى ايقظ الاشياء بداخلها ، كانت تقول : ان الموتى لا يطلبون سوى الكفن واللحد والرحمة ، غير انها اقتنعت بعد ذلك بحب الدين .

وبعد حضورها الى السوالم ، قال لها حب الدين : انها هنا زوجته ، ويجب ان تعامله على هذا الاساس . قالت ان الكذب هو احلى ما فى الحياة ، نعمت بالوهم . احست ان الحجرة خانقة صعدت الى سطح الدار ، انها نادرا ما تصعد اليه . وفوق السطح كانت السماء والنجوم ، قالت لنفسها : فلنحلب نجوم السماء ،

ومن حليبها نعجن تراب الارض ، نضع فيه حصوات ملح قليلة ، ونصنع منه لقيمات مكسورة ، مغموسة بالاهانات ، ناكلها معا . فزمن النزوح قد حل اخيرا .

هبت عليها نسمة هواء ، حملت اليها رائحة الارض الشراقى ، والاشجار الخالية من الاوراق والزهور ، لقد 'دركت ، معنى ما يقوله الرجال فى العشة احيانا ، ان الايام التى نمر بها السوالم ، هى ايام الجفاف . يكمل الرجال ، ان ايام الجفاف قد طالت هذا العام .

يحكى انه حدث فى قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان ، ان كان فى بر مصر ، ام الدنيا ، ملك من ملوك الزمان ، له هيبة وصولجان ، وجند واعوان ، وان هذا الملك قد دان له كل شىء ، الارض والناس والبلاد والزمان ، وان الناس قد تغنوا به ، وقالوا هو المخلص ، الذى حلموا به منذ آلاف السنين ، ثم انهم عبدوه . وحدث ان اتى رجل من قاع البلاد ، رجل طيب القلب . جميل المحيا ، سمح الخلقة . كانت الشعيرات البيضاء ، تجلل راسه . قال الناس عنه ، انه حكيم الزمان ، له معجزات عظام ، يقرا الغيب ، يتنبا بما سيكون ، يعرف ما يدور فى الخاطر ، يطل على الايام القادمة ، اتجه الحكيم الى قصر الملك ، وكان القصر مبنيا على مكان مرتفع ، وهناك ، فرش حصيرا صغيرا ، وجلس عليه . سأله الحراس عن سبب جلوسه أمام قصر الملك . قال : ان الملك سيرسل فى طلبه ، متى آن الاوان ، وهو هنا جالس حتى يطلبه الملك ، سيجلس حتى آخر ايام العمر . فى اليوم السابع ، أرسل الملك فى طلبه فتعجب الناس من امره ، ثم ان الحكيم ، الذى كان يعمل فلاحا ، فى أول ايامه ، تقدم نحو الملك ، وقبل الارض بين يديه : « يا ملك العصر والاوان ، انت الذى سجل الناس فى كل مكان احسانك ، لك عندى نصيحة ، ان اخفيتها عنك ، اكون ابن زنا ، وان امرتنى ان ابديها لك ، لا اطلب منك سوى منديل الامان » . رمى الملك له منديل الامان . قال له : وما نصيحتك؟ قال : أيها الملك الجليل ، لقد قال لنا القدماء ، ان من لم ينظر فى العواقب ، فما الدهر له بصاحب ، الملك على غير صواب . الملك انزعج ، وواصل الاستماع . ان قوانين قاعة العدل ، قد القى بها ، تدوسها الناس بالاقدام فى المحال العامة ، الرجل يضرب اخاه ، فما العمل . انظر ، الرجل يذبح وهو بجانب اخيه : أتحدث اليك ، فهل تسمعنى . اقول ان المتحلى بالفضائل يسير وهو محزون لما يحدث ، انهم يقولون : ان العدالة موجودة باسمها اعلم ياسيدى ، ان الملك اذا جعل الناس يخافونه ، دل ذلك على ضعف . يقول ابو السعود : الحكيم قال للملك : اى حال نجد

عليها البلاد الآن ، اوصيك بأمر واحد ، لا تغلق قلبك او عينك او اذنك ، وفى مصر الآن، يزداد الاغنياء غنى والفقراء فقرا . ومن جديد سنسمع عن الذين يقضون ليلهم بغير عشاء . فهل يرضيك هذا .

سمع الملك ماقاله الحكيم، امر بتاجيل الموضوع، فى الصباح ، صاح الملك بالسياف ، اضرب رقبة هذا الغدار ، أرحنا منه ، ومن سره ، امرك يامولاى ، يقول ابو السعود : ان اهل المدينة شاهدوا فى العصر ، رأس الحكيم ، معلقة على باب القصر ، فتعجبوا من احوال زمانهم .

ابو السعود ، رجل طيب ، بعد الاربعين بقليل ، حرم نعمة الحياة الهادئة . لم يتزوج الا منذ سنوات قليلة ، ينتسب الى اباء كلهم من اولياء الله الصالحين . يقول ان عائلته فرع من عائلة سيدى الغريب . وان سيدنا الغريب ، قد زاره فى المنام وهو شاب صغير ، قال له : اصبر على الظلم ، فلن يدوم اى شىء ، قال له : انه سيقف بجواره فى نهاية الامر . ابو السعود متزوج من امراة غريبة ، اب لاربعة اطفال . يوم ولدته امه ، سموه مسعد ، قيل للناس فى البلد ، انه بنت ، خوفا من الحسد ، ولم يكتشف امره الا بعد ذلك . لا يعرف احد ، من اين يعيش ابو السعود ، يكاد يستدين المال من كل من يلقاه ، حتى من المعلم يعقوب ، رغم انه لايرد ما عليه ابدا . يستعذب الحرمان . ونادرا ما يشكو حاله للناس . اسمر اللون ، حلو التقاطيع ، فى اصابع يده خواتم بفصوص زرقاء وحمراء ، يضع فى قدميه «بلغة سوقى» ، يقولعنها رخيصة وخفيفة . يحمل فى صدره كلمات الله ، لايكره احدا ، يحبه كل الناس ، محفظته فارغة دائما . كل دور البلد داره . كل حقول البلد ارضه ، انظف من الصينى بعد غسيله . غير انه يعود ومعه من خيرات الله الشىء الكثير ، لا يكره فى البلد سوى الشيخ محمود .

الرجال يجلسون فى حلقة واسعة حول ابو السعود ، اول مرة يجلسون فيها بعد حضور المهندس ، شغلهم موضوع البئر . شاهدوا ابو السعود ، امسكوا به ، حلسوا حوله . لم يشأ ان يحدثهم عن البترول والبئر والمهندس ، اختار ان يعيد الى اذهانهم هذه الحكاية القديمة . حكايات ابو السعود لا تنقطع ، وفى كل مرة ، يتساءل الرجال : من اين يأتى بهذه الحكايات . الكل

يعرف ان ابو السعود عنده فى منزله صحارة قديمة ، فيها كتب صفراء ، ورثها عن ابيه ، ويقول الناس سرا : ان الكتاب الذى الفه سيدنا الغريب ، عن السوالم ، موجود فى الصحارة ، ابو السعود يحتفظ به لنفسه ، لانه يعيش منه ، ولا بد وانه ينوى ان يعطيه لابنه من بعده ، هو سر الاسرار بالنسبة له ، ولعائلته كلها . قد يخافون من لسانه ، يعملون له الف حساب ، ولكن احدا لايستطيع الاستغناء عنه .

ابو السعود ليس شيخا ، وان كان يلف راسه بعمامة ، وينسق ذقنه بعناية ، انه حليق الشارب ، وذقنه تبدو كخط دائرى شديد السواد ، جلبابه ازرق غامق ، لم يغير لونه . ابوالسعود، هو مستودع الاسرار فى السوالم . الناس تقول : ان ابوالسعود وجد فى أكثر من مكان فى وقت واحد . يقسم الرجال : انهم شاهدوه ذات مرة على الجسر ، وامام دكان المعلم يعقوب ، وعند دوار العمدة ، فى وقت واحد . ومن يومها ، وهم يقولون فى السوالم ، اكثر من « ابوالسعود» . ابوالسعود لايذهب الىالمسجد رغم ان الناس تناديه : يا فضيلة الشيخ ، انه يقول : انه اولى بالمسجد من الشيخ محمود ، فهو الوريث الوحيد للامامة فىالبلد، العدل والظلم مسالة تحيره . زمن عجيب ، وهو يثق أن سيدنا الغريب ، هو الذى سيفصل فى المسالة ، سيقوم من نومه ذات صباح ، ويتولى الامر بنفسه .

فى كل مساء ، يجلس ابو السعود على الجسر ، او فى ارض الوقف ، او فى عشة سلسبيله . يحكى الحكايا ، يقص اخبار البلد ، ويوم يذهب الى المركز ، أو تكلا العنب ، فانه يعود ، ومعه حكايا غريبة ، اشياء يقول انها ستحدث ، فى الايام القادمة ، وتأتى الايام ، كى تصدق ما قاله ابو السعود للرجال . وعندما يبدا ابو السعود فى حكايته ، فان الرجال يقولون : ان فى فمه الف لسان ، وان فى راسه اشياء كثيرة ، وقد يضحك الرجال من كلامه غير انهم يعجبون به ، يطلبون منه ان يستمر فى حديثه . يقولون له : ان خير ما فى هذه الايام هى الحكايا .

فى الصباح ، يخرج ابو السعود من منزله مبكرا ، لاينام قبل منتصف الليل ،ولاينام قبل ساعة القيلولة ، لم يمرض ابدا ، ولم يشاهده احد من الناس فى منزله بالنهار ، يقولون : « فيه شىء لله » ، وان عنده سرا ما من اسرار الحياة . وعندما تحدث فى

السوالم حادثه ما . ويصل الامر للحكومه . وترحل من يحقق فى الموضوع : ويكون الحادث قتلا أو سرقة اوحريق بيوت أو عراكا بسبب المياه . فان القادمين من البنادر ، لايباشرون عملهم . الا بعد سماع أبو السعود . لا يقاطعونه اثناء حديثه . ينصتون له . يسألونه رايه . ويقولون ان رايه هام . يقول عنه بعض الناس : انه خباص العمدة . ينقل له كل ما يحدث فى السوالم .

ابو السعود . يتحرك طوال النهار ، فى الحوارى والبيوت . يفسر الاحلام للنساء . يسمع منهن ما يقلنه له . يكتب الوصفات البلدية . يدخل كل البيوت فى البلد . يدفع الباب بقدمه اليمنى . وبدون ان يأذن له احد ، فانه يدخل . يذهب الى دكان المعلم يعقوب . يشرب الشاى والمعسل ، يذهب الى دوار العمدة . يدخل حجرة التليفون . يلقى السلام ، يسألهم عن الحال . يجلس على الارض بجوار الكنبة . يسمع كل ما يقال ، ولا يعترض احد فى السوالم على وجوده . يقول لهم : ان خير ما فى الدنيا . ان تضحك .

ابو السعود جالس على افريز الجسر . ساهم وحزين ، يضع يده اليمنى على خده ، ينظر الى الذين يعبرون الجسر ، ولا يتكلم ونظراته تدور فى الاركان بسرعة ، يقترب منه اكثر من رجل .

– مالك يا أبو السعود .

– مافيش .

– مالك ياولد .

– قلت مافيش . خبر ايه يا ناس .

يحلف لهم بالطلاق ، الاشيا معدن ، الحال عال . حزين لسبب ما . لا يتكلم ، يقول لنفسه : مهما حدث ، فكرامة الانسان اهم ما فى حياته . ابو السعود ، فى حكاياه عن السوالم . لايبالى . لا يقف أمام الكلمات طويلا ، الموضوع عندما يتصل بحياته . يتوقف ، وتطفر من عينيه الدموع ، حب الدين يقول للرجال : ان أولاد أبو السعود فى المنزل بدون اكل منذ يومين . وابنه الصغير مريض ، أوشك على الموت . يتعجب الرجال ، أبو السعود رغم الضحك والسخرية ، وتناقله الحكايا عن الناس ، فان له قلبا .

وفى الدنيا الواسعة ما يبكيه هو الاخر . القلوب تفيض بحنان دافىء معطر ، وتسكرها لحظات الحب والوفاء النادر . تذهب النساء الى بيت أبو السعود ، ومعهن الذرة والقمح والدقيق

والسمن واللبن والجبن . أبو السعود يضحك من جديد .

– الشحات له نص الدنيا .

الليلة ، بعد ان حكى ابو السعود للرجال ، حكاية الحكيم ، ورأسه المعلقة على باب القصر . يقول لهم : انه يحزن كثيرا على هذا الحكيم ، ويطلب له الرحمة .

– الادى حصلت والا من عندك يا ابو السعود .

– الا من عندى .

فى الكتب كل شيء ، خاصة الكتب الصفراء ، الحكاية حدثت وكل ما يفعله ابوالسعود ، انه يحكيها لهم . يقول الرجال لأبى السعود : لم لم يرشح نفسه فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى ، يبدون جميعا استعدادهم كى يعطوه ما هو اكثر من اصواتهم . يقولون له : انه يعرف كل شيء ، وخير من يمثل الرجال ، قال لهم اكثر من مرة : ليست له فى هذه الامور ، السياسة لها ناسها ، وهو رجل على قد حاله .

الرجال ، بعد عودتهم الى منازلهم المتناثرة فى قيعان الحارات الضيقة ، يحاولون أن يستعيدوا ما قاله ابو السعود الليلة . الكلمات تتوه ، فيدركون ان ابو السعود رجل غريب . ابوالسعود يكحل عينيه ، وعندما يسأله بعضهم عن السبب فى ذلك ، يقول . ان عينيه موجوعتان ، والده اصابه العمى فى آخر ايامه . من المفروض ان يذهب الى حكيم العيون فى دمنهور ، الحال لا تسمح بذلك . يحرك اصابعه ، كمن يعد النقود المطلوبة لذلك ، يخاف العمى ، وعندما يرين على الرجال صمت ، يتذكرون خلاله ، ان عيونهم جميعا مريضة ، ابو السعود يضحك .

– الله جميل ، يحب الجمال ، والكحل جمال .

زوجته ، الست اصيله ، ليست من اهل السوالم . ذهب فى احد الايام الى دسوق ، مولد سيدنا ابراهيم الدسوقى ، ابو العينين . مكث هناك سبعة ايام بلياليها ، شعر الناس بالشوق اليه ، والى حكاياه وكلماته . عاد وهى معه ، امراة ناعمة ، تغطى وجهها بطرحة سوداء ، وتسير خلفه . اول مرة ، يعود فيها ابو السعود من احد الموالد ، وهو لا يحمل قفصه الصغير ، كان ينادى زوجته ضاحكا :

– من هنا ، يا أم ابو السعود .

سأله الناس عنها ، قال انها من ابناء الطريق ، نسل صالح .

عاشت اصيله معه على الخير والشر . الرجال فى الحقول، والنساء فى البيوت ، يحسدون اصيلة ، فابوالسعود فى نظرهم ، رجل طيب القلب ، خفيف الدم ، اصيلة صابرة على ماتلاقيه معه ، تاكل يوما ، وتجوع باقى ايام الاسبوع وتقول : كل شىء : يهون من اجل سواد عيون ابو السعود .

اصيله تخلع الملابس التى كانت تلبسها ، والحناء التى كانت تصبغ يديها وقدميها بدات تختفى ، ولهجة البنادر بدات تتلاشى من كلامها . انها تذهب الى الترعة ، وتعود ، وتشاهد فى الحوارى . قال ابو السعود ، عن التغيير الذى طرا على زوجته ، ضاحكا : الدنيا قطار قشاش ، لا يترك الراكب راكبا ولا ينسى الماشى ، الحال لابد وان تتغير .

ابو السعود لحاد البلد . يحيى الليالى فى البيوت . ويرد النساء عنهن ، بعد اللطم على الخدود وشق الملابس وحلف اليمين الباطل وقول الكذب الابيض . يمسك الذكر ، يحضر الوفاء بالنذور ، يذهب الى ايتاى البارود ، ودمنهور بالشكاوى المجهولة سرا ، يتصرف فيها ويعود . احيانا يرسله العمدة او المعلم يعقوب الى البنادر ، فى مهام خاصة ، يذهب الى منزل الموم . ابوالسعود يداوم على الذهاب الى الموالد فى الناحية ، وفى ايام زواجه الاولى كانت اصيله تذهب معه ، وبعد ان انجب اولاده ، واستقرت زوجته ، فانه يذهب بمفرده .

اهل السوالم . يشاهدون ابو السعود . ساعة العصارى . مارا على الجسر . فى يده قفص صغير . معه ما يحتاجه فى سفره ، عدة الشاى . بعض الطعام القليل . غيارات . ومعه بعض الكتب القليلة ، نذور طلب منه اصحابها ان يضعها فى صندوق النذور يقطع الطريق على قدميه . ينام اينما اقبل عليه الليل . يذهب الى سيدى ابراهيم الدسوقى فى دسوق . سيدى الاربعين فى الخضيرية سيدى مسعود فى دميسنا ، سيدى احمد البدوى فى طنطا . يعود بعد سبعة ايام . لحظة الغروب . يضع قدمه على الجسر . يتمسح الحد ، يدوس على ارض الجسر بحكمة كما يفعل الغرباء . يشاهد واحدا من اهالى السوالم . يبتسم ، يضع القفص على ارض الجسر ، يعانقه ، يمسح الغربة فى احضانه . يملأ عينيه بمنظر السوالم والناس . لفح الشوق بالقلب وفاضت الدموع فى المآقى . لا بد من السوالم . واصيله واولاده واهله . وذكرياته وحكاياه .

فى القفص حمص وحب العزيز وخبز ابيض وطعمية . ابو السعود رغم فقره ، غير بخيل ، يفتح القفص على الجسر ، يخرج مابداخله يعزم على الناس بما معه . ياخذ الناس منه ، يسألون انفسهم ، عن مصدر ما معه . يذهب الى منزله ، يوزع ما بقى على اولاده وزوجته وابناء الجيران . يقول لزوجته : كل يوم يشرق على الناس ، يخرج معه ارز قهم ، من يموت ينقطع رزقه . ابو السعود يقول لزوجته : اننا ما دمنا احياء ، عند شروق شمس اليوم ، فسنجد ما ناكله ، بشكل او بآخر ، يكمل : ليت مشاكل الناس كانت هى الاكل والشرب فقط ، اذن لهانت الامور .

ابو السعود ، يجلس بعد عودته فى وسط داره ، يلبس اكبر ابنائه طرطورا ملونا ، احضره معه من المولد . زوجته تضع الشاى على النار . يقول لها كوب الشاى من يدها يساوى الدنيا بما فيها . يقول لزوجته ايضا : ان الناس يلبسون العرى، ولسانهم قد اصابه عوج ثقيل . ان الدنيا انقلب حالها ، الرجل فى غير داره لايساوى بصلة قديمة ، انه لايستريح الا فى هذا المكان البسيط . ودون ان تساله زوجته ، فهو يحكى لها ما حدث ، ما سمعه ، مارآه اثناء سفرته . انه متعب من السفر ، ولذا فان اصيله هى التى تحكى له اولا ، كل ما حدث وهو فى المولد ، ابو السعود ، هو المتحدث فى كل مكان فى المولد . فى بيته يكون مستمعا فقط . انه يجلس ولا يتكلم . يسال زوجته عن الامور التى سافر وتركها معلقة فى جو البلد . اصيلة بارعة فى حكاية الحكايا ، تتكلم باللسان واليد والحاجب ، ورغم انه شيخ ، وهى من نسل الصالحين ، فهى فى منزلها امراة ، نتاية ، تسعده بالليل ، وفى النهار ، فهى لا تلبس سوى قميص على اللحم رمش عين الجميل .

ابو السعود يخرج من داره بعد شرب الشاى ، يسأل من يقابلهم ، يسمع منهم ، يقول لهم اخبار الموالد ، يعرف منهم اخبار البلد ، يمر على النساء اللاتى اعطينه نذورا ، يطمئن الخواطر على وصول النذور ، وانها الآن نائمة تاكل ارزا مع الملائكة فى صندوق النذور . فى المولد ، يلتقى ابو السعود ببعض الناس لهم اقارب فى السوالم ، يحملونه السلام والعتاب والسؤال عن السبب فى الانقطاع ابو السعود يذهب لهم ، يبلغهم السلام ، ويعاتبهم ، ويعظهم ، ويقول لهم : العمر قصير .

يدهش اهل السوالم ، فأبو السعود ، بعد رجوعه من المولد ، بساعة او ساعتين يكون قد الم بكل ما حدث خلال غيابه . اهل السوالم يتراهنون ، ان كان هناك ما يخفى عليه . الرجال يقسمون انه يذهب الى المولد ، تاركا عينه ، واذنه فى السوالم ، حتى يعود

فى العشة ، يجلس ابو السعود ، يصل ما انقطع ، يحكى اخبار الدنيا الواسعة . الرجال تنصت اليه ، الدهشة والاعجاب والانبهار من جديد ، الناس تقول : الليالى بدون ابو السعود ، لا طعم لها ، يؤكدون ، انه ملح الحياة فى السوالم .

الرجال يجلسون صامتين ، بعد ان استمعوا الى حكاية الحكيم مع الملك سالوه عن المهندس ، لم تكن عنده رغبة فى الكلام ، قال : ان حكاية المهندس لم تتضح بعد ، فى الامر سر . قال : اهل السوالم ، يجرون خلف المهندس ، وانه هو ايضا جرى فيمن جرى . يؤكد لهم ، ان سنوات عمره التى مضت ، والصفحات التى قراها ، وكلام الله الذى يحمله فى صدره ، يؤكد حقيقة واحدة ان الدنيا بكل ما فيها . وكرر : الدنيا بكل ما فيها . لا تساوى منا كل ما نفعله فيها .

يقف الرجال حول دكان المعلم يعقوب ، وبعضهم يجلس. امام الدكان ، دكتان من الخشب القديم ، مستندتان الى الحائط ، وفى مواجهتهما مصطبة ، فرشت عليها حصيرة متآكلة الجوانب. ضلفتا باب الدكان مفتوحتان ، ربطت كل منهما بحبل صغير الى الحائط. على واجهة الدكان ، فوق اطار الباب ، فروع شجرة لبلاب ، مشدودة الى اعلى ، تساقطت من فوقها الاوراق ، فبدت عارية . فى داخل الدكان ، لافتة صغيرة ، بهت لونها الاصلى ، تطلب فى ود ناعم من الزبائن الكرام ، الا يحرجوا المعلم يعقوب « فالشكك ممنوع ، والزعل مرفوع ، والرزق على الله مضمون » .

المعلم يعقوب يتحرك بين البضائع فى خفة ومهارة ، يلبى طلبات زبائنه من اهالى السوالم . الساعة من اهم الساعات فى اليوم ، فيها تكثر الطلبات ، يقبل الرجال ، عادوا منذ قليل من حقولهم ، ومعهم مواشيهم ، بعد يوم من العمل . فى منازلهم ، غيروا ملابس العمل ، وركبوا مداساتهم ، وخرجوا ، بعد ان اطمأنوا الى عشائهم . عند الدكان ، يقفون او يجلسون ، وبين الحين والآخر ، تخرج الكلمات من افواههم ، يشتد بهم الحماس ، فترتفع اصواتهم ، وتعلو اياديهم . وفى اثناء جلوسهم ، يدخنون ، يلفون سجائر رفيعة من علب دخان صدئة ، وقد يكون مع بعضهم قروش قليلة ، فى جيب حافظته الجلدية ، فيشترى بضائع ، غير السجائر والشاى والسكر ، رطل حلاوة لاولاده ، روح النعناع لزوجته . عبر الشارع ، يمر الاطفال الصغار ، والنسوة والرجال . المعلم يعقوب لا يتصرف الى جلسائه كلية ، بمجرد ان يحضر احد زبائنه ، فانه يصمت ، يترك الجالسين ، يحضر للزبون طلبه ، فالمعلم يعقوب يعرف كل اهالى البلد ، ويعرف طلباتهم . الشيخ محمود ، علب النشوق ، ابو السعود ، يسال عن اللبان الدكر . وعندما يجده عنده ، فانه يهرش بيده فى قفاه ويضحك .

– اول ما يفرجها ربنا ، جهز لى ورقة منه .

ورداني لا يطلب سوى باكو الدخان ، ان ورداني يأخذ الباكو

بيده . يضغط على منتصفه ، يقربه من عينيه :

– ما توزن الباكو يا معلم يعقوب ، دا احنا بندفع فلوس .

يحضر المعلم يعقوب باكو آخر ، يضعهما فى كفتى الميزان ، ينظران. عينا وردانى ترسعان وتنخفضان مع حركة الميزان البطيئة . يأخذ وردانى الباكو الاكثر ثقلا . حب الدين يحضر الى الدكان ، ويسلم ويسأل عن الحال ، يسأل المعلم يعقوب عن جريدة ونادرا ما تكون عند المعلم يعقوب جريدة ، فالجرائد تحضر بالصدفة . المعلم يعقوب يعرف أن فى البلد رجالا لا يتعاملون معه إلا مع اى بقال آخر، يذهبون الى البنادر، يحضرون مايحتاجونه. فى منتصف الدكان عمود ، معلق فيه الكلوب ، على العمود والحيطان والكلوب واللافتات والدوالبب ، طبقة لزجة سوداء ، فى لحظة الغروب ، الذباب يغطى كل ما فى الدكان . من يمر على الدكان يشاهد المعلم يعقوب ، بيده فوطة كبيرة ؛ وقد اكتسب نشاطا غريبا على سنه ، المعلم يعقوب يقف فوق كرسى فى منتصف الدكان ، ينش الذباب . وفى منتصف السقف ، سلك مدلى ، فى آخر السلك ، صليب ابيض على لوحة سوداء ، تحت الصليب لافتة سوداء ، مكتوب عليها بحروف بيضاء « الرب معين لى » .

الرجال يجلسون ، يتحدثون عن المهندس والبئر وارض وردانى ينتظرون ان يحضر حب الدين ، والمعلم يعقوب ، لم يعلن رايه فى الموضوع ، رغم انه يمنى نفسه ، بأن يبيع الكثير ، بل يمنى نفسه بأن يفتح للمحل فرعا عند البئر . حتى فى ايام الخريف الجافة ، ثمة مساحات فى النفس للأحلام والمنى ؛ ورغم جهامة الحياة وتجردها من كل بهاء ؛ فان الناس يحلمون . المعلم يعقوب يعترف بأن معلوماته عن الموضوع بسيطة . المهندس لم يحضر اليه وهو لم ير اى فرد من العاملين فى المشروع . احيانا يطول الصمت . وتدور عيون الرجال الصغيرة ؛ المكتحلة الصبر والحرمان فى محاجرهم التى بلا رموش . ويحدقون داخل الدكان وسط العتمة ، فى اجولة العدس والارز والفول ؛ وصناديق الصابون وعلب الشاى والسكر . نظراتهم تستقر على المعلم يعقوب وهو يتحرك بين البضائع ، رغم الزحام ، وامتلاء الدكان عن آخره ؛ فثمة طريق يسلكه المعلم يعقوب ؛ يعرفه جيداً ، حتى وهو مغمض العينين ؛ نظرات الرجال تستريح عليه ، يفكرون فى انه رجل ناجح ، وانه يملك الكثير . ويدرك الرجال انهم يحسدونه

الحسد حرام ، انهم يتوبون ، ويستغفرون ، ولا يبقى فى الاذهان سوى صورة ملامح وجهه المجهدة ، ابتسامته الدائمة ؛ سرعة حركته ، ضعف بصره ، النظارة السميكة التى يرتديها بالنهار فقط . انهم يعجبون به ، ويتساءل كل منهم : لحظة تركه الدكان : لماذا لم يكن من حظه ان يفتح دكانا ، العمل قليل والربح كثير. الرجال يقرون ان الدنيا حظوظ ، يقولون لانفسهم : شاعر البلد لا يسليها . الدكان لو كان لاحد من اهل البلد ، لما نجح ومهما فكر الرجال فسيظل النجاح والفشل ، الفقر والغنى ، اسرار لايفهمها أحد . الرجال عقب تفكيرهم فى هذه الامور ، يرفعون عيونهم نحو السماء ، تتبع عيونهم مئذنة سيدى الغريب ، ترتفع النظرات على قوالب الطوب فيها ، وتصعد معها حتى الهلال الفضى، وهو اعلى مكان فيها ، منه تنسحب النظرات الى الخيمة الزرقاء وعند هذا الحد ، فانهم يكفون عن التفكير . العبد فى التفكير والرب فى التدبير ، وفى هذا الكفاية .

ذات صباح ، حضر الى السوالم رجل غريب ؛ استأجر دارا خالية ، سكن فيها . كان رجلا وحيدا ، يخرج فى الصباح ، يدور فى حوارى البلد ، حارة ، حارة ، يجلس على شاطىء ترعة ساحل مرقص ، أو افريز الجسر القديم (لم يكن الجسر قد بنى بعد) . يرمى قطع الطوب الصغيرة فى الماء ، يتسلى برؤية تموجات المياه بعد رمى الطوب ، وهى تبدأ كنقطة صغيرة ، ثم تتسع مع تموجات المياه ، وتتسع ، حتى تصل الى شاطىء الترعة الآخر . فى المساء كان يعود الى داره ، يتذكر الناس ؛ انه كان دائما بمفرده .

« الساعة الخامسة ، لقد حان الموعد . القاهرة ، والساعة فيها الآن الخامسة ؛ الآن تبدأ برامج السهرة ، أيها السادة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، القاهرة تحييكم وتقدم لكم نشرة الاخبار الثالثة » . ينصت الرجال ، الكلمات الغريبة ؛ تسقط على الآذان والقلوب فتحدث فيها آثارا جديدة . فترة قصيرة ، ملؤها هدوء مؤثر ، تستأنف بعدها المناقشات الحامية . وقد يطلب رجل ما من الباقين ، أن يصمتوا لدى سماعه خبرا يعتقد انه هام . يعاودون الصمت ، ولا تطول فترته ، اذ سرعان ما يكتشف الرجال ان الخبر لا يعنى شيئا ، وبصوت منخفض ؛ يخدش احدهم ستار الصمت . كلمة صغيرة ، ويبدأ الحوار . ان ما يشغل وردانى ؛ هو الاسماء التى يسمعها ؛ بلدان ورجال واحداث ؛

اجزاء بعيدة من العالم ، يقول وردانى : انه كان يعرف ، منذ ان ولد ، ان آخر الدنيا من الناحيـــة البحرية هى الاسكندرية ، وبعدها البحر المالح ، الذى يقول عنه الرجال انه بحر بلا شاطىء آخر ، وان آخر الدنيا من الناحية القبلية ، هى مصر ، ام الدنيا فوقها الصعيد البرانى والجوانى . اما هذه البلاد ، التى لا اول لها ولا آخر . البلاد تزداد عددا يوما بعد يوم ، وتزداد اسماؤها غرابة ، مع كل نشرة اخبار جديدة .

— همه بيجيبوا البلاد دى منين يا اولاد ؟

— دى حاجه تحير والله . .

— « شوف ياسيدى — قال ابوالسعود — فى العالم مائة دولة ، كل دولة منهم قد مصر اربع مرات . امريكا لوحدها فيها خمسين دولة ، روسيا كمان خمسين دولة ، والا الصين والهند والسند واليابان ، الناس هناك زى النمل ، تقول يا رحمن يا رحيم » .

عيون الرجال تتسع دهشة ، وانفاسهم المبهورة تملأ الصدور . شىء ما ، مدهش وغير عادى ، يثقل الصدور ، الرجال يدركون ان ما يسمعونه فى نشرات الاخبار ، كل وقت ، اسماء لها معناها . العالم كبير ، وواسع الارجاء . قال المعلم يعقوب ، من خلف البنك وهو يعطى البضاعة لاحد الزبائن : ان الحياة فى كل هذه البـلاد ليست سهلة بالمرة . ادرك وردانى انه حتى آخر ايام العمر ، ثمة اشياء كثيرة لا يعرفها الانسان . وصمم بينه وبين نفسه : ان يعلم ابنه ، ولو وصل به الامر ان يبيع نصف الفدان الذى لايملك سواه

فى بعض الاحيان ، يخلو الدكان من الزبائن ، يقف المعلم يعقوب متكئا على البنك ، يبدو متعبا ، وعيناه تدوران فى محتويات محله وقد ينقل شيئا ما من مكانه الى مكان آخر ، يفرغ من عمله ، يقف فى احدى زوايا الدكان ، يثنى جسمه ، يعاود النظر فى محتويات دكانه . يتجه ناحية الرجال ، يفتح فمه ، يتهيأ للـكلام ، الرجال ينصتون له ، يقول نصائح غالية للرجال . اهل الســوالم كلهم امامه رجال صغار بلا تجارب ، وهو مسئول عن اسداء النصح لهم . ومن المؤكد ، ان احدا منهم لا يناقشه فيما يقوله . الرجال يهزون رءوسهم ، مصـدقين كل ما يقوله لهم . وفى كل مرة ، يكتشفون ان الرجل عاش حياته كلها ، كل لحظة وكل ثانية ، رجل واع وعقر ، لف بر مصر من اوله الى آخره . المعلم يعقوب يسترسل فى سرد ذكرياته ، مغامرات ، سفريات . خرج من بلده

وجيبه خال الا من الهواء ، لف ودار . الرجال يكتشفون ، انهم ينفصلون عن الحياة ، اغلقوا العمر عليهم ، على المكاسب الصماء ، واصبحوا معزولين ، ومع مرور الايام ، ضمرت مشاعرهم ، وضاع من ماء وجوههم سر التجدد الابدى ، جذورهم قطعت ، واصبحت الارض التى ينبتون فيها بلا ماء . والعزاء ، انه فى الاعماق منهم ، بقية من حياة ، موجودة فى قاع وجودهم ، يحسون بومضاتها فى بعض الانفعالات النادرة .

ختـــاما لهذه النشرة ، نعيد على حضراتكم موجزها . انعقاد الاجتماع الاول للمؤتمر الثانى لرؤساء دول عدم الانحياز بالقاهرة ، ٤٨ دولة تشارك فى الاجتماع ، ١٠ دول تشترك كمراقبين .

يذكر اهالى السوالم ، ان مصباح حجرة سيدى الغريب ، كان آخر ضوء ينطفىء فى البلد ، وقبـــل ان ينطفىء ، كان الرجل يجلس ، امامه طبلية صغيرة ، عليها كتاب كبير ، جلده اسـود متين . يقرأ بصوت مرتفع . شبـاب البلد تسمع ما يقرؤه بتأثر عميق ، وبصوت بطىء .

« فى الليل ، على فراشى ، طلبت من تحبه نفسى ، فما وجدته ، انى اقوم واطوف فى المدينة ، فى الاسواق ، وفى الشوارع ، اطلب من تحبه نفسى ، طلبته فما وجدته ، وجدنى الحرس الطائف فى المدينة ، فقلت ارايتم من تحبه نفسى ، فما جاوزتهم قليلا ، حتى وجدت من تحبه نفسى » .

قال الرجال : الغريب به مس ، خلفه حكاية ، يطول شرحها ، وقال الصبية الذين خانتهم عيونهم ، وسرقت نظرة او نظرتين من داخل البيت الذى يعيش فيه ، لايوجد فى البيت سوى حصيرة ومخدة من القش وصندوق خشبى قديم ، وطبلية ، وكتاب اسود ، وصليب معلق على الحائط .

السوالم مهتمة بالرجل الغريب ، اسمه يعقوب ، مسيحى طيب وهو هارب من بلده البعيد فى الصعيد الجوانى ، من ظلم وقع عليه ، وقيل ان الحال هناك لا تسر ، له عائلة وزوجة واولاد ، وقد يحضرهم الى البلد ، ان استقر به الحال .

— الرئيس عبد الناصر يقدم فى خطابه فى افتتاح المؤتمر الثانى ، لدول عدم الانحياز بالقاهرة ، مشروعا باعلان بيـان عن تحقيـق السلام بالتعاون الدولى .

شباب البلد يحادثون يعقوب ، وهو اثنـاء سيره فى حوارى

السوالم . يلقى التحايا على الرجال . يقول لهم بصوت رفيع . « سعيدة » ولا يرد على السلام الا بعبارة « سعيدة مبارك » . يعقوب يعبر حوارى السوالم الآن ببطء ؛ وخطواته المتسرعة ، المتعجلة تغيرت ، وعيونه التى كانت تنظر الى الارض ، اصبحت تحدقان فى كل شيء ، وانحناءة ظهره اعتدلت ، والرجال يتحدثون عنه بحب . والنساء فى السوالم . يتأن لمعيشته بمفرده فى دار واسعة عليه . ويتحول بيت يعقوب الى مكان يسهر فيه الشبان . اهل السوالم يعرفون شرب الخمر ولعب الورق ؛ زجاجات صغيرة . رقيقة الصنع ؛ مرسوم عليها صورة حلوة . فى البداية ، لعب الشبان الورق ، للتسلية وقضاء الوقت . والليل بحر بلا نهاية . الليل متاهات الرجال . والرجال فى السوالم ، يصنعون مراكب من ورق الاحلام ؛ يبحرون بها فى الليل ؛ على امل الا يعودوا بعد ذلك ابدا ؛ سفرة طويلة المدى . ولحظة سقوط الليل. هى لحظة طرح التساؤلات المرة . يبدأ الحوار من طرف واحد ، مع النفس والظلام والبيوت . ان المتزوجين يخافون من العودة الى الفراش . والشبان . تمثل لهم لحظة المساء ؛ ضيقا ؛ فيخرجون من البيوت الى اى مكان . يقترح يعقوب ذات مساء . ان يلعبوا بالنقود ؛ نقود قليلة ؛ يشترون بها اكلا وشربا لزوم السهرة . كان يعقوب يعزم على الرجال بالشرب . تمنع الرجال ، وكانوا راغبين . لم يدم التمنع . كويت حلوقهم . تحششوا . أحسوا بلذة الاكتشاف . تذوقوا شرابا فى طعم المر . انبعثت فى ابدانهم نشوة رائعة ؛ تحرروا ؛ تقطع الشيء الذى يربط اقدامهم بأرض السوالم . فأحسوا انهم يطيرون ؛ يشربون الليل؛ ويضاجعون النجوم . فقد الواقع اشكاله المألوفة ؛ وتحطمت قواعد الحياة الرتيبة ؛ دارت الرءوس .

ــ خمسينه والنبى ياسى يعقوب .
ــ عشرة صاغ لو سمحت .
ــ ع الحساب ؛ بكره تفرج .
ــ شكك لا . ومافيش زعل .

تتحول الحجرة الصغيرة ؛ الى ساحة حرب ؛ المكسب والخسارة المهارة فى اللعب ، حركة الايادى فى خفة ؛ العيون المتعبة من متابعة الورق والنقود وحسابات اللعب والضوء الشاحب . يقول الرجال يعقوب يخسر كثيرا ؛ لا يغضب من الخسارة . تسلى وقت . وفى

آخر الليل ؛ ينصرف الرجال . يعقوب يوصلهم حتى باب منزله . يصافحهم ، يأتى الى اسماعهم . نباح الكلاب ، منتشرا خلال وشوشات النخيل الليلية . يعقوب يقول لهم . بصوت منخفض فى رحابة الليل : « الرب اعطى ، الرب اخذ ، فليبارك اسم الرب فى العالمين » .

تطورت الامور . الرجال يتراهنون على اموال كثيرة ، ويربح يعقوب كل ما مع الرجال . يعقوب يجمع بهدوء حديدى من فوق الطبلية كل النقود . يضعها فى حجر جلبابه . عقله مركز وثابت فى الورق . ويده التى تجمع النقود ، وتزحزحها حتى حافة الطبلية وتدفعها دفعة بسيطة . فتسقط فى حجر جلبابه . محدثة رنينا غريبا ، انه يدرك ، ان كل العيون المحيطة به ، تجلده بنظرات الطمع والدهشة والاستغراب ، يعقوب يرفع عينيه ناحية الرجال، تمسح نظراته غضبهم . وتوقف كلا عند حده . وتساءل الموم ؛ مقاول الانفار . وكان احد ضحايا اللعب مع يعقوب : الا يخاف يعقوب اهالى البلد . وحاول ان يلمح له بذلك ، يعقوب طمأنه ؛ الرجال هنا طيبون ، وقد يثور فى النفوس شيء ما ، ولكنه لايصل الى ضرره او ايقاع الاذى به . فى آخر الليل ، نظرات الرجال ، تتحول حوله الى ينبوع حزن ؛ والكلمات مذبوحة على الشفاه.

ــ تلعب يا الموم .

لايرد الموم . يخرج الورق من جيبه . يضعه على الطبلية ، ويعقوب جالس كما هو . لايبدى فرحا او حزنا . ولا يستطيع احد من الرجال ؛ ان يقرا انفعالاته ، يجلس امامهم . وجه بليد ، لا يظهر عليه تعبير . ويشعر الرجال ، رغم الصمت الموحش ، انهم متفاهمون . فى النهار . يتفقون على ان وجود يعقوب ، خطر عليهم . البيوت اقتربت من الخراب ، نقود الموم التى اتت من لا شيء ؛ ها هى تضيع : ان ضياع جزء من نقود المعلم فى اللعب . يدفع الرجال أن يتطلعوا الى السماء ، وعيونهم مغسولة بالشكر . تعلم حب الدين من المعلم يعقوب اشياء كثيرة ؛ اهمها ان يبيع أرضه ، لا يلعب الورق كثيرا ؛ غير انه ينفق النقود فى اوجه اخرى . لاول مرة ؛ يقف رجل فى السوالم ، كى يقول عن الارض انها لا تترك للناس سوى الخراب ؛ وانها سر الضيق والمصائب وكل البلاء ، حب الدين ، يتكلم بلسان غير لسانه ، كلمات يعقوب يقولها حب الدين دون خجل ؛ وسط الناس . الرجال يحلفون

الايمان ، بأنهم لن يذهبوا الى منزل يعقوب ابدا ، وبعد العشاء ، بعد أن تستقر مربعات الظلام فى قيعان الحارات ، فان الرجال يرتدون ملابسهم ، يقولون لاولادهم : انهم ذاهبون الى الجامع للصلاة ، وهم يعلمون انهم يكذبون ، وبمجرد ان يسلموا انفسهم للحارة ، فانهم يتجهون الى منزل يعقوب .

ـ يامرحب بالبلديات .

حبهم لمنزل يعقوب كالقدر ، لا فكاك لهم منه ، يكرهونه ، غير انهم يذهبون اليه كل مساء ، الناس تقف ضده ، كلهم ضده ، احد منهم لم يستطع مواجهته ، تواعد الناس على حرق منزله ، نسوا الوعد . للوم ، حلفت عليه امه الا يذهب الى منزل يعقوب ، حدثته عن المستقبل والنقود وتحويشة العمر ، اغلقت عليه الباب وجلست خلفه ، قالت له : ان كان يريد الذهاب ، فليقتلها ، فهى لا تحب أن ترى ايام زمان . وخير لها ان تموت . للوم يجلس فى المندرة بالقميص والصديرى يدخن ، يعمل الشاى لنفسه ، يشرب الجوزة ، يحدق فى حائط منزله ، يعد اكواب شاي فى سواد ومرارة ايامه ، ينظف اسنانه بعود كبريت ، ينتفض نجاة :

ـ يعقوب بينادينى يا امه ..

يلبس جلبابه ، يركب مداسه ، ياخذ عصاه فى يده ، يخرج ، لا يكون هناك يعقوب ولا غيره ، وحتى امه لا تعرف السر فى تركه يخرج . يقسم أن يكون اللعب هذه المرة للتسلية . فى حمى اللعب ينسى . نفدت نقود حب الدين وللوم ، وكان يعقوب يعد نقوده فى هدوء .

ـ العب يا يعقوب .

ـ علق .

صمت حب الدين ، هرش شعر راسه .

ـ العب على نص قيراط ارض .

ـ لا ياحبيبى ، فلوس وبس .

ينهار حب الدين ، يقول لهم يعقوب : انه لا يلعب الا على النقود ، يضحك ، يضع الورق على الحصيرة ، يمر بيده على وجهه المجهد من اثر السهر كل ليلة ، يريح ظهره على الحائط ، ويستاذن الرجال فى ادب ان يمد قدميه على آخرهما . يقول للرجال حوله ، انه حدث مرة ، ان راهن عامل فى محطة السكة

الحديد . بعد منتصف الليل ، اثناء اللعب . لم يكن هناك سوى انوار البلوك فى المنطقة ، ثم الظلام والصمت . كان الرهان ، ان يحلق المهزوم نصف شاربه بموسى على الفور ، لم يكن معه نقود ، احضر الموسى ، وقطعة من الصابون وقليلا من المياه ، ايادى لرجال ترتفع الى شواربهم الكثة فجاة . يتحسسونها . يتأكدون من وجودها .

ـ وبعدين ، حصل ايه ؟

ـ حلقت نص شنبى .

من الامور المألوفة الآن ، ان يشاهد الشيخ محمود ، اثناء ذهابه الى الجامع ، لصلاة الفجر . منزل يعقوب مضاء ، من ينظر من النافذة ، تطالعه ، وجوه مسهدة ، وعيون ذبلت من السهر . لقد تعود الخفراء ، اثناء سهرهم فى الليل ، ان يشاهدوا يعقوب ، يسير بعد منتصف الليل ، مع احد الرجال ، يذهب معه الى منزله ، يعودان بعد قليل ، يسيران متلازمين ، يفهم الرحال ، ان الرجل نفدت نقوده ، فطلب تأجيل اللعب حتى الصباح ، يعقوب يامره ان يذهب الى منزله ، كى يحضر نقودا ، ان كانت هناك نقود . وعند ما يدعى الرجل الكسل ، فانه يقوم معه على الفور

ـ حصل منك حاجات كثيرة يا يعقوب .

ـ غير صحيح ياعمدة .

ـ تسببت فى بيع ارض حب الدين سرحان .

ـ دا راجل ومسئول عن نفسه .

ـ الرجاله بتشرب الخمره عندك .

ـ اللى يعمل غلط يتحاسب عليه .

ـ بتفتح بيتك لغاية الصبح .

ـ طول عمرى متعود على السهر ، انا باحب الليل اكثر من النهار ياحضرة العمدة .

ـ بتقرى الولد حب الدين فى كتابكم طول الليل .

ـ هوه اللى بيقرا .

ـ يا يعقوب امش كويس ، احسن لك .

ـ شوف يا عمدة ، انا عمرى مارحت لحد بيته ، ولا عمرى مابعت لحد فيهم علشان ييجى عندى .

ـ مويس تشومبى يصل الى القاهرة فجاة ، فى محاولة لحضور

المؤتمر الثانى لدول عدم الانحياز ، المؤتمر يتخذ قرارا بعدم حضور تشومبى الى المؤتمر .

يسأل الرجال عن تشومبى . يتحدث فتحى سالم . كلمات قليلة هى التى فهموا معناها . باقى كلمات فتحى سالم سماء ، لايفهمها احد ، تصل الى الآذان ، ولكنها لا تعنى اى شىء بالنسبة لهم . يقول فتحى سالم ، تشومبى هو الذى تسبب فى قتل الزعيم الافريقى باتريس لومومبا ، وانه يعادى الثورة . من المفروض أن يذبح فى القاهرة ، بعد أن يدوروا به فى الشوارع أمام الناس . يقول ابو السعود : انه يتكلم بألف لسان ، انجليزى . فرنساوى . وشكله اسود فطيس ، وانفه مثل قرن الفلفل الكبير الافطس .

ان يعقوب يتذكر انه بعد ان حضر الى السوالم ، سأل عن المسيحيين فى البلد ، وذهب اليهم ، اكثرهم علما ، سأله من اى طائفة هو ؟ اجابه يعقوب مازحا ، انه من الانجيليين ، عرف باقى المسيحيين ذلك ، تجنبوه ، وخافوا منه ، رفعوا اياديهم الى صدورهم وجباههم ، راسمة علامة الصليب . حاول يعقوب ان ينفى ذلك ، لم يصدقوه . قرروا ان يبلغوا قسيس كنيسة الضهرية ، خبر وصول يعقوب الى السوالم ، اهالى السوالم لم يفهموا السبب فى الخلاف ، يعقوب وحده ، وباقى المسيحيين ، كانوا يفهمون . وبعد ذلك ، فان يعقوب ، الذى لم يعرف الغضب ابدا ، كان يسأل عنهم .

ـ الجمهورية العربية المتحدة ، تحدد اقامة مويس تشومبى ، فى قصر العروبة .

ذات مساء ، حرق بيت يعقوب ، شب فيه حريق ، اندلعت السنة النيران كعيدان الغضب فى قلب الليل . قالوا ان احد الرجال الذين كويت قلوبهم من خسائر كل ليلة ، حرقه . احضر الرجل ، ولا احد يعرف من هو ، جوربا قديما ، حشاه بقطع قماش ، نقعه فى الجاز يومين ، اشعل فيه النار ورماه على سطح المنزل ، ظن الناس ان يعقوب تحول الى فحمة سوداء ، اكتشفوا بعد اطفاء النار ، ان يعقوب غير موجود فى المنزل . فى الصباح ، عرفوا الامر ، سافر يعقوب بالامس ، ساعة الفجر الرمادية المرحشة ، بعد اللعب وحسابات الربح والخسارة الى بلاده . عاد بعد عشرة ايام معه زوجته واولاده ، لم تسهر من بعدها ، لم تعتب قدم غريبة باب منزله . بنى لنفسه منزلا ، وفتح دكانه ،

وملأه بالبضاعة من النقود التى كسبها من اللعب ، اما هو فيقول انها ثمن قطعة أرض ، كان يمتلكها فى البلد ، باعها ، ثم احضر اولاده .

لاحظ الرجال : ان جسم يعقوب ، اصبح اكثر امتلاء ، وملابسه اصبحت نظيفة على الدوام ، الرجال ينادونه بالمعلم يعقوب . وفى صباح الاحد ، لم يكن يفتح دكانه ، كان يرتدى افخر ملابسه ، يخرج من الصباح الباكر هو وزوجته واولاده يذهبون الى الضهرية . لحضور الصلاة . لم يكن فى السوالم قبلى او بحرى شايمه أو ششت لانعام أو دميسنا كنيسة . الكنيسة الوحيدة فى المنطقة كلها ، هى كنيسة الضهرية .

المعلم يعقوب من احب اهالى السوالم . وتربطه بباقى المسيحيين علاقات ود ، يلتقون امام دكانه مساء السبت ، يتحدثون عن المسيح والصليب ، الابن والاب والروح القدس . العذراء مريم ، تهيم النفوس مع كلماته ، تملأ المآقى بالدموع ، وتشهق الصدور ، ويهيم الرجال مع الكلمات ، ان العواطف تشتعل من بعضها مع الكلمات . والمعلم يعقوب ابن نكتة ، حتى الذين كرهوه ، لم يملكوا الا ان يعجبوا به .

الصمت يرين على الرجال ، والليل احتواهم بداخله . العيون والقلوب والايادى غمست فى سواده وصمته ورهبته . استمعوا الى نشرة الاخبار ، وتحدثوا حتى تعبوا ، شربوا الشاى ، انهم فى جلستهم لا يبدو منهم سوى انصافهم . ومستطيل الضوء الخارج من دكان المعلم يعقوب ، يفضح المارين فى الشارع ، والمارون يسرعون بمجرد دخولهم فى منطقة الضوء ، وفى نفوسهم الحسد ، حسد الجالسين على الدكك والمصاطب ، فالجالسون فى الظلام ، يرون المارين ، المغسولين بالضوء . المعلم يعقوب يقف خلف البنك ، يرفع يده الى جبهته ، حاجبا النور عن عينيه ، حتى يستطيع ان يرى الرجال .

ـ ايه أخبار البئر والمهندس والبترول ياسى حب ..

تتجه انظار الرجال الى حب الدين ، يلمع فى العيون ، رغم الظلام ، بريق ابيض . حب الدين كان يريد ان يتكلم منذ ان حضر ، هذا هو سبب حضوره . بعد أن سأله المعلم يعقوب احتار اذا سيقول ، وجاش فى وجدانه احساس بأن الامور ستكون على ما يرام ، وبعد ان يتدفق البترول . ذلك أصبح قريبا منهم . انه

على وشـــك الحدوث . فتح حب الدين فمه على آخره . بدا للرجال ، قاع الفم والاســنان واللسان وحمرة الفم . لم تخرج الـكلمات ، فوجىء حب الدين . بان كل شىء مختلط بداخله ، وبانه سعيد ، وان الرجال يجب أن يغنوا للبئر والبترول والمهندس

– ما تتكلم ياسى حب .

– ما تقولشى الواد ملك البسيطة .

– حاقول ايه يا رجالة ، الحكاية عال والحمد لله .

– تستاهل – قال اكتر من واحد – الحمد ياسيدى . .

بدا الحديث ، وكانه يحدث نفسه ، الرجال سكارى بكلمات حب الدين وظلام الليـــل الريفى الدافىء المعطر . بدا لهم البئر وعصمت والبترول . مكافاة بسعادة أتت بعد صبر طويل . ايصال محدد . حصلوا عليه منذ أن ولدوا . بأيام هنيئة ، قد يعيشـــونها ارتفعت الايادى ، وكان حب الدين يتكلم . صمت . حاول الرجال أن يكملوا الحديث . وفى مثل هذه اللحظات ، عندما ينظر الرجل بداخل نفســه . فيجد سديما كاملا ، عالما ضبابيا مهوشا من الحزن والغبطة والفرح والحبور والجنون ، الـكلمات تخون الرجال .

ضحك المعلم يعقوب .

– يعنى خلاص . ايام الفقر ولت .

الرجال يملأون صـــدوررهم بحديث حب الدين . ويغمضـــون عيونهم فى الامانى والاحلام . قال كل منهم لنفســـه : خلاص . وتنحنح فتحى سالم ، وضع ساقا على ساق ، قال موجها كلامه الى حب الدين . ان العائد من المشروع ، يجب ان يكون لمصلحة البـلد . الارض أرض ورداني ، حب الدين له دور فى خطوات المشروع . رد عليه حب الدين ، كان قد أفاق من سكر حديثه عباراته الموشاة برائحة الاصيل المعطرة بماء الكافور الملونة بزرقة لحظـة ولادة الفجـر على صـــفحة الســماء ، قال ان الموضـــو سيدرسه المهندس ، سى عصمت . قال حب : المهنـــدس نـكلا معه وعلى الرجال ان يطمئنوا . قال المعلم يعقوب ، بعد نجاح المشروع ، وتدفق البترول ، قد يأخذ احد الرجال أكثر من غيره لابد وأن يكون هناك مظلومون ، وبعدد المظلومين ، فهنـــاك ظالمون فى نفس الوقت ، تلك طبيعة الحياة ، المعلم يعقوب ، يعتقد ا اقل نصيب ، سيكون خيرا من الحال الآن .

– الحال سيىء يا جماعه ، حد عارف الدنيا ماشيه ازاى

قال حب الدين : ان المهندس افهمه ان الشركة ستتولى كل شىء ، الضرائب ، المبانى وكافة الانشاءات المطلوبة لتحويل السوالم الى مدينة تسبح فى النور بالليل ، لابد من تحسين حال الناس ، وبناء المستشفيات والمدارس والمصحات والمرافق العامة بكافة انواعها . ودور العبادة واللهو وقضاء الوقت والحدائق والمكتبات . كل هذا خير للبلد . فتحى سالم يقاطع حب الدين ، يطلب من المتحدثين السكوت .

– انا باعترض ، على جملة امور فى الـكلام .

يصف كلام حب الدين بالخيانة لمصلحة البلد ، مسألة الظالم والمظلوم لايمكن ان تقبل ، العدل بكل صوره ، حق مبدئى لـكل الناس .

انا احذر – قال فتحى سالم – باسم الناس ، الاتحاد الاشتراكى حايصفى المشروع ، لو حصل فيه اى انحراف ، استطيع ان انفذ كلامى د كويس ، فاهم ياسى حب . ولازم تفهم المهندس بتاعك الـكلام ده .

لم يرد حب الدين ، قال المعلم يعقوب . ان فتحى سالم متهور وعنده ظروف خاصة مؤلمة ، وغير واقعى فى تفكيره ، العدل والظلم والانحرافات مسالة وجهات نظر .

شوف يا فتحى ، ياسى فتحى . ياســيد فتحى ، يا استـــاذ فتحى ، يا فتحى بيه ، ياجناب العضو المحترم – حب الدين هو المتحدث – اللى عنده اكثر من خمسين فدان ، معناه وجود تسعة واربعين غيره محرومين من شبر ارض ، ودا حقهم ، اللى معــاه اكثر من عشرين جنيه فى محفظته ، معناه حرمان اكثر من واحد من وجود مليم فى محفظته .

– لازم ابلغ عنك ، انت علشان سقطت فى الانتخابات اللى فاتت الناس عارفاك .

لم يعلق المعلم يعقوب على كلام فتحى سالم ، الرجال ينصتون بدهشـة ، وحب الدين لايرد على فتحى سالم الذى يشعر بشىء يهدر فى داخله ، انه الفراغ المتوتر بعد ان قال كل ما عنده وعاد الى جلسته ، قال فى ترفع ، وبصوت عال تعمد ان يسمعه الجميع

– عموما ياجماعة ، انا ملتزم بتعليمات اللجنـــة ، والا كنت قلت كل حاجه ، انا مش حا اعلن عن الاجراءات اللى حا اتخذها. انما الميه تكدب الغطاس .

امل حديثه :

– ثم ان ياسى حب ، كلامك دا معناه ايه ، الناس تهجم على بعضها ، هجوم الكل على الكل . الغنى غنى والفقير فقير . اتولدنا كدا ، دى حكمة ربنا ، عايز تغير الكون ، تعيد تنظيم الدنيا ، انا نجحت فى الانتخابات وانت سقطت . فيه فى السما رب ، وفى مصر حكام ، أولو الامر . اللى الدولة شايفاه بتعمله . الواحد منا ينام ويحط فى بطنه بطيخة صيفى ، اللى يعملوه فى مصر صح ، لازم يكون صح ، هوه كدا صح من غير مناقشة ؛ واحنا نفهم ايه ، وانت تفهم ايه . اللى هناك حكام ودا شغلهم . وعموما الكلام اللى قلته دا مش كلامك ، وانا حا اربى اصحابه واربيك .

صمت الرجال مشحون ، ملىء بالتوتر ، وفى نفوسهم تثور الاحلام المحنطة والامانى المؤجلة .

– اختلفوا ، واتعاركوا ، واتناقشوا ، المهم كل دا حا يحصل امتى ، احنا بنتفرج لغاية النهاردة .

الكلمات تخرج من فم أبو السعود ، منحوتة من حبة القلب ، هل سيجد الرجال ما يطلبونه ، ومتى سيأتى اليوم . قال حب الدين ، انهم رغم كل ما يحدث ، فان تدفق البترول فى أرض وردانى ، سيفعل لهم ما هو اكثر من اى تصور . وطار فى العيون طائر الاحلام حاملا معه كل شىء فى حياتهم ، وسقط فى منتصف الطريق ، ولكن الرجال ، ندبوا حظهم ، تباكوا احوال العالم ، ونسوا ، انه كان طائرا مكسور الجناح .

حياة الرجال ، بكل ما فيها ، بلدهم واولادهم ، ارضهم ، احلامهم الخريفية المعتمة ، حرمانهم ، تقف الآن ، وتتحول الحياه بكل ما مضى ، بكل ما هو آت ، الى هذه اللحظة . فتحى سالم يحاسب نفسه ، ويقدر انه لابد من ابلاغ المسئولين ، حتى يقف حب الدين عند حده . لقد ارتاح الى انه لم يسكت ، وتكلم بكل شرف ونزاهة ، وكان ملتزما بالتعليمات . وتوعد الناس ، قال انهم كلاب يميلون الى حب الدين ، وتمنى أن يأتى يوم يخنق فيه كل الناس ، ويكون كل شىء بيده ، الاكل والشرب والتدخين وحتى التنفس ، وعندئذ سيعرف الناس ، من هو فتحى سالم ، ويعملون له ألف حساب وسيكون الكلام فى حضوره بحساب ، ولا بد وأن يعرف الرجل ما سيقوله قبل النطق به .

صمت الرجال ، يتحول الى صمت هادىء ، هدوء ناتج عن احساس بالرضا عن كل ما فى السوالم ، وقد لا يدوم هذا الرضا مساحة الليل فقط ، غير انهم سعداء بلحظات الرضا الصغيرة ، على امتداد العمر الطويل .

احس الرجال ، ان الجلسة اوشكت على الانتهاء ، لم يعد ما يقال ، قاموا من اماكنهم ، قالوا كل ما كتموه فى نفوسهم . ضحكوا ضحكات موشاة بالحبور . بالطيران فوق الارض والناس والاشياء ومشاكل الحياة اليومية . قالوا النكات ، سألوا عن أثمان الحبوب واخبار الجمعية التعاونية ، واسعار المواشى فى السوق ، تحسسوا اجسامهم . مدوا اقدامهم على آخرها ، رفعوا اياديهم فى الهواء . قالوا ان الجلوس يضر بالجسم . ضحك ابو السعود ، قال ان ابناء السوالم اهل ضيق ، ولا ينفع فى الناس سوى الشغل الحمارى ، من اول النهار الى آخره وان الراحة لها ناسها فى البنادر . اهل السوالم يموتون من الشغل ، والناس فى البنادر تموت من الراحة ، فتعجب من حال مصر .

– واهى دى احدى العجائب السبع .

ضحك الرجال من كلام أبوالسعود ، اخذوا من دكان المعلم يعقوب ما تحتاجه المنازل ، شاى وسكر وجاز ودخان وورق بفره ، وتناثرت الكلمات بين الرجال ، وعادت الضحكات الى الشفاه ، واضحى الليل امام عيونهم موشى بكثير من المسرات ، وافترق الرجال ، سار كل منهم الى منزله ، ذهب بعضهم الى الجامع ، او عشة سلسبيلة او الى دوار العمدة . قام حب الدين ، نفض ملابسه من التراب ، سلم على الرجال الباقين ، قال له المعلم يعقوب ، وهو يحتوى يده بين كفيه ، وبهزها ضاحكا :

– الرب معين لنا جميعا .

تعليق على ما يحدث في العالم

عشة سلسبيلة مرة اخرى ، الرجال يجلسون . الوقت بعد العشاء ، حب الدين لا يملك القدرة على مواجهتهم ، على ان تلتقى العيون فى صمت مبلل بالاسى ، ما يشغل حب الدين ، ان يبلغ هؤلاء الناس ، الرجال الجالسين حوله ، ما قاله المهندس . حب الدين لايتصور ان تصل الامور الى هذه الدرجة . انه صامت . تتسال امام عينيه الاحلام ، وبين شفتيه ينام عقب سيجارة . كان ذلك امرا محتوما . انطوى النهـــار ، وملامح الرجال هادئة ، السوالم تبعث لهم بروائح المساء ، روث البهائم ، الارض الجافة ، الزيت المحروق ، التوابل والدهن والدخان ، احتـراق الخشب والحطب ، والقوالح ، الميـاه المرشوشـة على الارض فى الحارات والشارع الرئيسى .

قال حب الدين للرجال : ان المهندس تحمت . سيحضر الى العشة بعد قليل ، لم يقل له السبب . حب الدين يخمن الامر . قد يرحل المهندس عن البلد ، بعد يوم ، او يومين على الاكثر .

ــ وكاننا يا بدر .

ــ لا رحنا ولا جينا .

لا يصدق الرجال . وتدرك سلسبيله خلف النصبة ، وهى تعد الشـاى وترص المعسل . ان كل شىء قد يؤجـل العمر كله . الرجال صامتون ، يدركون ، ان الارض ، تلك الرفيقة القديمة قدم العمر نفسه ، ليست شيئا عاديا ، وانه فى تلك المسـاحة الصغيرة ، التى يملـكها ورداني ، يكمن سر الاسرار . بعد ايام . تعود الارض الى وردانى ، وتردم البئر ، يرمون بداخلها الامانى . وكل ما كانوا يطلبونه ، يرمون بها فى قاعها المعتم ، ثم يردمون عليها بالطين . وعندما يشق سن المحراث باطن الارض ، وتبـذر البذور فى رحمهـا ، وتأتى الشـمس والهواء والمـاء ، وتتعاقب الايام والليالى ، فانه يحدث ذلك الشىء الهائل ، الدائم الحدوث ، ينبت زرع اخضر لامع الخضرة من وسط حبـات الطين ، ويتحرك مع هبات النسيم . السر سيظل فى باطن الارض . الايام تمر ، يولد

الاطفال ، يكبر الصبية ، تنمو لهم شوارب كثة . يحبون ، يهيمون لحظة الغروب فى الحقول ، يتزوجون ، يموت الرجال . يدفنون والسر فى باطن الارض . وقد يكون البوح ذات يوم . او يمضى العمر كله ، وسر الاسرار ، فى مكان ما ، تحت الارض السابعة .

ــ الموضوع فيه ملعوب .

يقول لهم : ان حامد ابو الليل ، من اهالى الضهرية . كان يتكلم بالامس عن المشروع ، وقال ان نتائج المشروع لن تعود على السوالم فقط . ستتعداها الى البلاد المجاورة ، يقول ابو السعود : انه سمع فى البلد . المسالة مسالة علم . وما دامت الشركة قد قامت بكل هذه الجهود . فان وجود البترول حتمى وبكميات كبيرة . ابو السعود يتكلم ، لايرد عليه احد . الصمت مرة اخرى . فى المساء ، ذهب الرجال الى الحقل . وقفوا حول الحفر القديم . جلسوا على التراب الاسمر الداكن ، هبت عليهم نســمة هواء خريفية باردة ، نظروا الى السماء ، فاستقرت فى نفوسهم زرقتها الداكنة . امسكوا بقطع الطوب الصغيرة ، نظروا . تمعنوا فى الحلم القديم . احسوا بالعجز . الارض واجهتهم بامر لايمكن لاى منهم ان يفهمه . لن يقتنع اى رجل ، بما يقال له . الرجال يفكرون فى الامر ، ومن الصعب ان توجد فى عقولهم فكرة ، انه لا بترول ولا ارض ولا احلام ، وهم يدركون انه من المستحيل عليهم العودة الى ما كانوا عليه . ايقظ حضور المهندس اشياء كثيرة ، كانت قد ماتت . قطعت جذورها . حجبوا عنها الماء وطراوة الارض . لدرجة انهم تصوروا ان الامور انتهت . حضــــور المهندس الى السوالم . قلب كل الموازين .

وردانى يجلس بينهم . وهو يدرك ان ارضه لم تبح بسرها ، انه سـعيد ، ويمنى النفس بالحظ . فجاة تتغير حاله . فى الحلق غصة . وفوق القلب هم ثقيل . وردانى لم يتأكد من المسالة . ويسال نفسه : اين الصالح فى الامرين ؟ يقول وردانى : قد اصل الى السر ذات ليلة ، ثم يعود ويقول : انه لن يكون اكثر من المهندس ولعله والورق والقلم . بخلت الارض بما عندها . وردانى يدرك ان الارض لم تعد ارضه . ارضه كانت مساحة مستوية من الخضرة والسواد . اما الان . فالتى هناك شىء آخر .

ــ انما الحكاية مش داخله دماغ حد .

ــ دا زمن الاعاجيب .

ـ لا ولسه ياما نشوف .
ليلة الامس ، عاش وردانى ليلته ، كأنه يعيش معركة ضد اعداء كثيرين ، لوثوا ارضه وحياته . بقع زيت ، أماكن دق الاوتاد ، آثار عجل السيارات ، مكان المظلة جراح تملأ ايامه . كان عليه ان يحاربهم ، ابعدوه عن ارضه ، ربطوه الى شجرة فى ارض مجاورة راحوا يخرجون له السنتهم ، ضحكوا عليه . وردانى يكتشف انه غير مربوط ، غير انه لا يستطيع حتى ان يتحرك من مكانه ، وفى الجو ، كانت رءوس الناس مقطوعة ، وعلى الطريق، الايادى والارجل وقطع الاجساد ونقاط الدم .
ـ ايه يا وردانى .
ـ هيه .
يرفع وجهه للرجال ، فى الغد يتسلم ارضه ، يعود اليها مرة اخرى . قال ابو السعود ، وهو يتكلم جادا بلا ضحك : مما دفع الناس الى الانصات له . ليلة الامس تأخرت فى نومى ، سهرت كثيرا . الرجال ينصتون . كان ينام بمفرده ، وكان الناس أكلون لحما نيئا له رائحة ، الايادى يقطر منها الدم ، بين الاسنان لون احمر قان . كان هناك شخص ما يدور على الرجال ، يعطيهم اللحم بغيرحساب ، يؤكد لهم ان هذا الشخص، هوالمعلم يعقوب ، بضيف ، ان امر الشخص محير ، مرة المعلم يعقوب ، ومرة فتحى سالم ، ومرة ثالثة العمدة . استيقظ من نومه وهو يستغفث الى الله تعالى ، الا يكون هذا الكلام صحيحا .
ـ فال الله ولا فالك .
قال ابو السعود : اللحم النيىء فى الاحلام فال سيىء ، السوالم تنتظرها ايام عصيبة . سلسبيلة تجلس خلف النصبة هادئة ، حزينة . تنصت لكلام الرجال ، وتدرك أن هواء العشة الليلة ، غيرنقى وانه ملىء بأرواح غريبة لدرجة انها تشعر بالزحام فى العشة
ـ يا ناس فضكوا من دى سيرة .
كل الرجال ، يريدون هذا من قلوبهم ، حديث الامانى ، شىء مختلف عما يقومون به الآن . الحال لن تطاق ، يتعاهدون على الكلام فى موضوع آخر ويحاولون ، يختارون موضوعا بعيدا ، يتحدثون، يسرحون مع الكلمات ، وتثقل الالسنة ، وتلوك الاحرف ، وفى النهاية فانهم يعودون رغما عنهم ، الى الموضوع الرئيسى .
يسمعون نحنحة ، صوت واضح النبرات ، على باب العشة :

ـ يا ساتر .
ـ اتفضل .
ـ مساء الخير يا رجاله .
المهندس ، بمفرده . يدخل العشة ، يسبقه عطر ، يقف الرجال المرة الاولى التى يدخل فيها للعشة ، وربما كانت الاخيرة . سلم على الرجال . شاب ممتلىء ، يتمتع بصحة جيدة ، ملابسه نظيفة ومكوية ، على وجهه بسمة عريضة . اخيرا يقف عصمت فهمى النجعاوى امام سلسبيلة على الله : تربط بينهما خيوط من الضوء والرغبة والحزن ، يقترب منها على مهل ، يرفع يده ، تتسع عيناه دهشة ، يفتح فمه ، يرين صمت على العشة ، وعلى الرجال .
ـ انت سلسبيلة ، اهلا ، سمعت عنك كثيرا .
يكمل وهو يسلم عليها :
ـ الحقيقة ، كان نفسى اشوفك من زمان .
تنام يدها الصغيرة ، بين كفى المهندس . يذكرها دفء اليدين بأشياء كثيرة دفعة واحدة . يوقظ فى النفس الحزن والالم والذكريات . تستريح نفسها على وسادة الصوت الحنون . تستقر يدها فى راحة كفه . لا ترد عليه ، تفعم الكلمات نفسها بالرجاء ، يجيش فى وجدانها احساس بالغربة ، وتتصور ، وهى تنظر اليه ، شوارع القاهرة ، موجات المياه المرتفعة فوق سور الكورنيش فى الاسكندرية ، اعلانات الامبادير التى تنطفىء وتضىء ، رائحة الشواء والدخان الخارج من أبواب المحلات بالليل، الاضواء ، السيارات ، العشاق فى شوارع الزمالك المظلمة ، السيارات الواقفة على جانبى طريق المعادى بالليل ، الهمسات والتأوهات والملابس الملقاة فوق المقاعد ، مناجاة ابن الجيران ، المقاهى المزدحمة ، شارع عماد الدين لحظة خروج حفلة تسعة من دور السينما . معاكسات الشبان ، كلمات الغزل ، ثرثرة السكارى فى البارات .
ـ انا ماكنتش فاكرك حنوه كدا .
حديث المهندس يتحول الى نغمة اشتياق عالية ، ترتعش لها النفس . وفى هذا المكان النائى ، البعيد ، المظلم ، فان سكر يتضح لها الآن ، ومع كلمات المهندس ، كل الاكاذيب التى عاشت عليها فى الايام الماضية . ويسبح القلب فى ابخرة الغضب .
ـ تشرب ايه يا باشمهندس ؟

— طلبه على حسابى ..
— على حسابى انا ..
— عنكو ، انا اللى عازماه ، احنا الاتنين غرب ..

سكت الرجال ، واحست بحنين فى داخلها وهى تتحدث عن الغربة :

— اسمعوا يا رجالة ..

يجلس الرجال ، يجلس المهندس ، وسطهم ، ينصتون له . يبدأ حديثه ، سكر تقول له : انه ضيفها الليلة ، وانها سعيدة به ، الرجال ينظرون اليها ، تقول ان الليلة ، ليلة فرح ، وان القلب ينفس عن نفسه الحزن والصدا . تقوم سلسبيله ، تسوى ملابسها ، وتدرك كم هى رائعة ، وتلعن السوالم وحب الدين ، وايامها التى مضت ، تمسك بيدها صينية صفراء ، عليها كوب شاى وكوب ماء ، تقترب منه :

— اتفضل يا زين الرجال ..

فى حديثها بحة إلم . يخرج الصوت من عمق الفم ، فيهتز له الجسد ، تدوس على أرض العشة ، تقترب من المهندس ، تشم فيه رائحة رجل ، بقايا العرق ، رائحة التراب ، الملابس التى لم تنظف ، الشعر المبلل بالمياه . تعود سلسبيله ، فى حركة بطيئة ، الى مكانها خلف النصبة ، وهناك تجلس ، تطفىء الوابور ، تمد يدها تسكت الراديو ، تتحول الى عينين تنظران الى المهندس .

— احنا بنشوف بعض لآخر مرة الليلة .

أكمل المهندس كلامه ، قال لهم انهم لايجب ان ييأسوا . البترول موجود ، كل الذى حدث ، هو تأجيل المشروع فترة من الوقت ، حتى تكون هناك كمية بترول كافية . ما يهمه هو أن يؤكد للناس وجود البترول ، قد يختلف معهم فى اكثر من شىء ، والاختلاف امر مشروع ، هناك امر لاسبيل الى الاختلاف فيه . وهو وجود البترول .

— دى حاجه تلخبط ياعم ..
— فيه حاجه هنا اتغيرت ..
— مستحيل نعيش تانى ..
— كنا متأكدين من وجود البترول .

لايستطيع المهندس أن يرد على تساؤلات الرجال ، الكلمات مبللة بالرجاء ، ناطقة بمدى ماوصل اليه الرجال فى الايام الاخيرة ،

أحس المهندس بالذنب . قال الناس لاذنب لهم فيما حدث . قال كلاما كثيرا . كل شىء على ما يرام ، لو شاهدتم حال غيركم ، لادركتم ان حالكم احسن من سواكم . قال : ان ابن عمه فى البلد ، كان بلا حذاء ، ولسبب ، هو ان اصبعا من قدمه اليمنى كانت مقطوعة . كان ابن العم يبكى ، يملأ ايامه ولياليه بالدموع . واشمعنى آنى يعنى ، هوه انا كنت عملت ايه . ظل الشاب يبكى ، يعيش حياته بمرارة والم . يقول المهندس ظل ابن العم هكذا . حتى ذهب الى مستشفى المركز . وعلى باب المستشفى ، شاهدا معا ، امام باب مستشفى المركز ، شابا آخر ، بلا قدمين . ان اهله يحملونه الى المستشفى . يقول المهندس ، ابن عمه عاد الى البلد على الفور ، قال لاهله : انه شاهد ، من هو اسوأ منه . وعند هذا الحد ، أدرك ان حالته لا تستحق حتى البكاء .

الحال هنا قال المهندس : احسن من بلاد اخرى ، باجماعة انا من الفلاحين . فلاح ابن فلاح . حالتكم دى أحسن ، انا باحسدكم . البترول مهم دا صحيح ، انما دا اللى حصل .

يقول لهم : انه سيعود لهم ذات يوم ، الرجال يجب ان يذهبوا الى حقولهم ، من الصباح الباكر ، لننس ما حدث .

— بس ازاى يا باشمهندس ؟
— مش ممكن .

قال لهم : لنعتبر ما حدث كان كابوسا ، او حلما . ضحك المهندس ، فلتكن حكاية مثل حكايات ابو السعود ، التى يحكيها فى الليالى الطوال . الرجال يشعرون بكراهية نحو المهندس . ما طلبه من المستحيل تنفيذه . يقول المهندس : انه يحب السوالم ويعتبر نفسه جزءا منها ، خاصة وان البلد فيها رجال ، مثل حب الدين والملوم وابو السعود والمعلم يعقوب وفتحى افندى سالم. بقى أن يقول لهم والعمدة وشيخ الخفر . قال لهم : ان عشة الست سلسبيلة عزاء لكل الناس ، وهو يتحسر على الايام التى مرت ، لانه لم يعرف طريقه الى العشة الا الليلة .

يا شماتة اهل البلد والبلاد الثانية فينا .

سلسبيله تجلس فى مواجهة المهندس ، تحدق فيه ، تشرب كلماته . انها تصحو الليلة من حلم طويل ، من نومة عمرها مائة الف يوم . الناس تنظر وعلى وجهها يستريح احساس مريح ، انها تحرك عينيها الواسعتين ، وتمر على الرجال . وكل رجل

يؤكد لنفسه ، بطريقة ما ، ان بين هذه المراة ، وبين المهندس شيء ما ، همس راجف ، قشعريرة ليلية ، وعود غامضة ، رغبات راعشة .

اما الباشمهندس منين ؟

يحسدها الرجال على جراتها . يلتفت الباشمهندس ، ترسم ظلال يده على ارض العشة ، خطوطا بالطول والعرض ، لحقول حرثت وخططت وزرعت غير انها اصابها البوار .

ـ مولود في الصعيد الجوانى ، وشغلى في مصر ، وتعلمى كان في الاسكندرية .

ـ ياه .

وقالت لنفسها ، مرحى يا زمن النزوح ، الدنيا واسعة ، وانها هنا ميتة تنتظر يوم الدفن ، والدفن كحال ما في الحياة بالدور ، وكل شيء محسوب ، ان ما في الصدور كثير بلا حدود .

ـ والله حاتوحشونا يا رجاله .

يقول لهم عنوانه ، عنوان العمل والسكن ، يطلب منهم ان راسلوه . اما الذين سيذهبون الى مصر ، لسبب او لآخر ، فهذا هو رقم تليفونه ، في العمل فقط ، فالتليفون في المنزل ، امتياز خاص بالاغنياء فقط . يتساءل الرجال ، ان كان في مصر ام الدنيا اغنياء وفقراء ، وتعجبوا من حال الدنيا . المهندس يحلف الناس ، بمقام سيدنا الغريب ، يطلب منهم ان يمروا عليه ، وسيكون تحت امرهم ، ولن يغفر لاى فرد منهم أن ينزل مصر ولا يمر عليه .

ـ بكره حاتكون في مصر يا باشمهندس .

تساله سلسبيله ، الامر حقيقى ، قالوا لها ساعة الغروب ، ان الامر مزاح ، وسيتم ايضاح الموضوع في الليل عند حضور المهندس ، يبدو ان الامر صحيح . قام ابو اسعود ، خرج دون ان يسلم على احد . انه يتجه الى منزل المعلم يعقوب ، سير ببطء ، يفكر في الامر . قال لنفسه : ان المهندس سياخذ مرتبه في اول الشهر ، مهما حدث للبلد ، السوالم والناس ، والامر لا يهمه . المصيبة لم تقع الا على رءوس الناس في البلد . كانت البلدة نائمة ، غارقة في الظلام ، مغموسة في الصمت . قال لنفسه : انه لن يفعل اى شيء ، الا بعد ان يسمع راى المعلم يعقوب .

يطلب المهندس من الرجال في العشة ، ان يعاهدوه ، على ما تم الاتفاق عليه ، الرجال لايدرون ما يفعلونه ، بل انهم لا يدركون ان

كان المهندس ، يتكلم جادا فيما يقوله . كان الموضوع كابوسا غريبا . طلبوا من الله ان ينجيهم شر الايام . قالوا ان ايام الاباء والاجداد كانت خيرا من هذه الايام ، وان الايام القادمة ، ستكون اسوا من ايامهم . قال الرجال لانفسهم : ان الامور كانت تسير حسنة او سيئة ، المهم انها تسير بأى شكل ، حتى اتى المهندس وها هو ذا ، يريد ان يترك البلد . ليته ما حضر .

سلسبيله لا تسمع حديث الرجال ، انها ثملة ، اسكرها الحزن ، تنظر الى الرجال ، تدرك انهم متفاهمون دونما كلمات . الايام ثقيلة ، ثقل الحديد . وحكاية البئر والبترول والحياة الجديدة ، ستتحول مع الايام القادمة الى حلم قديم صدىء . يقول لهم : انه يعلم ، بوحى من داخله ، انه لابد وان يتم اللقاء ذات يوم .

ـ ومسير الحى يتلاقى .

يقف المهندس . يتواعدون على اللقاء صباح الغد . على الجسر ، سيكون الوداع .

ـ ما لسه بدرى .

ـ المهم تسلم على مصر يا باشمهندس .

يستريح في العيون توق ورغبة . يمد لها يده ؛ تحتضن كفه بيديها الاثنتين؛ ينام الصمت على صدر العشة ويخرج الرجال معه.

ـ الا الباشمهندس اسمه ايه ؟.

تقف سلسبيله ، تنادى عليه ؛ تساله عن اسمه . يقول لها ؛ وكان قد ابتعد عنها : عصمت فهمى النجماوى . تقترب منه ، يكون قد اصبح على الجسر . السجائر في الايادى ، ترتفع ، تدور في نصف دائرة ، تقترب من الافواه ؛ تشتعل نارها ، ان السجائر تبدو كالنجوم الليلية البراقة .

ـ انت اسمك عصمت بصحيح .

المهندس لم يسمعها ، تراه من الخلف ، تحاول أن تميزه ، تجرى . تراه عن قرب ؛ كتفاه متهدلتان الى اسفل ، يداه تطوحان في الهواء ، وراسه مدلى ، والقدم تصطدم بارض الجسر .

ـ انت اسمك عصمت بصحيح ..

لم يرد عليها . في العشة جلست سلسبيله تبكى ؛ لم يكن هناك احد .

الحديث عن البئر والبترول والمهندس مساحات فى القلب . وحكايته معلقة فى أماقى العيون. والرجال لاحديث لهم الا عنه . شعروا ان الموضوع كله اكبر من فهمهم . فحاولوا ان يفهموه . تعبت منهم العقول والقلوب ، الحال يختلف الان . فى كل مساء ، يجلس حب الدين وسط الرجال فى العشة ، يشرب الشاى ، يأخذ نفسا من الجوزة ، يتراهن مع الرجال ، على ان يشعل النار من الجوزة ، ينظر فى الوجوه ، يتفرس فى الرجال . يقسم لهم ان الايام القادمة ، ستحمل لهم حكاوى كثيرة . كلمات لا حصر لها ، وعند سماعنا لها ، لن نصدق الاذان . ستكذب كل ما يصل الينا خلالها ، انه يختم حديثه فى كل ليلة ، بانه مازال صغيرا فى السن ، ولا يزال هناك متسع من الوقت ، سننتظر ما تأتى به الايام القادمة . يصفق بيديه بعد ذلك « هيه دنيا » ويرين على الرجال صمت ، يقول بعده حب الدين للجالس بجواره :

ـ دا ملك منظمه سيدك .

حب الدين صامت الليلة . الوقت هو أول الليل . وحب الدين يجلس فى ركنه الصغير . قال له الرجال اكثر من مرة : مالك ؟ لم يرد عليهم . غمغم ، ما فيش حاجه والله . كان يتساءل : هل يخبرهم بأنه يتصور ان الامر كله خدعة ، اكذوبة من الاكاذيب . أعمته الحيرة والتساؤلات ، قرأ الفاتحة لمشايخ البلد ، قال انه ليس هناك اى شىء صحيح بالمرة ، حاول ان ينعم بالوهم طول النهار .

ذهب الى منزله ، وكان قد صحا مبكرا على غير العادة ، كانت سلسبيله نائمة بالداخل ، لم يشأ ان يوقظها . قال لنفسه : النوم رحمة ، ولكن أين هو ؟. فى الراس صداع ، وفى الصدر الم ، ولكن اين النوم ، نام على ظهره ، راح يتحسس الحصير بيديه ، سرحت عيناه فى السقف الواطىء . المخاوف تتحقق كلها مرة واحدة . أدرك ان شتاء هذا العام ، لن يكون قاسيا كان

يتصور ان النقود والبترول والمهندس ، ستذيب برد الشتاء . كان يقول : ان عدم وجود النقود ، هو سبب البرد . قال له المهندس ، وكانا يسيران معا على شاطىء ترعة ساحل مرقص ، بمفردهما : ان المشى مريح جدا للصحة ، خاصة من اجل القدمين. كانت تلك هى اسعد لحظاتهما . اصبحت عادة ثابتة ومحببة ، لم يكن احدهما يتصور ان يأتى يوم ما ، لايخرجان فيه معا ساعة العصارى . يتمشيان ببطء وبغير نظام ، لمجرد الرغبة فى المشى . الناس تحسد حب الدين ، على هذه اللحظة كل يوم ، والحسد قد يصل احيانا الى درجة الكراهية العمياء .

قال له المهندس : انه قد ثبت بالفعل ، وجود بترول فى المنطقة ، الشركة لم توافق على الحفر ، لانه بترول غير اقتصادى. للحظة . لم يفهم حب الدين ، بدت ايامه التى مضت ، كلحظات مخطوطة . غارقة فى الوهم والضباب . وقال لنفسه : ما احلى العلم ، وشعر بالاسف لانه لم يتعلم فى الايام التى مضت من عمره . قال المهندس . مكملا حديثه : انه سيصفى كافة اعماله منذ صباح الغد . قد يرحل عن السوالم بعد ثلاثة ايام . فمجرد وجودهم ، يحمل الشركة نفقات ، وانه لا يستطيع ان يتحمل المسئولية ، ما دامت قد صدرت له التعليمات بنهو المشروع ، على اساس ان المشروع مؤجل . قال المهندس : انه لن ينسى البلد . لن ينسى حب الدين بالذات .

ـ انت شاب عظيم ياحب الدين .

ـ الله يخليك يا باشمهندس .

ـ انا مش باجاملك ابدا .

يسيران ببطء ، حب الدين يسبح فى بحار الدهشة ، يسيطر عليه نوع ما من عدم الفهم . وحب الدين بطبيعته بطىء فى فهم المواقف الجديدة ، وهو عادة يستغرق وقتا ، حتى تصل الامور اليه . عصمت بالنسبة اليه ، لم يصبح مجرد مهندس وبئر ومستقبل ، بل انه صديق من لحم ودم .

ـ دا معناه ايه يا باشمهندس .

ـ ولا حاجة .

ـ انا محتار .

ـ انا اكثر حيرة منك .

اخاديد المرارة ، تنسال خلال بسمة المهندس . انه يشرح .

يقول كلمات مرة ، وتتحول كلمات المهندس الى أسئلة ، ومن خلفهما ، كانت السوالم . تبدو لهما يتيمة ، تتألم بصوت خافت ، تطلب الامان من الليل المقبل ، وان كانت تعلم انه امان مؤقت .

ــ انما يا باشمهندس ، دا مستحيل

ــ وايه الفرق بين الممكن والمستحيل ياحب الدين ؟

يتكلم حب الدين بلسان غير لسانه ، يدور اللسان فى الفم دون أن يدرى ، يلوك الكلمات فى فمه ويطحنها تحت الاضراس قبل ان ينطق بها . وبعد الحديث ، بعد الكلمات المتناثرة والانصات للآخرين ، تبقى فى الذهن معان عالقة ، لم يعبر عنها ، تاهت فى زحمة الكلام . حب الدين يتذكر انه لم يقل للمهندس ، ان أهل البلد ، خاصموا العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر والخفراء ، خاصموا الحقول والسواقى والارض والبيوت والمياه . انهم لم يذهبوا الى الحقول منذ أيام . قضوا هذه الايام ، على الجسر ، فى انتظار البئر والبترول والمهندس . من الصعب على الناس ان يعودوا الى ما كانوا عليه . كانت الليالى طويلة ، وفيها حلموا بأشياء كثيرة ، والسبب هو المهندس .

حب الدين يريد ان يقول للمهندس ، انه اكتشف الآن ، وبعد العمر الطويل ، ان كل ما يحدث حوله . يتجه الى اسفل ، وانه يهيم فى الحياة بلا هدف . وان طعم المرارة فى فمه قد زاد عن حده . لقد طبع اللسان والاسنان والفم كله بلون قاتم . نسى ان يؤكد له ، ان الالفة التى تربطه بالبلد والناس قد انقطعت .

ــ انما الحكاية دى حصلت من قبل .

ــ حكاية ايه ؟ .

ــ ان الحفر يتم . وبعد كدا يقف .

ــ طبعا حصلت ..

ــ بذمتك يا باشمهندس . قول الحق ..

لايرد المهندس ، يقول له : الرجال بدءوا يضيقون بحياتهم . الفوها طوال سنوات العمر ، الحال تغيرت فى الاسبوع الاخير . ابدى بعضهم ضيقه بسبب الظلام الليلى الدسم . وقال آخر : الى متى نعيش فى البيوت الطينية ، وقال ثالث : الحياة اكوام من التراب ، تراب فى البيت ، وتراب فى الحارة والشارع والحقل ، وتساءل ابو السعود : كيف عاشوا السنوات التى مضت من العمر حتى الآن ؟

الكلمات تتدفق من فم حب الدين فى سرعة . والمهندس توقف ، وهو لا يتكلم . يكتفى بالانصات . ينظر الى حب الدين وبسمة رضا تنير وجهه . ويقول لنفسه : ان كل انسان كنز فى حد ذاته ، ويقول انه كان ساذجا . لم يكن يتصور ان تصل حكاية البئر الى هذه الدرجة ، وان يقول حب الدين كل هذا الكلام . ان تتدفق العبارات من فمه . عبارات جميلة ، وان كانت مرة المذاق .

يعودان الى البلد . والشمس قد تحولت فى الافق الغربى ، الى قرص فى لون الدم . وقد اقترب من الارض . الظلال طالت ، واشعة الشمس الميتة تداعب الاشياء . لحظة الغروب . والمهندس يقول لحب الدين : انه اكثر حزنا من اهل البلد . بسبب ماحدث . المشروع كان اول اعماله بعد التخرج . وكان يتمنى ان ينجح فيه . ماحدث فال سيىء بالنسبة لمستقبله. نجاحه فى المشروع ، كان يعنى حياته ومستقبله . لا يستطيع ان يقول مع الناس ، الموضوع كان «قسمة ونصيب» ، بل ان هناك ظروفا ، هى التى حالت دون ان يتم المشروع فى البلد . ساراً معا . كانت الناس تجلس على افريز الجسر صامتين يردون السلام والتحايا ثم لا يتكلمون . الشارع الرئيسى ، الحوارى الضيقة . ارض الوقف ، الخيام ، السوالم بحرى . الخيام والبيوت والناس . المهندس يقف امام الخيام ، يتحدث مع حب الدين . يرفع يده . يسلم عليه . يسير حب الدين بظهره . يرفع يده . لا تكون ليده ظلال على الارض ، فيدرك انه المساء . يقف حب الدين ، يستدير ، يسير ناحية البلد .

حب الدين يجلس بالقرب من الرجال ، وهو يفكر فى حياته وحياة الناس ، بعد رحيل المهندس ، وطعم الحياة فى السوالم ، عندما يحاولون العودة الى ما كانت عليه . انسام ، الضجر اليومى المتجدد . الرجال جالسون . يتحدثون . لقد كانوا يتحدثون عن المناصب والوظائف والحياة الجديدة . تناقشوا ، تعاركوا ، تركت الايام والليالى ندوبا فى القلوب والنفوس والصدور،كرهوا بعضهم لحد الموت .

بعد ايام ثلاثة يرحل المهندس . وتعود الحياة الى ما كانت عليه لن يوجد بترول ولا مهندس ، يقترب الرجال من حب الدين ، يجدون انه يبتسم ، يتكلم بعبارات غير مسموعة :

ــ انما الموضوع صحيح ياحب الدين ..

ــ ماهو مش لازم النكد فى اول الليل ..

ـ ايه رايك يا سلسبيله ، ما تتكلمى .

يصمت الرجال ، يستنشقون روائح ايامهم الجافة ، أيام متوجة بالتوجس والصلوات ، موشاة بالطمانينة الكاذبة . انهم ينظرون الى الليل ، وفى الظلام تسبح المخاوف على اجنحة الظلام . حب الدين يجلس منكمشا على نفسه ، وعبر عروقه يتمدد الوجع والاسى ، ويصمت الرجال ، وتحمل لهم الرياح ، من الشاطىء الآخر ، صوت رجل يتغنى بجمال الليل ، الصوت أحلى من صوت اى رجل آخر ، الكلمات تدعو الحبيب ، اينما كان ، تطلب منه الحضور ، كى يتمتعا معا بجمال الليل . وكنسمة هواء رطبة . يرتفع الصوت ، هادئا واضحا ، يتحول الى نغمة حزن واشتياق ، ثم يهمد الصوت الى جزء صغير من كتلة الاصوات الليلية المبهمة .

ـ الحكاية كانت حلم ، احنا كنا مغفلين ، كنا مساكين ، انتو عارفين ياجماعة ، كل واحد فينا كان عامل زى الغرقان ، زى ليه ، كان غرقان بالفعل . لقينا قشة ، قشاية صغيرة . قطعناها بايدينا واسناننا ، كل واحد فينا خد حته صغيرة ، وقال لنفسه خلاص الاشيا بقت معدن ، وسبحنا ، كنا عارفين ان الواحد منا لو طال التانى حا يغرقه . انتو طبعا عارفين ايه اللى حصل بعد كدا . اكتشفنا فجأة ، ان اللى فى ايدينا مش قشة ولا حاجة . كل اللى حصل ، اننا قعدنا بعد كدا ، ومافيش حد فينا مصدق . نسينا ان احنا غرقانين ، نضحك ونبكى ، وبعد كدا قعدنا ننتظر معجزة تحصل لنا . قلنا يا خلق هوه ، زعقنا ، رفعنا رءوسنا فى الهوا ، ما كانش فيه حد خالص علشان يسمعنا او يشوفنا . الودان انسدت ، والعيون عميت . جت موجة عالية ، عالية . وكان لازم نغرق ، كان لازم نغرق . انهى حب الدين كلامه ، وصمتوا ، كان الظلام مفروشا فوق صدر الليل ، وانزلقت الامانى والاحلام الى اسفل ، تاركة الرجال يصعدون فى بخار الغضب والحزن ، كانت السوالم كلها صامتة ، مغموسة فى الدهشة والحنين ، وكانت نظرات الرجال مذبوحة ، وفى الصدور شىء ما ، كالانين الموجع . الرجال ينظرون الى بعضهم البعض ، وكل منهم يتحسس اخاديد المرارة فى اعماق القلوب

رفعت سلسبيله عينيها من فوق النعسة ، نظرت اليهم ، دارت نظراتها فوق الجالسين فى العشة ، همست بصوت ناعس :

ـ وحدوه

تناثرت العبارات من افواههم .

ـ لا اله الا الله .

ضحكت سلسبيله .

ـ كمان وحدوه .

ـ لا اله الا الله .

تحدث احد الرجال ، وجه حديثه الى حب الدين . رجاه ان يخبرهم بالامر كله ، فى الحكاية نقطة لا تفهمها عقولهم . لم الحفر ما دام المشروع لن يتم ؟ . هذه النقطة تعذب الرجال . لم يرد حب الدين عليه . قال لهم : عليهم ان يصبروا . ذات يوم سيعرفون الامر ، ارتفع صوت يغنى فى الحقول . لقد اصبح الليل الآن اكثر هدوءا ، والكلمات تسقط على القلوب فتوجع الرجال

ـ زرعت لو كان .

ـ سفينه ياريت .

ـ طرحت ما يجيش منه .

ينظر الرجال ، يكتشفون ان وردانى ليس بينهم ، لم يحضر الليلة الى العشة . تخيل الرجال ارض وردانى والبئر وخيام الغرباء . اكد الرجال ان فى الامر سرا ما ، قالوا : فلنذهب الى المهندس ، نعيد عليه الكلام ، المزاح فى هذه الامور ، غير مريح . قرروا الذهاب الى المهندس ، غير انهم تكاسلوا ، قالوا فلنؤجل الموضوع حتى الغد . طلبوا الشاى ، دخنوا الجوزة ، تحدثوا فى كل الامور ، تمنوا أن يكون الامر حلما . الرجال يدركون ان السرور الذى نعموا به فى الايام الماضية ، كان سرورا كاذبا ، مسروقا . لم يكن من حقهم ، الكلمات تتراخى ، وتصبح اصواتهم مبللة بالنعاس ، ويتمعن الرجال فى احلام الايام المهجورة ، وتبقى منها فى مآقى العيون اشياء عارية معلقة ، الاحلام والبترول والمهندس والحياة الجديدة .

ـ ولا يهمكم يا اهل السوالم .

تضحك سلسبيلة ، تخدش ضحكتها الصمت ، ينظر الرجال ناحيتها :

ـ خبر ايه ، هوه انا كفرت .

تبلع ابتسامتها ، يبقى لهم الصمت ، افق شاحب من السكون واليقظة ، يمسكون به بين اياديهم . وفى نهاية السهرة ، يقسم احد الرجال ، ان الارض فيها بترول ، وانهم سيتقلبون على

المصاعب . ويطلب منهم ارجاء الموضوع الى الغد .

الرجال يعودون الى منازلهم المتناثرة فى قيعان الحارات الملتوية . وفى القاعات الضيقة ، المزدحمة بالظلام والصمت . المبطنة بالقهر والحرمان . يجترون حكاية البئر . ينفضون عن القلوب غبار الايام ، ويعودون من رحلتهم . يقولون لانفسهم ، فى الليل الناعس . ان السبب فى يقظتهم الحارقة ، انهم عادوا منذ قليل من رحلتهم الطويلة ، من بلاد واق الوق . وانهم لم يجدوا كنوز الملك سليمان . ولم يكن هناك ملك بهذا الاسم . يقول الرجال : انهم عند وصولهم الى بلاد واق الواق ، مرفا الوصـــــول وبر الامان . حطموا مراكبهم . اشعلوا خشبها ، وعلى النيران ، اذابوا الخوف الجليدى النائم على الاعماق ، وفى طريق عودتهم . كانوا يتذوقون على مهل . لاحساس الطارىء بخيبة الامل . لم يجدوا ما يعودون به . صنعوا من ورق الاشجار مراكب . ومن بقايا ملابسهم الممزقة . اشرعة تعب الهواء ، ومن شعورهم المهوشه حبال . وعادو . ذلك انه لابد من العودة فى نهاية الامر . وقال احد الرجال لنفسه : ان الامور فى هذا الزمان عجيبة . وانه محتار .

ذهب احد الرجال الى منزل وردانى . كان يريد ان يخبره ان ارضه ستعود اليه ، وان المهندس سيترك البلد . وبعد ان خبط على الباب ، وايقظ النائمين ، قالت له زوجة وردانى ، من خلف الباب : انها لا تســـــتطيع ان تفتح . ووردانى جاءته الازمة . لايستطيع حتى ان ياخذ نفسه . وان وردانى والاولاد وهى جالسون جميعا ، ينظرون الى السقف الواطىء ، فى انتظار ان تاتى الرحمة من عند الله .

— ارض ايه بس .

قالت زوجة وردانى ، واسكن لنفسها :

● خبر ●

يتسلم وردانى ارضه ، صباح اليوم ، من المهندس ، بعد نقل معدات الحفر . ويقال ان البئر المحفورة فى وسطها لم تردم بعد ، فظلت كالجرح فى قلب الارض . وتبدو كميات الطين الخارجة من رحم الارض ، للعيون وقد جفت . بفعل الشمس والهواء والغبار ونظرات الناس ، ويقال ان وردانى لن يرد للشركة شيئا من ايجار الارض . يقول وردانى لنفسه : ان الارض والبئر وما فيها . ستعود اليه ، ووردانى لايعرف ، هل يفرح او يحزن ، ووردانى يعود الى منزله ، متمشيا على مهله فى الحوارى الصغيرة الملتوية . يصل الى حارته. يقف فى اولها ، امامه تصعد الحارة الى اعلى . البيوت الواطئة ، مســـــاحات من التراب على الارض والجدران والنوافذ ، الابواب المنكفئة على صدر الحارة الرجال العجائز . الاطفال الصغار ، فى الايادى بقايا طعام جاف ، العيون الذابلة . المحاجر التى اكلها الصبر والسهاد والمرض ، العتمة التى تطـل من جوف البيوت ، بلادة الارض ، آخر اشـعة الشمس المنكسرة على اسطح البيوت. الحارة من جديد، تزحم انفه رائحة التراب . ويتنفس الهواء مثقلا برائحة البيوت ، ويسمع ثرثرة الناس، كلمات قيلت من قبل . فى حقله لم يشم رائحة الخصوبة . معالم الحقل تغيرت . ايام جهنمية عشت بها. بعد منتصف الليل، الظلام، الصمت، النجوم اللامعة تبدو كثقوب فى رداء الليل . الظما شقق الحلوق، البئر ما زال بعيدا . السوالم تعود الى ما كانت عليه . فى الغد ، سيذهب وردانى الى حقله ، سيعالج الامر ، يستر العورة التى رآها كل النـاس دونما رحمة . وعنـدما يهب هواء الصبـاح الطرى . المشبع بالندى ، قد يغسل عن الارض عارها .

وردانى يصـــعد فى الحارة ، يتوقف فى المنتصف ، من تحته تنزل الحارة حتى الشارع الرئيسى ، الذى يقسم السوالم الى

نصفين . فى الشارع اطفال صغار ، رجال عائدون من الحقول . ومن الشــــارع ، صعدت نسمة هواء خريفية . على البعد ، تنعكس آخر اشـــعة الشمس ، فوق اعالى الاشجار والنخيل واسطح البيوت . ورداني يدرك انه لابد وأن يواجه الارض بمفرده.
ورداني يستدير ، يصعد فى الحارة ، فى وجدانه تتسل كلمات موال حزين ، وعلى الجدران البليدة رسومات . كلمات من ايام الانتخابات التى مضت ، وفوق البيوت عيدان حطب ، غسيل منشور ، غرف صغيرة ، مخزن معاش ، لا شيء تغير فى السوالم وحتى عودة الارض اليه ، واستلامها ، لا قيمة لها عند الناس .

● اشاعة ●

أرض ورداني ، أرض مسكونة ، يسكنها اهل الجان ، جعل الله حديثنا خفيفا على قلوبهم واسماعهم . وعندما تم الحفر من قبل ، لم يستأذنهم أحد من ابناء السبيل . لهذا غضبوا من اهل البلد. والمطلوب ، عمل «ختمة» لهم ، حتى تنفك العقدة ، ويمنحوا الارض الامان ، ويظهر المختفى فى باطنها ، على أن تكون الختمه ليلة الجمعة ، وأن يذبح فيها ثور اسود غطيس ، ولا يوجد فى جسمه شارة بيضاء ، يشترى من بلد ، يقع بحرى السوالم وليس قبليها . ويستحم فى مياه النيل ، قبل الذبح بيومين ، عندئذ ستجود الارض بسرها العظيم . ورداني يشعر، بحنين دافىء يهب عليه ، انه يتمنى أن يرى زوجته عارية ، أن تتكسر نظراته على جسدها الابيض. تذكر فى هذه اللحظة، انه لم ير جسدها عاريا من قبل . وتذكر ان اصابعه الخشنة قد تمر على النعومة الحريرية لجسدها. الحجرة تكون مظلمة ، وصوت تنفس الاطفال النيام حولهما يزحم الليل.

ورداني يضع قدمه على عتبة داره ، ثمة وقت للزوجة والاولاد وسط عناء العمل . واجهة منزله تطالعه ، باب صغير منخفض . من خشب تاه لونه الاصلى ، عليه آثار دماء متجمدة ، حال لونها الاحمر. يقول ورداني : ان الدماء هى دماء خروف ذبحه ، بعد ان اعاد بناءها ، وانه صبغ الباب بدمائها ، بناء على طلب الجزار، ويحتفظ بفروته ينام عليها فى ليالى الشتاء الباردة . فى منتصف اطار الباب العلوى ، حدوة حمار صـدئة ، مثبتـة بمسامير من الخشب ، فوق الخشب ، تصـــطدم نظراته ببلادة الجدران الطينية . من الباب يبدو وسط داره ، يهب عليه من داخله ظلام

رطب . من داخل وسط الدار، تتحرك زوجته واولاده ، ورائحة الدخان تزحم المكان .
ورداني .
ـ نعم يا باشمهندس .
ـ دلوقت انا باسلمك ارضـك ، وطبعا انت استلمت كافة مستحقاتك المادية عن استغلال الارض فى المدة اللى فاتت .
ـ حصل .
ـ ارجوك ، وقع لى هنا ، باستلام الارض .
ـ حاضر .
ـ وقع لى هنا ، بأنك استلمت كافة مستحقاتك .
ـ حاضر .
ـ احنا ظلمناك فى حاجه يا ورداني .
ـ ما حصلش .

يمسك ورداني القلم من يد المهندس ، يشير له حب الدين بأصبعه الى المكان الذى يجب أن يوقع فيه . ورداني لايعرف القراءة . تعلم فى القسم الليلى كيف يكتب اسمه فقط . ينظر ورداني الى حب الدين ، تسأل عيناه عما فى الورقة . ورداني يعرف ان القلم والاوراق تخون اجدع الرجال . الحكاية مرة كالعلقم . ورداني يتذكر ، انه ما من مرة ، امسك بالقلم ، ونظر الى ورق ابيض امامه ، كى يوقع فيه بامضائه . حتى يخاف من المحضر والمحكمة والحجز والمركز . والضرب على القفا والمصاريف ودفع الريال للشاويش فى التوفيقية والوقوف بلا سـند أمام الحكومة . ورداني يقرب عينيه من الورقة . بدت له الورقة كشىء لايمكن فهمه : ان تشابك الحروف كالمتاهة ، كسكة الثعبان عندما تعبر الطريق الزراعى وقت الظهيرة ، يعاود ورداني النظر الى حب الدين:
ـ يا راجل امض عيب .
تحرك ورداني يديه ، يكتب اسمه ، ويعطى القلم للمهندس .
ـ شوف أرضك وحدودك .
يتحرك ورداني ، يشعر بخجل ، العيون تغرس نظراتها فى جسمه ، يدور حول حقله من الجهات الاربع ، يجلس ، يتحسس الحديد ، يدرك انه فى نفس مكانه ، وان جيرانه كما هم . قديما ، قبل أن يموت والده ـ رحمه الله ـ نصحه بأن يعلم حدود حقله بعلامات لا يعرفها احد سواه ، ابناء الحرام ، لم يتركوا لابناء

الحلال شيئا ، في هذه الايام ، اى شيء ، هذا زمن ايام السوء ، وقد ينقلون الحديد بالليل ، فتقل مساحة ارضه وهو لايدرى . من يومها ، وهناك علامات صغيرة ، بجوار الحديد ، طوبتين من الطوب الاحمر ، عود نجيل مربوط عليه فتلة دوبارة من المنتصف وفي آخر الدوبارة عقدة لايستطيع احد ان يعقدها . دار ورداني حول ارضه ، تأكد من الحديد في الجهات الاربع ، تحسس الارض بيديه ، ثم سار ناحية المهندس :

— خلاص يا باشمهندس ، لارض زى ماهى ..

يقف المهندس ، تعبث نسمات الخريف بملابسه ، يلف الاوراق، يضع القلم في جيب قميصه . يمد يده لورداني ، يبدو اتساع الحقول ، كأنه يسبح في نفوس الرجال ، وورداني ينظر ناحية الشرق تلتقى زرقة السماء الغامضة بسواد الارض ، وعلى خط الافق ، شراع سفينة ، تسبح في النيل ، وغراب يطير في السماء ، وخط اشجار يمتد على طول الطريق الزراعى .

— ورداني .

— ايوه يا باشمهندس .

— في الحقيقة ، انا مش عارف اهنيك بارضك ، والا اعزى اهل البلد .

مرت فترة صمت ، لم يتكلم احد . احس ورداني انه من الواجب عليه أن يقول اى شيء ، الكلمات تاهت منه ، تذكر ان هذا الرجل ضيف عندهم ، وان سكوته قلة ذوق ، بحث في ذهنه عما يقوله ، حرك شفتيه ، رفع يديه في عجز وتسليم .

— الحكاية ان احنا زعلانين عشانك ، كنا عرفناك واللى تعرفه احسن من اللى ما تعرفوش ، اهل زمان قالوا لنا كدا .. اصل.

لم يستطع ان يكمل حديثه ، حرك يديه ، هز المهندس يده بترحاب في وجهه :

— اهلا بيك يا ورداني .

سار الرجال خلف المهندس ، استدار ورداني الى ارضه. قال لنفسه : هذه الارض ليست ارضه ، لقد ورثها عن ابيه ، انها امانة لابدوان يسلمها لابنائه من بعده . ارضه هي ما يشتريه بنفسه ، من حر ماله وعرق جبينه . اما هذه القطعة من الارض. فما عليه الا ان يسلمها لابنه الاكبر . تصور ورداني ، وهو يقف على رأس حقله ، انه بتسليمه الارض للمهندس : قد خان العائلة

وأن عظام ابيه قلقة في قبره ، كان يجب ان يدافع عنها . حتى ولو ذهب الى السجن . قال ورداني لنفسه : انه كان جبان ، اليوم الذى يأتى لايمكن ان يأتى يوم آخر مثله . رجال هذا الزمان ليسوا رجالا . قال له والده : من يفرط في أرضه ، فقد فرط في عرضه . الايام ليست سهلة ، سأل نفسه : اين هم الرجال الذين كانوا سيقفون معه في وجه المهندس . لقد نسي خيانة السوالم له ، تركوه بمفرده امام الحكومة ، مما اضطره الى التسليم . والعزاء الآن . نه في باطن الارض ، يوجد السر الذى سيكون له وحده . استشهد بنجوم السماء ، كان الهواء ممتدا على البساط دائريا حول حواشي الافق .

ورداني يقف وسط داره ، وزوجته تحادثه ، وهي في آخر وسط الدار :

— مالك يا ورداني . لازم صدرك تعبك ..

امامه حجرة صغيرة ، ينام فيها بالليل مع الاولاد يستقبل فيها الضيوف ، ويجلس فيها ايام الاعياد والمواسم ، تفرش الحصر الجديدة ، تسند الى الجدران ، مساند جديدة في وسط الدار ، باب صغير ، يفتح على الزريبة وحجرة المعاش . بجوار الباب سلم خشبي يفضى الى سطح داره . وفوق السطح غرفتان : غرفة يضع فيها خزين الحبوب ، واخرى تربى فيها زوجته ارانب كثيرة ، تباع يوم السوق ، ولا يأكل منها الا نادرا .

يجلس ورداني وسط داره ، كل ما حوله يؤكد ان الليل احتوى البلد بداخله . ومع قدوم الليل ، يخاف ورداني ، يدرك انه يموت ، وقد لايرى الغد . وستبقى لحظة انتصاف الليل ، هى لحظة مجيء الازمة . ان ورداني يشعر بضيق مفاجيء . يقوم ، يخرج .

— ما تستنى لما تعشى العيال ..

يستدير ، وهو على الباب . ينظر الى زوجته واولاده ، لايرد عليها . السوالم تستسلم لعالم الظلام ببطء ، والشمس واهبة الحياة والنور، اختفت. ورداني يسيرمسرعا، وفي انفه رائحة اختمار الارض الشراقى بعد الرى ، وفي اذنه انين الرياح في الليالى الشتوية . وفي الصدر احساس مبتل بالحزن .

قال ورداني : في صباح الغد ، سيذهب الى الحقل . هناك سيواجه أرضه بمفرده ، الارض اصبحت غريبة عليه ، وفي القلب والعين ، ينمو احساس مر بالخيانة .

السوالم ــ بحيرة

١٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٤ .

فى صباى ، كنت أحلم ، بأن اقضى العمر فى المدن الكبيرة . اعيش حياتى بالطول والعرض والعمق والارتفاع ، فى ساحات اقتتال الواسعة ، أماكن يسيل لها اللعاب ، بلاد الثلج والضباب فى شمال اوربا ، مساحات النباتات فى المناطق الاستوائية ، فوق ظهر باخرة ، تذهب حتى القطب الجنوبى ، وهناك نمزق استار المجهول . حلمت بالسفر الى بلاد بعيدة ، المدن النحاسية ، البلاد المغسولة برائحة الكافور ، التمنى بأحلام لن تتحقق ابدا ، الرغبة فى عناق العالم بساقين من الحب والرغبة . اسمع الاغنيات انعذبة على ضفاف الدانوب . اشرب الفودكا فى قرى سيبريا الخالية . اتناول الخراف المشوية فى خيمة مفروسة فى وسط صحراء مترامية الاطراف ، مرتديا ملابس امير عربى . أدور فى بلاد لا اعرف من لغة أهلها حرفا واحدا . اصيح بصوت عال : ليس لحماقة قلوب البشر من حدود . حظى شاء لى ان اواجه مصيرى بمفردى . فى تلك البقعة الموحشة من العالم . كانت معركتى الاولى . وذلك هو ختامها .

قد يثبت من كافة التحليلات : احيانا ، ومن خلال البئر الاختبارية وجود بترول بالفعل ، قد يكون بترولا غير اقتصادى . بمعنى ان العائد من البترول المستخرج لا يغطى نفقات الحفر والاستخراج والتكرير ، ويكون التصرف فى مثل هذه الحالة ان يؤجل المشروع فترة من الوقت ، فترة طويلة ، قد تصل الى مئات السنين تتحول البئر خلالها الى بئر اقتصادية ، وقد تبقى كما هى .

فى أيامى الاولى ، كان عندى يقين انه يوجد هنا بترول ، وان المشروع سيتم على الوجه الاكمل ، وبدأت خطوات المشروع ، الدراسات النظرية ؛ حفر البئر الاختبارية . ومن خلال هذه الخطوات ، امكن التوصل الى جملة امور هامة . تحديد ابعاد

المصيدة البترولية ، غور البئر ومساحتها ، سمك الطبقات الرسوبية ، بيانات جيولوجية واقتصادية . تقييم للامكانات البترولية فى أجزاء المنطقة ، توصيات عن مناطق اخرى ، تستحق دراسات تفصيلية . ومن خلال الدراسات ، توصلت ادارة الشركة الى ان البئر الموجودة فى السوالم ، بئر غير اقتصادية ، وبالتالى توقف المشروع . قلت لهم : هنا بترول ، شممت رائحته واحسست بوجوده ، وقرأت عنه فى عيون الرجال ، قالوا انه بترول غير اقتصادى ، فلم انطق حرفا واحدا بعدها .

امامى هنا ايام قلائل ، كى انهى المشروع ، أسلم الارض الى صاحبها ، اخلع الخيام ، أرسل المعدات الى الشركة ، اشكر الذين عاونونى . ما يهمنى هم الناس . كانت الناس قد تركت العمل فى الحقول ، وراحت تنتظر البئر . اتساءل : كيف سيذهبون ذات صباح الى حقولهم ، يزرعون ويقلعون ويعيشون حياتهم اليومية المألوفة ، ذلك صعب عليهم ، بدأ بعض معاونى فى السفر ، احسست بالضيق ، قلت لمعاونى اننى لا اريد ان اقابل اى فرد :

ــ حتى ولو كان حب الدين ؟

تذكرت اننى نسيته ، لم أرد عليه ، دخلت خيمتى ؛ كنت افكر فى امر حب الدين ، اهم الناس . رجل بسيط ، لم يتعلم كثيرا ، ولا يزاول مهنة يعيش منها . فى داخله شىء ما يميزه عن باقى الناس . احببته ، استريح له . تصورت اننى سبق ان قابلت حب الدين من قبل فى مكان غير السوالم . انه شاب لطيف وضع فى مكان غير مكانه . قلت لنفسى : اصعب الامور ان يفهم الناس ما حدث ، وقد اتكلم مع الناس ، يهزون رءوسهم علامة الفهم والموافقة ، البدلة التى ارتديها تقيم مسافة بينى وبين الناس بعد ان اتكلم ، احدهم يقول شيئا ، لايعترض ولا يناقش وانما يمط حبل الحديث . اننا لا نتعلم شيئا ، ذلك اننا لا نجد متسعا من الوقت كى نتعلم ما نجهله ، الايام تدفعنا الى اللعب ، يشرح لنا شخص ما قواعد اللعبة ، بسرعة وبعبارات خاطفة وبلغة اخرى غير لغتنا . وفى اثناء اللعب ، عندما نرتكب الخطأ الاول ، ولو كان ذلك بحسن نية ودونما قصد ، فنحن نغتال بلا سبب .

ــ المشروع حايؤجل ، بصفة نهائية ياعصمت .

ــ حاضر يا افندم .

رفعت عينى اليه .

- بس يا افندم .
- فيه ايه يا عصمت .
- لا ولا حاجه .

كنت اريد ان اقول ، ما ذنب الناس فى السوالم ، كنت اريد ان احـــدثه عن حب الدين ووردانى وابو السعود وللوم والمعلم يعقوب والعمدة والارض والحقول والجسر . سلم على ، ودعنى ، ركب سيارته ، تركنى وحدى . وامامى فى السوالم كان الفشل ، اجلس فى خيمتى ، امامى خطوات المشروع ، لرسومات ، الخرائط كلمات مدونة بالحبر ، عبارات بالقلم الاحمر ، توقيعات ، للعرض على ، تصدق ، يعاد النظر فى الموضوع . مررت باصابعى على المشروع وقلت لنفسى : الاحلام هنا فى الحروف الصغيرة ، على الاوراق . وخارج الخيمة ، فى السوالم كلها ، لم يكن هناك شخص يعرف الخبر ، قررت ان اخبرهم غدا ، فى ســـاعة العصارى ، على ان اخبر حب الدين اولا ، فى سيرنا اليومى .

- النتيجة دى زعلتك ياعصمت .
- هيه ، لا يا افندم .

قالها وهو يقف بجوار سيارته ، تعثرت الكلمات على لسانى ، قلت لنفسى : ان لصمت الزاخر بالمرارة ، خير من اى كلام . احضرت ورقة صغيرة ، ساسطر فيها رسالة الى اهلى ، اقول لهم فيها ، فشلت فى مشروعى ، قد احصـــل على اجازة طويلة ، اقضيها هناك بينهم فى قريتنا التى تنام فى حضن الجبل والنيل . سأقول لهم : ان سفرتى الاولى ، لم تصل الى نقطة ما ، والسوالم يا والدى ، كانت مرفأ الامان وساحل الهلاك فى نفس الوقت .

ان ما يهمنى ، اهل السوالم . البئر والبترول والمهنـــدس والحياة الجديدة ، يتحولون فى حياتهم الى كذبة كبيرة . وحتى لو قلت ان كل السعداء على الارض ، لايملكون آبار بترول ، ولا حياة جديدة ، فما استمعوا الى كلمة واحدة منى . اقول ، واريد ان يسمعنى كل رجل فى السوالم ، اقول بصوت عال : ان هذا البلد فى حاجة الى نبى ، رسول جديد ، يوقظ الموتى ، ويغســل الالم ويمســح الجراح . كل ما فى الســوالم يوحى بالقدم . ان الزراعة والرى وحياة الناس من ميلاد ونمو وحب وزواج . كل ذلك يجرى ، كما كان يحدث منذ الوف السنين . الرجال يزرعون لانه ليس هناك عمل آخر يمكن القيام به ، اتساءل : هل هؤلاء

الناس درى فيما يحدث . وعندما استمع الى اخبار العالم من لراديو فى آخر الليل . القاهرة تحييكم . اعفاء نكيتا خروشوف من جميع مناصبه . انهيار الحكم العسكرى الرجعى فى السودان . الصين تفجر قنبلتها الذرية الاولى . قرض من الاتحاد السوفيتى قدره ٢٨٠ مليون جنيه وذلك لاستصلاح ٢٨ الف فدان . سقوط حزب المحافظين فى لانتخابات البريطانيـــة وتاليف حزب العمـــال للحكومة الجديدة . ادرك لحظة سماعى لهـــذه الاخبـــار ، ان ذلك يحدث فى عالم آخر ، كوكب شقيق لنا . الناس معزولون عن كل ما يحدث . وان سمع احدهم ما يحدث ، وعرفه بالصدفة ، فانه يفتح عينيه اللتين بلا رموش ، ويتوقف فى مكانه ، يفتح فمه ، يقول : ياه ، بقى كل ده بيحصل فى الدنيا ، يا اخى دى الدنيـــا واسعة . ثم يمضى فى طريقه . كأن الامر لايعنيه . اقول : الناس موتى ، يدفنون كل فى ميعاده ، وكل ما يطلبه النـــاس فى الفترة التى تسبق الدفن ، فترة الانتظار والتى يسمونها العمر ، ان يكون الاكل والشرب والزوجة ، مضمونة حتى آخر ايام العمر .

اتذكر كل ما حدث . كانه كابوس . مقابلتى للعمدة ، رئيس قرية ششت الانعام . معاون نقطة البوليس ، مفتش الصحة ، رئيس مجلس مدينة ايتاى البارود . العمدة رجل غريب الاطوار ، كيف كنت ساتعـــامل معه . رجل بليـــد الحس ، رجل اعمـــال متخلف . لقـــــد كنت اريد ان تمتلىء العيون والقلوب والعقول بأشياء أكثر انسانية . انتهت حكايتنا ، وغدا او بعد غد ، يجلس معهم حب الدين على الجسر او فى العشـــة ، ويحكى لهم حكاية البئر كلها وعندما يخدش شكل الحياة حادث جديد ، فان الرجال يعجزون عن فهم الحادث مهما تكن بساطته . السوالم كلها ، تلك الـــكتلة الصماء من النـــاس والارض والبيوت والحوارى ، قادرة على فهم الاحداث بطريقة بالغة الغرابة .

فى لقائى الاخير معهم ، شعرت ان التفاهم قد تم دون كلمات ، كان اللقاء نوعا من الصلاة ، صلاة جديدة . صـــلاة صامتة . كنا نصلى معا : للأرض وميـــاه الترعة وزرقة السماء وتراب الحوارى وجدران البيوت ، ولم يكن احد يدرى ساعتها ان ذلك اللقاء ، هو اللقاء الاخير .

الناس هنا أمام اختيارين : وفى هذا العالم الصغير المحدود ، القائم على قيم معمرة ، وشكل واحد ، ممل ورتيب للحيـــاة ،

يصبح السؤال شاقا وعسيرا ، ويصبح الجواب عليه فى رهبة الموت . عليكم يا اهالى لسوالم ان تختاروا ، وانا اشفق عليكم . عندما اخبرت الرجال بالأمر ، نظرت اليهم ، وجوههم قاسية ، يتلامح فوق جلودها النحاسية عناد الريف الصامت ، وادركت ان الصبر الايوبى المترسب فى نفوسهم ، يستيقظ الآن ، وقلت ان هؤلاء الرجال ، لن يتنازلوا ، لن يتراجعوا بعد ذلك ابدا .

كان الليل قد استقر فى الخارج ، وكانت السوالم كلها نائمة . خرجت ، امام الخيام ، وقفت بمفردى .

— من هناك ؟

كنت اود ان اصعد فوق مئذنة سيدى الغريب ، ومن فوقها انادى بصوت عال ، اصيح : يا اهل السوالم ، قبلى وبحرى ، يا ايها الجوابون التعساء فى رحم الليل ، حينما يحمر الفجر ، وينتشر شفقه الاحمر على صفحة السماء ، لن تبصروا اثرا لطريق العودة ، من سفر كل ليلة ، ولكن لم العودة الى السوالم .

الظلام ووشوشات الاشجار واصوات الليل تحمل الدهشة والحنين . بدا لى الناس فى هذه الساعة ، يغزلون من ظلام الليل احلامهم ، ويتمدد الليل فى اعماق الرجال . حاولت ان اقرأ الظلام . قال لى الخبير اننى بدات تجربتى الاولى ، ولكنها جرت بشكل غير سليم ، الحياة ما زلت ممتدة امامى ، وانه ما زال هناك متسع من الوقت ، كى افعل ما اريده .

القاهرة من جديد ، الذهاب الى المنزل بعد الظهر ، تناول طعام الغداء فى المطاعم المتوسطة ، الجلوس فى صدر المقهى فى السابعة مساء حل الكلمات المتقاطعة ، قراءة صحف المساء ، الاستماع الى فضائح مدينتنا النحاسية ، الشاى والقهوة ، لعب الطاولة والدمينو ، قزقزة اللب ، تلميع الحذاء ، انتثاؤب ، الاحساس بفراغ عذب ، القيام ، التسكع فى الشوارع ، العودة الى المنزل ، وفى الحجرات الصغيرة ، نجتر الاحزان ، ونتأمل ما فى هذا العالم من شجن ومرارة واخفاق .

وهنا ، فى السوالم ، سيقضى الرجال ، ايام العمر ولياليه ، فى انتظار ان تتحقق المعجزة فى حياتهم ، ويمتلك البسطاء الارض والماء والغذاء . وقد يبذر الرجال فى رحم الارض احلامهم ، وينتظرون ، حتى يتحقق لهم كبرياؤهم الخاص . وعندئذ قد يمتلك الناس الارض والحياة . قد يشعرون بأنفسهم ، وينامون

على الاسرة ، ويستحمون مرة فى الاسبوع ، ويقضون حاجاتهم داخل مراحيض نظيفة ، ويشربون مياه نقية . قد تمتلىء المحافظ بالنقود ويتعلم الصبية ، قد يمسك الرجال بالجرائد اليومية معدولة ، ويفهمون الاحرف السوداء عليها . وحتى يحدث هذا ، سانطلق ، انا عصمت فهمى النجعاوى ، اجوب البلاد ، مزهوا بانكسارى ، وقبل ان ارحل ، ان اسافر بعيدا ، يجب ان اقول لاهل السوالم ، ماذا اقول لهم ؟ اوصيهم بالصبر الى ان يأتى الخير . اننا نهزم وبعد الهزيمة ، لا نجد الوقت الكافى كى نعاود الكرة ، فالموت يجىء سريعا .

جمعت اوراقى ، وضعتها على المنضدة ، اعددت فراشى ، وجلست . انصت لصمت الليلى . وقبل ان ارحل ، قبل ان اختم السفرة الاولى ، سأدور فى حوارى البلد ، وسأذهب لاول واخر مرة الى عشة سلسبيله ، وارمى على الناس والبلد السلام الاخير . فى الليالى التى مضت . كان الرجال يذهبون كل مساء ، الى عشة سلسبيله ، عشة صغيرة على شاطىء الترعة ، وفى الليل ، اشرطة الضوء تبدو من خلال ثقوب العشة . امام العشة تلمع رصاصية الماء ، ووسط الليل الصامت الهادىء ، تبدو العشة كتلة من الحياة الصاخبة ، مدفونة تحت صمت السوالم ، وفى المنتصف طبلية قديمة . فى آخر العشة من الداخل قفصان قديمان كفئا على الارض ، فرشت فوقهما جرائد قديمة ، وفوق اوراق الجرائد ، اكواب ، صينية شاى صفراء ، احجار جوزه فارغة ، ماشه . والرجال يكونون دائرة حول الطبلية .

لن انسى ذلك ابدا .

عندما ذهبت اليهم ، افسحوا لى مكانا وسطهم . جلست . تناولت من يد سلسبيلة كوب شاى صغيرا ، عبارة عن سائل لزج غامق السواد ، مرارته مركزة ، يترك اثرا دسما على اللسان ، يوجد الراديو على مكان مرتفع بجوار سلسبيله صوته عال ولا احد ينصت اليه . نسيت ان اقول ان سلسبيله رائعة . جميلة ، تساءلت لحظة مشاهدتى لها : كيف كانت تعيش هنا . جلس الرجال فى مواجهتى ، ابتعدوا عنى : لم يكن يجلس بجوارى احد منهم . ذكرتهم بالحاكم والمحكوم ، والحكومة ، كما قال لى ، حب الدين من قبل ، لا احد من رجال الحكومة يجلس الرجال بجواره النظرات متبادلة بيننا ، الصمت يزحم المكان ، اقترب حب الدين

منى . فى يده الجوزة . الرجال تنظر اليه بدهشة . قدم الى الجوزة . لم اشا ان اردها . دسست غابتها بين شفتى . سحبت نفسا.. شىء حاد ساخن يسرى فى النفس ، يختلط بمرارة ودسامة الشاى . يشيع فى النفس سرورا مفاجئا . تصعد سخونة هادئة من الصدر الى الراس . ان لكل مجموعة من الناس مسراتهم الخاصة . ومهما تكن الحياة جهمة شائهة . فان الناس قادرون على خلق مسرات صغيرة . يستسلم الراس . تدور الغابة بين الرجال . تنعقد سحابات الدخان الازرق فى جو العشة . لا يبدو من الرجال سوى انصافهم . تهيم النفس ويغيب العقل . وتبدو سلسبيله كأحلى نساء العالم . وقلت لنفسى . من لى بجلباب واسع وطاقية من الصوف وقدم تشققت من اثر مياه الرى . وصدر مغطى بالشعر وشارب كث وذقن غير حليق . وعند هذا الحد . ستبدوسلسبيلةغاية المنى. تتحرك الالسنة. واهمس فى بطء وتثاقل ان جسد سلسبيله وعد بلذة دائمة . وانها أحلى من نساء القاهرة . اين كانت فى الايام الماضية . ويصيبنى هم مفاجىء . دائما نكتشف احلى الاشياء بعد فوات الاوان ، نحب بعد تساقط شعيرات الراس . نتزوج بعد أن تصيبنا الكهولة .

— ضمنى وانا اضمك ، ليل الشقا طويل .

شمس العصارى غابت . ياللى بلادك بعيدة .

كانت سلسبيله تغنى . انسالت الكلمات فى خاطرى . وفى الاعماق . كانت الدموع الدافئة تسح . نظرت حولى ، كنت نصف نائم . وفى جو العشة ، كان الصخب والضجيج .

يوم الوداع .

٢١ ديسمبر سنة ١٩٦٤

خيام الغربا

قال عصمت لنفسه ، على غير موعد سيكون الرحيل . بدأ العمال فى فك الخيام ، حمل كل منهم اشياءه الخاصة . ورغم شكواهم الدائمة من الحياة فى السوالم ، واستعجال الرحيل ، ولتباكى من ظلم العالم الذى رماهم هنا ، فان الرجال هذا الصباح ، يشعرون بحب للسوالم ..

– والله الدنيا دى عجيبة

– حد كان يصدق

وفى مكان الخيام ، تبدو آثار الحياة . حفر مكان الاوتاد ، اماكن نظيفة من الارض ، بيضاء لامعة ، اماكن اسرة ومكاتب ، اعقاب سجائر ، فضلات مياه مداوقة ، اوراق ممزقة ، علب سردين فارغة ، ومن انجهات الاربع ، كان اهالى السوالم ، يقفون فى صفوف . عصمت يقف فى مكان مرتفع ، ينظر الى الناحية البحرية ، حيث الارض والبئر المؤجلة الى موعد غير معلوم قال لنفسه : انه أحب السوالم بكل ما فيها ، وان سلسبيله على الله ، قد تركت فى العين والقلب والصدر ، ما يكوى النفس ، احساس لاذع ومر ومؤلم . وسأل نفسه : هل سيراها قبل الرحيل :

عصمت فهمى يسير بخطوات بطيئة راسما دائرة ، حول الرجال القائمين بحمل المكاتب والحقائب والخيام واوانى الطعام والكراسى والاسرة ، ناظرا الى اسفل ، ان عينيه تنظران الى نفس الاماكن التى يدوس فيها بقدميه . عصمت يضع يده اليمنى فى جيب بنطلونه الايمن ، ويده اليسرى فى جيب بنطلونه الايسر ، انه يفكر .

ان الصغار من اطفال السوالم قبلى ، والذين كانوا ذاهبين فى هذه الساعة الى مدارسهم ، حاملين كتبهم ، ونافخين فى الهواء ،

محاولين طرد شتاء اتى قبل الاوان ، ما زالوا يذكرون المهندس : فى سيره البطىء ، شاب قمحى اللون ، يرتدى بنطلونا ازرق ، وقميصا سماويا مفتوح الصدر ، شاب طويل ، يقال عن مثله من ابناء السوالم ، انه ولد فى ايام الرخاء ، وانه من بيت عز . من فتحة القميص يطل شعر غزير اسود ، وفى محجريه تدور عينان عسليتان ببطء وشاعرية ، تمسحان البلد والحقول . ويومها ، سأل الصغار انفسهم ، وهم فى الطريق الى مدارسهم ، عن السبب فيما يحدث ، فك الخيام ، الناس المتجمعون ، ما يحزن المهندس فهو يبدو مهموما ، والمهندس فى نظرهم شاب أكمل تعليمه تخرج ، وتوظف ، واستراح من المذاكرة وضرب المدرس وسؤال الاب عن سير الدراسة ، واستجداء القروش القليلة من الاب والاخوة الكبار . ان صبية السوالم يسمعون دائما عن ايام زمان، يقال لهم : كانت اياما عظيمة ، اما هذا الزمان ، فأيامه بخيلة فى النقود والصحة والحال ، ولا يدركون السبب . ان جميع الاطفال ، قد اقسموا لانفسهم جميعا هذا الصباح ، بأنهم لابد وان يصبحوا مهندسين .

– مالك يا باشمهندس ؟

ترتفع عيناه سائلتين ، هو احد معاونيه ، لا يجيب عليه بكلمات واضحة ، يستمر فى سيره . بعد الغد ، يجلس فى مكتبه ، فى الدور العاشر من احدى عمارات القاهرة ، يشرب القهوة ، ينظر من نافذته ، يشاهد أسطح العمارات العالية ، الميادين المزدحمة الشوارع الطويلة الصاعدة فوق صدر القاهرة ، هذا كل ماهنالك.

– المهم ان الحكاية انتهت ..

– حكاية ايه ؟

– سواء بالخير ، او بالشر ، انتهت .

لا يكمل المهندس حديثه ، يستأذن ، يحاول ان يتمشى ، يكتشف ان صمت الناس والحقول والبيوت يضجره ، وعندما ينظر الناس اليه باحترام ، يقول ان الاحترام سيقتله . عصمت يجد نفسه مجبرا على ان يرد التحايا ، ويبتسم ، وينحنى ، ويقول للناس : انه رغم ما حدث ، فان كل شىء هنا ، على خير ما يرام .

● الرجال على الجسر ●

لقد تألموا كثيرا ، وتحملوا وبقوا يبتسمون .

قال لهم ابو السعود ، ان غيط ورداني ، كان من قبل منذ

مئات السنين ، قبر شيخ عظيم .

ـ قبر سيدنا الشيخ رضوان ، رحمه الله

فى منتصف الحقل ، دائرة صغيرة ، كانت دائما بائرة ، نباتاتها صفراء ، تنمو ، تذبل ، ثم تموت ، وتبدو من خلال النباتات ، سمرة الارض الغامقة . يقول ابو السعود : ان سن المحراث ، او حديد انفاس ، لم يكن يسوخ فى هذه القطعة من الارض ، لم يكن من الممكن اصلاحها ، لا بالسماد ولا بالكيماوى ولا بالمياه .

ابو السعود يرفع صوته . سيدنا الشيخ رضوان زاره فى المنام ، ليلة الامس ، كان حزينا ، شكى له اهالى البلد ، شكى الايام التى انعدم فيها الخير . اقترح عليهم ابو السعود ان تقوم البلد ببناء مقام صغير لسيدنا الشيخ رضوان ، فى نفس المكان الذى دفن فيه ، وهو منتصف ارض وردانى ، وبعدها قد يفرجها الله .

انهى ابو السعود حديثه . لم يعلق احد على كلامه ، لكن الرجال يدركون بالفطرة انه حدثت لهم خديعة ، خيانة . والخيانة مرة الطعم فى الحلوق . كاوية لحبات القلوب . الخيانة حدثت بشكل او بآخر : سرقة . مؤامرة . اتى اناس فى الليل ، والليل ليس له صاحب او حبيب . وكله اعداء . آذان تسمع . عيون ترى . سرقوا فى الظلام ما فى ارض وردانى .

السماء صافية ، صفاء خريفى كاذب . بعد قليل ، يسافر المهندس . تاركا البلد . ويعود الرجال الى بيوتهم . يغمسون لقيماتهم بالاتهامات . ويرسو الذبول فوق العيون والوجوه ، بدا لهم الصباح متعب الجبين . وطار فى السماء ، طائر اسود اللون مهاجرا نحو الجنوب . وراح يطعن الفراغ . بجناحيه فى خفة وسرعة . وتعلقت به انظار الرجال . تابعوه . حتى وصل الى حافة الافق . حيث تلتقى السماء والارض . وعادت عيونهم مرة واحدة ، نظر كل منهم الى الواقف امامه . وكأنما قد عجزوا عن ان تلتقى العيون . فراح كل منهم يعبث بيده .

ـ ما توحدوه .

ـ لا اله الا الله .

ادركوا انهم جميعا موتى . الايام التى مضت . يقول الرجال ، لم يكن لها صاحب . وأيامهم القادمة . ستكون مليئة بالجراح . الرجال يقفون على الجسر فى انتظار المهندس . فى العيون نظرات حالمة . النظرات تشتعل بوميض حار ملتهب . ومن تحتهم . كانت

مياه الترعة ، تسير هادئة . نحو دميسنا وكفر عوانه . غير مبالية بما يحدث فوق الجسر ، ليلة الامس ، ذهب الرجال الى حقل وردانى ، جلسوا حول الحفرة الكبيرة ، وكانت قطع الطوب الناتجة من الحفر متناثرة ، وراحوا يتمعنون فى حلمهم القديم . اقتربوا من الحفرة ، كاد بعضهم يسقط فيها . كانت هناك ـ مكان الحفر ـ مياه نشع تنز من جدران البئر ، وآثار اقدام ، فى طريق عودتهم ، قالوا كلاما كثيرا ، ضحكوا ، القوا النكات ، ضرب بعضهم بعضا ، وكان الاتساع الليلى يعجن الاصوت والحركات والاحزان .

وقف المهندس بينهم ، اتجهت اليه العيون والايادى والقلوب . اتفقوا جميعا ، ان الصمت هو خير ما يفعلونه ، حب الدين اتى مع المهندس ، كان يبدو عجوزا ، راح ينظر الى مياه الترعة الهادئة ، وهو يقضم اظافره بهدوء ، ساله المهندس عما يشغله :

ـ مافيش حاجه .

المهندس يبتسم ، لم يقتنع احد من الواقفين بان حب الدين ليس عنده ما يحزنه . تحركت شفتا حب الدين دونما ارادة منه ، ساله المهندس : هل معه نقود ؟ فقال : انه معه الكفاية ، ساله عن سلسبيلة ، فاخبره بانها قامت مبكرة هذا الصباح، على غير العادة وحضرت الى العشة ، كى تراه قبل سفره . شعر حب الدين عقب حديثه بخجل ، الستر يكتسب معنى خاصا . قد يعيش المرء حياته بشكل ما ، وعندما يتعرى امام عيون الآخرين ، فانه يشعر بالغضب ، يحاول ان يخفى بعض الامور . ساله المهندس : ان كان العمدة قد اغضبه ، او هل هو مريض .

ـ والله العظيم ما فى حاجة .

ـ امال فيه ايه ؟

طلب منه المهندس ان يحكى لهم كيف قضى يومه ، منذ ان صحا من نومه ، حتى الآن . قال كلاما كثيرا ، ان دماء حمراء تصعد الى وجهه ، ولم يدر ماذا يقول :

ـ لازم شفت حاجة فى المنام .

ـ لا .

ـ افتكرت الارض والمدارس وليالى البنادر .

ـ لا .

ضرب المهندس كفا بكف ، ركب السيارة ، وهو يحاول ان

يضحك ، اعتدل فى جلسته . نظر فى ساعة يده . كانت زرقة السماء تنعكس على مياه الترعة . راحت عيناه تدوران فى بطء على البيوت والاشجار ومئذنة الجامع ودوار العمدة والجسر والترعة .

— سوق يا اسطى .

رفع يده للرجال ، لوحوا له بايديهم ، سارت السيارة ببطء . وصلت الى آخر الجسر ، استدارت ، اعتدلت على الطريق الزراعى . خيوط النظرات تربط عيون الرجال بالسيارة المبتعدة . السيارة تسرع فى سيرها متجهة ناحية الضهرية . واتسعت المسافة ، فطالت خيوط النظرات حتى تمزقت . واسرع الجسر والاشجار مرتميين الى الخلف ، وارتمى الطريق خلف السيارة دائخا ، متحولا الى شريط صغير من التراب الرصاصى . على جانبيه الاشجار والحلفاء ، وفوق آخر نقطة فى الطريق ، تبدو السماء زرقاء . السيارة تسرع ، الطريق الى مصر ، دائما السفر . وفى السماء المغسولة بالشهد ، كانت الطيور تطير مهاجرة نحو الجنوب معلنة اقتراب الشتاء ، وكانت شمس الخريف اللينة الصفراء تسكب اشعتها على الكون .

المهندس يفكر فى حب الدين . بالتحديد فيما يضايقه . اعمل ذكره ، قال لنفسه : انه لا شىء يضايق حب الدين . استدار نظر الى السوالم ، كانت البيوت تدور فى بطء ، وكانت السوالم كلها تتباعد ، وتصغر وتنخفض عن مستوى النظر .

عشة سلسبيله على الله

قال لها عصمت :

— ياتيجى معايا اوضتى . يا اشوه وشك بمية النار ..

كانت تسير فى حاره باب الوداع ، قال ان حجرته بالقرب من القلعة ، فى آخر شارع محمد على . ليس له جيران . الايام صعبة ومن الخير لها ان تطاوعه ، كانت فى يده زجاجة صغيرة . وكان الليل فوق صدر المدينة . سلسبيله تعرف انه لن يفعل شيئا . وقفت فى مكانها ، واستراحت الملاءة السوداء على ثنيات الجسد الطرى ، وراحت تمضغ اللبانه ببطء ، رفعت يدها فوق حاجبها واهتز الجسد :

— لا ياواد ، خفت منك ، تعال خش فى عبى .

ضغط عصمت بأسنانه على شفتيه ، حتى كاد يدميها ، ثار فى داخله احساس دافىء .

— ما كانش يتعز ياسى عصمت .

— يا سكر .

— فوت بكره .

لم يكن من عادتها ان تصحو من النوم مبكرة . قالت لنفسها ، بعد ان حضرت الى السوالم : ان ايام القحط . فائدتها النوم . كانت تنام حتى اذان العصر ، وكانت تدرك ان ما تفعله شبيه بالمرض . لم يكن نوما ، كان نوعا من الاستلقاء على الظهر ، فى انتظار ما يحدث . فى هذا الصباح . صحت من النوم مبكرة ، حضرت الى العشة ، كنستها ، رشت ارضها بالمياه ، منذ ليلتين عرفت ان اسم المهندس عصمت ، لم تصدق ، سألته بصوت عال : ان كان اسمه عصمت . امتص الظلام صوتها . وتاه النداء بين جنبات الصمت .

سلسبيله تجلس فى العشة ، فى انتظار أن تراه ، ان تقف امامه . وتقول العيون ما يقال . تلتقى الايادى ، تحتك الانامل ، وتملأ الانف من رائحة جلده ، وتحمله السلام الى مصر الغالية ، تريد ان تقول له : انها هنا ، ترتدى العرى ، تحيط بجسدها نظرات الرجال ، تغطيه بالرغبات .

بعد ان صحت من النوم ، وقفت امام المرآة ، مشطت شعرها ، اخرجت من صندوقها القديم ما زينت به وجهها .

— والله زمان يا سكر .

بحثت فى صندوق ملابسها ، اخرجت فستانا زاهى اللون . ارتدته على مهل ، رفعته قليلا بيديها ، راحت تخطو على اطراف اصابعها فى الحجرة ، ادركت انها ما زالت جميلة .

— ياخسارة يابت يا سوسو .

ترنمت بمقطع من اغنية قديمة ، كلمات مبللة بالفراق واللوعة شكت سوء الحال . قالت لنفسها : الحياة لم تعد تطاق عجبت كيف قضت الايام والليالى والشهور التى مضت . النوم والاكل والشرب ، النوم والصحو ، النوم والرغبات فى العيون ، غيرة حب الدين . الانتظار ، الوعد بالزواج : الحلم بحياة مستقرة . السفر الى المدن الكبيرة . تساءلت وهى تدلق مياه الغسيل . وتخرج الشعيرات بأصابعها من بين أسنان المشط ، بعد ان اكملت زينتها ، الم يأت زمن النزوح بعد ، وهمست لنفسها : متى تستريح اليد فى اليد وتنسج الشفاه كلمات غير مسموعة

وتتحول النظرات الى حبال للمودة .

سلسبيله تسير متجهة الى العشة : المياه تملأ الترعة : اوشكت ايام الجفاف على الانتهاء ، المياه تجرى ، دموع الاحزان الجنوبية ذكرى عصمت وحارة باب الوداع والدفء المفقود ، السماء المغسولة الصامتة ، الحقول الممتدة . سلسبيله ما زالت تسير فى حوارى البلد ، وسلسبيله فى سيرها تشاهد البلد وقت الصباح ، تشعر كأنها تشاهد البلد لاول مرة . سلسبيله تفكر فى نساء البلد ، لا تذكر انها خاطبت احداهن من قبل ، تعاملها مقصور على الرجال وما ان تأتى سيرة سلسبيله ، حتى يهتف النسوة :

— الشر بره وبعيد .

ربما يرثين لها فى سرهن . وقد تعجب احداهن بها ، وهى جميلة ، هذا الاعجاب لا يعلن امام الاخريات ، وقد تتمنى احداهن ان تنجب فتاة صغيرة فى حلاوة سكر ، وتظل هذه الامنية سرها الذى لا تبوح به لاحد ، حتى ولا ازوجها ، وقد يختلفن فى جميع الأمور ، الا انه من المتفق عليه ، ان سلسبيله حلوه .

— تقول للقمر قوم وانا اقعد مكانك .

ما ترتديه من ملابس ، يدهش الجميع . سكر تعرف هذا ، وهى منذ ان حضرت الى البلد ، لم تحاول ان تكلم احدى النساء فى كل يوم ، تسير فى الحوارى الضيقة ، وجزء من الشارع الرئيسى ، واثناء سيرها ، تنحدر الابواب والبيوت والنوافذ الى الخلف ، وهى تعرف انها مبطنة بمحاجر صغيرة ، تدور فيها عيون بلا رموش ، تشاهدها ، يتحدثون عن حكايتها مع حب الدين. النساء تقول : سلسبيلة امراة ماشية «على حل شعرها»، وقد تتمنى احداهن ان تكون مثلها ، وان تفعل ما تفعله ، وتظل هذه الامنيات نجوى صامتة ، ورؤى ضبابية فى الصدور، وسلسبيله تسمع كل ما يقال عنها : حتى ما تتنبس به مناقير ابو قردان الأرض العطشى وقت الرى ، وشوشات ورق التوت ساعة هبوب الرياح. الرجال فى السوالم ، فى ساعات العراك والغضب مع نسائهم ، يعايرونهن بسلسبيلة ، وعلى الفور يقال كل شىء ، وتبقى حكاية سكر معلقة فى اماقى العيون ، كالبراءة المفقودة ، او العفاف الذى انتهك وولت ايامه . وقد تتذكر النساء : عند مرور سلسبيلة عليهن ، ذكريات مدفونة فى قاع العقل : الحلال والحرام ، رائحة زوجها مقترنة برائحة رجل اشتهته . وقد تتذكر بعض النساء ،

انها تذوقت الحرام فى ساعة راعشة ، فى الحقول الواسعة ، وتتذكر ان الستر كان آخر ما تتمناه . تقول النساء : سكر مسكينة وغلبانة .

— دى وليه .

— والوليه مكسورة الخاطر .

ويطلبن لها من الله الستر والغفران .

فى العشة ، كانت سلسبيله على الله تنتظر .

● منزل فتحى سالم ●

فتحى سالم يقف خلف نافذة حجرته ، تهيم نظراته فى فضاء الحقول المتسع ، تمر عيناه ببطء على ما يراه . استيقظ من نومه متاخرا ، وفى ليلة الامس ، رقد فى فراشه ، لم ينم ، فكر وفكر ، تقلب على جنبيه ، ضغط على رأسه الملتهب بيديه وطلب من الله الرحمة .

ان سحابة من الغبار تتحرك على الطريق الزراعى ببطء الآن ، ثم تسرع متجهة ناحية الشمال ، فى الاتجاه المعاكس لسير الريح ومياه الترعة وطيران الطيور المهاجرة نحو الجنوب . فتحى سالم يدرك انها سيارة المهندس ، وهو مسافر . قال فتحى سالم عند حضور المهندس : ان حضوره خطر عليه ، يشعر بفراغ بسبب سفره .

— خلاص .

بدت له البيوت والناس والترعة والرجال على الجسر، كصورة معلقة على جدار الذاكرة ، يستعيدها الانسان كل صباح ، اتى سفر المهندس عليه وعلى اعدائه ، وهو لهذا ليس حزينا ، فى المركز، منوه بوظيفة، بالليل يكتب الاوراق سرا ، وفى الصباح، يذهب الى المركز . طلبوا منه الا يخبر احدا بذلك ، ولا حتى حبيبة القلب ، اقسم انه لا يعرف احدا ، وان عزلته ليست احساسا نابعا من الداخل ، بل هى سور قديم بنته الظروف حوله ، قال انه يحادث نفسه كثيرا ، عندما لا يجد من يتكلم معه ، تعود الناس ان يشاهدوا نور حجرة فتحى سالم مضاء . انه آخر الاضواء فى ليل السوالم الساهر . والرجال الساهرون على الجسر ، يشاهدون ظله يروح ويجىء فى الحجرة الصغيرة . منزل فتحى سالم فى آخر البلد من الناحية القبلية ، مبنى على مكان مرتفع . ويقول الناس : ان المكان المرتفع فوق كوم كان مسكونا بالجن والعفاريت من قبل .

وفي الصباح ، كانوا يشاهدون فتحي سالم ، وقد استيقظ مبكرا ، رغم سهره . انه يترك منزله ، وقد ارتدى بدلة قديمة ، مخططة ، لايملك سواها ، يمسك بيده شمسية ، يلف حول رقبته منديلا ابيض . انه ذاهب الى ايتاى البارود ، يحرص في سفره على الا يقترب من احد بالكلام او الانصات او السؤال ، دائما بمفرده .

في ايتاى البارود ، يقول الرجال : انه يسنم على الحكمة ، ويقول هو لأمه بعد عودته ، انه قابل فلانا وفلانا وعلانا ، وشرب الساخن والبارد ، وجلس على المقاعد الوثيرة ، ورأى سماء ايتاى البارود المغسولة بالشهد والحنين من خلال نافذة مغطاة بالستائر الوردية الناعمة .

فتحي سالم يدرك ، ان موضوع الوظيفة المحترمة ، والمرتب الثابت أول كل شهر ، والجاه والمنصب ، قد طال تأجيله . الامور في منزله قد اصبحت اسوا من اي وقت مضى ، وكبرياؤه في البلد اصبحت مهددة . وفي كل مرة يجلس هناك ، يبتسم ، يجفف حبات العرق ، تتحرك شفتاه في حركة تشي بالتنازل .

ـ باقول لك ياسعادة البيه .

يقول كلاما كثيرا ، البسمة الذبيحة تسبق الكلمات ، والاحرف المتآكلة تزحم هواء المكتب .

ـ انا بس بافكر سيادتك .

في البداية ، قرر فتحي سالم ان يصفي حسابه مع البلد . صفحات مكتوبة مدون عليها بالحبر الاحمر « سرى للغاية » . طلبوا منه ان يراعى الدقة ، وان يراجع نفسه . ذهب يسأل عن السبب في تحولهم عنه وسوء معاملتهم له . لم يعطه احد وجها . استأذنوا منه ، فالوقت كله ليس مخصصا لمقابلات الناس.

فتحي سالم يعود من ايتاى البارود ذات مساء مريضا ، يسير ببطء ، ينظر ناحية البلد والناس ، كأنه يودعهم . في حجرته ، جلس ، هذى ، قال كلاما كأنه الهلوسة . قال ان الاعداء من امامه ومن خلفه . من امامه اهل السوالم ، ومن خلفه ايتاى البارود. قال انه يجب ان يضرب في كل الاتجاهات والله المستعان. صاح ، بكى ، ارتعش جسمه ، نام في سريره ، امضى اياما مبللة بالسهاد والمرض ، خاطب اناسا في الخيال . وفي احلامه ، تشفي وتوعد . وقال : موعدنا الغد ، وليس الغد ببعيد . بعد ان شفي يخرج

الى البلد مرة اخرى . قال الناس : فتحي سالم تغير ، المعلم يعقوب همس للرجال ، بعد ان اعطاهم فتحي سالم ظهره ، عائدا الى منزله :

ـ دي صحوة الموت .

فتحي سالم يقول لنفسه : انه كان ينتظر الخير على يدي المهندس

ـ زي كل المرات السابقة ، الواحد يصحى من نومه ، يتصور ان الموضوع فيه حاجه ، يقوم ، يفرح ، يلبس ، يشتم ، تكرهه الناس ، وتخلص الحكاية ، وافضل هنا لوحدي ، وورايا حاجات كثيرة ، كراهية وخلافات وجراح ، اما قدامي ، بركة ساكنة ، عليها ناموس وهاموش . آدي الحكاية .

فتحي سالم يستدير ، يعطي ظهره للنافذة ، يطالعه المنزل من الداخل ، وفي داخل المنزل ، امه واخوته . يسير في حجرته ، امامه مكتبه القديم المتآكل ، على المكتب قلم ودواة حبر وورق ابيض . هنا يكتب للناس شكاواهم . هذه المرة سيجلس ، لن يكتب شكاوى . سيكتب عن حالته ، تسع شكاوى ، لن تنقص او تزيد واحدة . يرسلها الى جهات كثيرة . ويجلس هنا منتظرا .

في الخارج ، الرجال يتمددون في استرخاء ، وفي حوارى البلد ؛ يستمع الى صوت واه يستجدى. انه شحاذ يتجول، يطلب من الناس ما يفيض عن حاجتهم . فتحي سالم يجلس على مكتبه ، ينظف قلمه ، يغمسه في الدواة ، وعلى نافذة حجرته ، هبت نسمة هواء جافة .

● حب الدين سرحان ●

مناجاة : انصت يا قلبي ، مددت يدي القصيرة ، امسكت به بجلبابه الطاهر . توقف ، نظر الي ، وكانت تطل من وجهه نورانية . سألته ، قلت له : لم حرقت السفينة ، وغرقت حتى القاع . قال لي : السفينة لم تحترق . انني اتكلم : فهل تسمع الي ، ما العمل ياسيدي . خانتنا الريح ، وفرغت القلاع وجفت المياه ، وجنحت السفينة . نامت على احد جنبيها . جلسنا على سطح الماء . انغرست نظراتنا في سماء الله العالية . انتظرنا ان يطلع علينا طائر ، يحدد لنا مكان اليابسة . انقضى العمر ، ومات البعض ، الطائر لم يطلع علينا . لم يرد علي ، ادار وجهه ، وكان عليه هم عظيم ، سار ، طار في الهواء . وقلت لنفسي : فلنملأ القلاع بما في الصدور ونسد الخرق بقطع من القلوب ، وعلى

حبات الدموع الدافئة ، ستسير السفينة .

بعد قليل ، يستأذن حب الدين سرحان من الرجال ، ويعود الى بيته ، تاركا سلسبيله فى العشة بمفردها . فهو يريد ان يخلو لنفسه . سينام ، يوما او يومين ، نوما عميقا وقد ينام العمر كله . حب الدين سرحان يدرك هذا الصباح ، انه تعب بما فيه الكفاية . هيكله مريض ؛ وعظامه تفككت ؛ ولا يطلب سوى النوم

المهندس ، الباشمهندس ، مهندس البترول ، عصمت افندى ، عصمت بيه ، الباشمهندس عصمت ، سعادة البيه ، حضر المهندس ، ذهب المهندس ، اتى المهندس ، قام المهندس بعمل كذا . قال المهندس . مكتب الشركة الفرعى بالسوالم بحيرة فى سكرتيرة مهندس المشروع . قال المهندس لفلان كذا ، المهندس يعلم كل شيء . قلت للرجال فى العشة ، ذات مساء اننا ما زلنا صغارا ، واننا سنسمع مع الايام القادمة حكاوى ، لن تصدقها الاذان لحظة سماعها ، العمر ما زال طويلا امامنا . علم المهندس لا تحده حدود . يا اهالى البلد ، الحاضر يعلن الغايب ، وارتفعت رءوس الرجال كسنابل عجفاء تحدق فى السماء ؛ تسمع المنادى ، تقال كلمات ، تذبل على الشفاه ، وسيولد الاطفال وينسون حكاية البئر والبترول واحلام الآباء ، وتحدق الكلمات فى بطولة الايام المفقودة . حضر المهندس ، لف ودار ، سافر وحضر من جديد ، ثار على كل ما فى البلد ، قرر ان يضع شيئا يبلغ حد الروعة ؛ غير ان واقع السوالم ، شكل حياته ، كسره ، وعندما استعصى على الكسر قتله . وبعد الحكايات ، الكلمات المبللة بالشوق ، الايام المخضبة بالذكريات . تعود الحياة الى ما كانت عليه والحمد لله . فى الليالى الطوال ، غمسوا خبزهم فى ماء العين ، مضغوا اللحم حتى التخمة . وفى الصباح ، تسلل شعاع صغير من نقب الباب . كنت انام على ظهرى ، فاتحا عينى عن آخرهما . كانت الاشياء تبدو فى شريط الضوء واضحة ، غبار ، ذبابة ، ناموسة . تظهر فى شريط الضوء ، تعبره فى سرعة . تختفى اختفى الشعاع . عرفت ان الشمس قد اصطدمت بمنزل الجيران اثناء صعودها فوق صدر السماء ؛ افتح لهم الباب ، آخذهم بالاحضان ، تمسك اصابعهم الخشنة بالقلب ، تدوس اقدامهم فى الصدر ، تضحك ضحكات مسلوخة . وتتحول الاصوات الى ضربات على طبلة الاذن . اللى حا يحصل فى السوالم معجزة ، وانا

اصر على كلامى ، انا احذرك ياحب الدين انت والمهندس ، الاتحاد حايصفى المشروع كله ؛ تتجوزنى ياواد ياحب . اقول متى تاتى النهاية يا اصدقاء كل ليلة . **اسمعونى** . **بعد** ايام تحدث المعجزة ، يتدفق البترول ونسعد . **صدقونى** . ليس هذا كلام المهندس ؛ او رؤيا شاهدتها فى المنام . **بل** ان **هذا** ما عرفته بنفسى . ستصبح لحظة المساء هى القنطرة ، بين الرجال ، وبين الليالى الدافئة ؛ يا رفقة السهر .

ــ يقابلك صاحب الملك الصبح .

ــ اشمعنى .

ــ يطالبك باجرة الجلابيه اللى لابسها .

ــ ها . ها . ها .

يضحك الرجال ، يضربون اكفهم على حوائط العشة ، يستلقون على الارض ، تسيل من اشداقهم ضحكات باهتة ..

ــ محفظتك تقول للمعلم يعقوب ساعة مايطالبك باللى عليك :

ــ اشمعنى .

ــ وانا مالى يابويا وانا مالى .

ــ ها . ها . ها .

تمتلىء العيون بدموع مفاجئة ، وينتعش فى الاعماق حزن راكد .

استمعوا ، ساحكى لكم حكاية ، من جدب الايام تغزل الحكايا . بالحكايا نبذر فى رحم الارض احلامنا . ونجلس ، ننتظر ايام الحصاد ، وفى ايام الانتظار ، نعوم فى بحار الكلمات .

ــ يحكى ، والله اعلم ، انه حدث فى قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان ، ان كان فى بر مصر ، جماعة من الرجال ، ضاقت بهم الحال . وافزعهم سوء المآل . قالوا لانفسهم ، لنترك الديار ونسافر ، لنرى ، هل حدث لغيرنا ، فى اى مكان آخر ، ما يحدث لنا . ثم انهم سافروا ، ركبوا الريح ، وخاضوا الماء المتاجج ، وداسوا مساحات اليابسة ، غير انهم بعد ان وصلوا الى البلاد البعيدة ، حدث ان ..

القاهرة — الضهرية ـ بحيرة ١٩٧٢

تمت